
محمد صادق
إذْمًا
تسعة كنوز وتسعة أوامر حتى تجدني
ЗЕНИТ-Е
رواية

محمد صادق

إذْمَا

تسعة كنوز وتسعة أوامر حتى تجدني

رواية

إِذْمَا

(تسعة كنوز وتسعة أوامر حتى تحدث)

محمد صادق

■ الطبعة الأولى .... يناير 2020

تصميم الغلاف: كريم آدم

صورة الغلاف: خلود خليفة

التصحيح اللغوي: محمد عبد الغفار

رقم الإيداع: 3398/ 2020

الترقيم الدولي: 6 - 098 - 824 - 977 - 978



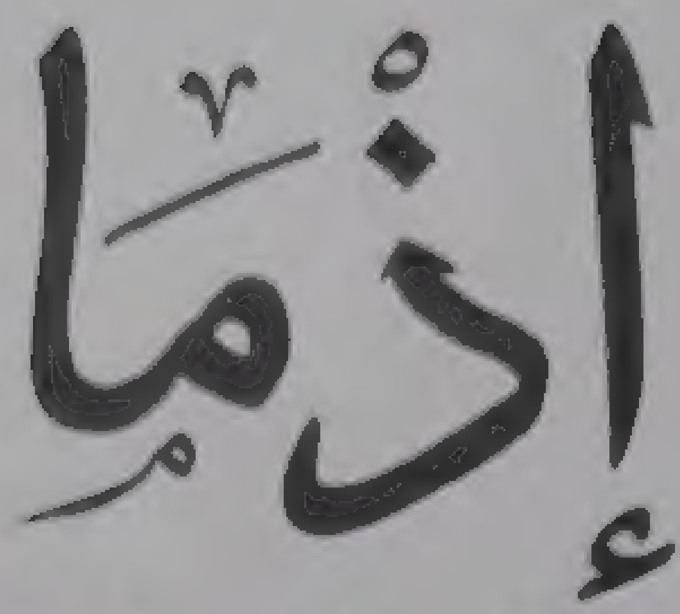
186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing





إذما

تسعة كنوز وتسعة أوامر حتى تجدني

رواية

محمد صادق



الرواق للنشر والتوزيع



توضيح هام

لمعرفتي التامة بعشق القراء الأعزاء ربط أحداث رواياتي بالواقع.. وجب التنويه..

جميع أحداث الرواية وشخصياتها من وحي خيال المؤلف..

وأي تشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل الصدفة لا أكثر.



إلى كـل من يـؤلـم بكلمة «دائمًا»..
كلنـا مؤقَّتـون..
فلماذا تَعِد بالـدوام؟



استهلال

الخطوة الأولى للتعافي من علاقة سامَّة، كما تقول الكتب: أن تشغل عقلك دائمًا..

لهذا، وقفت أنتظر في ترقُّب شديد وجهاز التلفاز الحديث يحارب كي يعرض ذلك الفيديو القديم الذي أجبرناه أن يعرضه..

- ... إحم.. كل سنة وانت طيب يا «عيسى».

عندما سمعتُ صوته دبت قشعريرة في جسدي كله.. نظرت إليه وهو يقف محتلًّا شاشة تلفازي الكبيرة.. خلفه مكتبي القديم في غرفتي القديمة.. ضيَّقت عينيَّ في حيرة..

من هذا؟

سمعتُ صوت ضحكة «سيرا»، اكتشفت أنني ما زلتُ أقف في منتصف شقتي شبه الخالية من الأثاث.. منذ قليل وقفت حتى أضع الـ«USB» في التلفاز، وفتحت الفيديو، وظللت واقفًا في تلك الحالة.. التفتُّ لها بطرف عيني، لأجدها جلست بجواري تنظر إلى الشاشة مثلي في حنان، وابتسامتها الرائعة تملأ وجهها، نظرت لي وقالت مشيرة إلى الشاشة:

- كنت أهبل قوي وانت عندك ١٨ سنة يا «شواف».. حد يلبس بيجامة وهو بيصوَّر مشروع عظيم زي ده؟

ابتسمتُ في مجاملة، داخلي مشاعر متضاربة غير مفهومة، لاحظتْ «سيرا» البيجامة كعادة النساء في الاهتمام بالتفاصيل، في حين لم أبالِ أنا بها كثيرًا

أزندي في ذلك الوقت قدر اهتمامي بكل تفاصيل الغرفة التي أعادتني إلى فترة لم أعُد أذكرها..

تفصيل وجهه.. أو وجهي في ما مضى

لم أعُد أعرف..

التفتُّ للشاشة ثانيةً في رهبة خفيفة. أصبح لدى الشاشة ما تعرضه لعل نفسي ما.

نظرت إليه أتأمله.. تلك العين اللامعة بالشغف.. الجسد الرفيع لمراهق في الثامنة عشرة، الشعر المتناثر في رأسه، وعيناه البنيتان الشغوفتان.. الحماس المفرط والضحكة الواسعة.. كان ينظر إلى الكاميرا، لكنني شعرت أنه ينظر لي.. لأول مرة في حياتي أدرك معنى كلمة أصدقائي عندما يخبرونني أن لديَّ عينًا تخترق أرواحهم.. شعرت أن عينيه تنظران إلى روحي وليس إليَّ.. شعور غريب وغير مريح بالمرة.. أشار إلى الشاشة بمعنى أن أنتظره لحظات.. ضغط على شيء ما لتبدأ نغمات أغنية بصوت خافت.. ما إن بدأت حتى شعرت برجفة حنين..

سمعت صوت «سيرا» وهي تعتدل بحماس وتقول بحنين شعرت به يحتوي كل ما حولي:

-ياااااه.. يابن المدينة.. أنا بعشق الأغنية دي.. أنا اللي سمّعتهالك أصلًا..

أومأت برأسي أن نعم..

"Do you still remember how we used to be?

Feeling together, believing whatever."

بدأ يتمايل على الأغنية مغمض العينين في صفاءٍ أفتقده.

متى كنت رائق البال لهذا الحد؟

قال بابتسامة طيبة وهو يبدو عليه الإحراج:

- اريك يا «عيسى».. يارب تكون فاكرني
أومأت برأسي في بطء أنْ لا. أنا لا أذكره بالفعل. لكنه ضحك ضحكته الطيبة في الفيديو وأكمل:
- أنا يا سيدي «عيسى عبد الآخر العسال»، الشهير بـ«عيسى الشواف»، أبو ١٨ سنة.. أكيد انت عارفني بس لازم أعرَّف نفسي في الفيديو دي ما انت عارف.. لو كل اللي أنا مخططله اتنفِّذ زي ما أنا عاوز. فانت المفروض تكون دلوقتي نفس الـ«عيسى عبد الآخر العسال»، وعندك ٣٦ سنة.. قولي إن أنا صح والنبي وإن كل اللي عملته ده مشي زي ما أنا عاوز.

"Viva forever, I'll be waiting..
Everlasting, like the sun."

أومأت برأسي أنْ نعم من دون أن أردَّ. شعرت بإحساس غريب أنني أرغب في الرد كأنه سيسمعني، لنقول ما جعلني أتراجع خطوة للوراء في هدوء وأبتسم:
- أنا مستنيك ترد.. شفت أعبط من كده؟
وضحك ضحكة عالية رائقة لم أضحكها منذ زمن، لتصاحبها ضحكة «سيرا» المستمتعة بجواري.. ضيَّق «عيسى» عينيه ونظر حوله لحظات، ثم نظر للسقف كعادتي عندما أحاول تجميع أفكاري، صفق بيديه فجأة وقال بحماس:
- افتكرت..
وأكمل هو جاعلًا ابتسامتي تتسع:
- أهلًا بيك في مشروعنا العبقري.. أول فيلم تسجيلي فيه المعنى الحقيقي لكلمة «كبسولة زمن».
وتنحنح ليكمل ما لا أذكره على الإطلاق:
- أنا كنت قاعد بذاكر لامتحانات الثانوية العامة.. أنا وانت مواليد

[illegible]
عمالك يا نور وارقص تلف!

[illegible] وضحك، [illegible] ... أكمل هو بعد ضحكته [illegible]

- صوت جرس المدرسة ما كنش [illegible] الناس [illegible] ساعتها [illegible] أفكر [illegible] تحفة لدرجة لا تُقاوَم..

كيف لا أتذكر كل هذا؟ لا أذكر حرفًا واحدًا، كل ما أستطيع تذكره الإتيان به هو أني نفذت هذا المشروع، أتذكر خصوصًا عيصة الآن، لكن تفاصيل كلامه وما فعله بالضبط، لا أتذكره.

للحظة انتابني خوف من أن أكون فقدًا للذاكرة من دون أن أدري، أكمل هو وهو يحرّك يده كثيرًا كأنها تساعده في شرح ما يقول:

- الدنيا حوالينا بقت صعبة قوي يا «عيسى».. إحنا في سنة ٢٠٠٢ كل حاجة بتتغير بالراحة وبسرعة في نفس الوقت.. كله بيشتم فينا ويقول علينا جيل تافه وبتاع نت وموبايلات.. وإننا عيال فاقدة من بدري.. المهم يعني عشان أول ڤيديو دا مقدمة بس..

كنت أملّ من نفسي عندما أستطرد في الكلام حتى الآن، جميع مَن يبقى حولي يملون من طريقتي في الكلام، أشعر أنها مسؤولية أن أشرح كل شيء قبل أن أقول ما أريد أن أقوله، ونحن الآن في زمنٍ لا بد أن تقول فيه كل شيء في ثوانٍ حتى لا تفقد تركيز مَن تُحدِّثه، قبل أن يشرد منك لينظر الإعجاب أو التعليق على «فيسبوك» أو «إنستجرام» أو يغوص في رسالة «واتساب» صادمة..

[illegible]

س ميت من جواه.. يرس في مكنة..

وصمت خطاب [illegible] لأكتشف أني [illegible] شارد في كلامه، يكمل هو مقرب وجهه من [illegible]!

ـ [illegible] حصلكم؟! [illegible] يسمعوه بصح [illegible] مش شايفه غير موت.. ميحلموش [illegible] بتحبيبو [illegible] وعندهم كلمة واحدة بتستفزني [illegible] هتعمت كتير! [illegible] بيقولوها [illegible] وبصوت غريب كأنهم مسوطين بالي هم فيه للدرجة بتستفزني وتحرق دمي..

صرخت كلماته جدران قلبي فاهتز كياني كله..

من هذا؟

أكمل بعصبية وقد انفعل في الكلام فأصبح صادقًا لا يهاب الكاميرا:

ـ حبوبي مش عاوز أكبر ولا عاوز أفهم..

وأكمل بإصرار غريب وهو ينظر إليّ مباشرة بصرامة:

ـ أنا عاوز أبقى أنا بس..

"Promises made, every memory saved..

As reflections in my mind..

Hasta mañana, always be mine".

صمت خطاب فظهرت كلمات الأغنية واضحة، ابتسم هو كأنما يسمع نغمته المفضلة، قال بهدوء:

- الفكرة ببساطة إن هاسجل فيديوهات في عيد ميلادي الـ ١٨.. عشان تشوفها انت لما تبقى ١٨ سنة. أنا عارف إنك هتبقى عامل إيه.. بتحلم ربي؟ حتى بحلم إنك تبقى أعظم مخرج في مصر، ولا لأ؟ بس لو سيبت اللي سرحت وبقيت زيهم.. لو سمحت لنفسك تدفن كل حاجة حواليك، عشت في الساقية بعتهم.. بقى عصبت عليك هتنفذ الوصايا اللي ماسبهالك. مش مهم عندي منحور ولا محلف.. أبوك وأمك عايشين ولا ميتين. مديون ولا متبّل.. عصبت عليك هتسيب كل حاجة في حياتك دلوقتي وبعد كل أمر هقولهولك.. تسجل فيديوهات وانت بترد عليّ.

شعرت بالغضب من وقاحته وقلة خبرته، من هذا الطفل الساذج الذي يريد أن يأمرني من دون أن يفهم أي شيء عمّا يدور في حياتي؟ أكمل كلامه:

- هيبقى أول فيلم تسجيلي حقيقي بيني وبينك وبين صحابنا.. والناس كلها هتعشق الفكرة وهتلمسهم جدًّا.. ويبقى أول فيلم أبطاله حقيقيين وبيكلّموا الماضي بتاعهم..

صمت فجأة ونظر إليّ لحظات، ثم ابتسم ابتسامة متعجبة وهو يقول.

- مش عارف ليه استغربت إن أنا هابقى ماضيك في زمنك.. حاسس إن الفكرة مش منطقية لأني عايش دلوقتي.. وانت لسّه ماجتش..

ثم هرش رأسه وقد شرد تمامًا في خاطرته الجديدة، وقال متأملًا:

- هو المفروض إنك جاي بعدي بـ١٨ سنة.. يعني أنا أكبر منك مش انت اللي أكبر مني..

اتسعت ابتسامتي وسمعت ضحكة من «سيرا»، قالت بضحكة:

- مش قلتلك بتسرح من زمان؟ أديك سرحت من نفسك وانت بتتكلم أهه..

ضحكتُ من جملتها، في حين صفّق هو بيديه ثانيةً كأنه يعود إلى الواقع، وقال معيدًا نفسه للحماس:

- ماعنديش مشكلة إنك تبيع كل حاجة عندك.. بس بتعمل..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ولم يعُد:

- [illegible] «عيسى»

انتهى الفيديو ليسود الصمت..

نظرت إلى «سيرا» لأحدثها، طول هذا الوقت، كانت تصوّرني بهاتفها المحمول بنظرتها الدامعة وابتسامتها الحنون قالت:

- انت بتدمع..

شعرت بسخونة السائل على خدي، كيف تدمع عيني على هذا الفديو الطفولي وأنا لم أبكِ طلاقي بعدُ؟

نفس عميق..

زفرة طويلة تُخرج كل ما تبقّى..

قالت «سيرا» وهي تقف مصوّبة كاميرا هاتفها المحمول تجاهي:

- كل سنة وانت طيب يا «شواف».

ابتسمت في حيرة وكل شيء داخلي قد تبعثر، مالت عليّ وطبعت قبلة حانية على وجنتي، وتركتني وانصرفت من دون كلمة واحدة..

تاركة إياي واقفًا في منتصف الصالة..

"Live forever, for the moment..

Ever searching for the one".

وحدي تمامًا..

* * *



رحلة التحضير



(١)

أول الكنوز

اقلع غماك يا تور وارفض تلف

اكسر تروس الساقية واشتم وتف

قال بس خطوة كمان.. وخطوة كمان

يا اوصل نهاية السكة يا البير تجف

عجبي!

صلاح جاهين

نظرت إلى أصدقائي وهم يرقصون في تلقائية جعلتني أبتسم محاملًا
أحب أصدقائي.. أو مَن تبقّى منهم..

- أكُن في حالة تسمح بالخروج إطلاقًا بعد مقابلة «سيرا» ورؤية ذلك الفيديو..

لكنهم أجبروني..

كلّمتني «آن»، بعد مغادرة «سيرا»، لتنترعني من ارتباكي.. طلبت مني أن أرتدي ملابسي لأنها تنتظرني تحت بيتي.. شعرت بثقل الأمر على قلبي.. أخبرتها أنني متعب ومرهق وأن الوقت بعد منتصف الليل.. ولم يمر على طلاقي أكثر من ثلاثة أشهر.. كل الحجج الممكنة لتجعلني أجلس مكتئبًا وحدي.. لتخبرني «آن» جملة مقتضبة حاسمة كعادتها:

- انزل حالًا، وإلا هشتمك شتيمة توجعك في رجولتك..

لأقول بأدب إن أمامي خمس دقائق فقط..

الخطوة الثانية للتعافي من علاقة سامّة، كما تقول الكتب: أن تحيط نفسك بأصدقاء يعطونك طاقة إيجابية.. لا تستسلم للوحدة أبدًا..

فتحت «النيش» الذي أصبح دولاب ملابسي الآن.. ارتديت ملابسي مبتسمًا.. أشعر بجزء من الشماتة بهذا التحول لكائن «النيش» الأسطوري.. من قمة مجده طول ثلاثة أعوام غير مسموح لي بلمسه لمجرد مكان أضع فيه ملابسي وغياراتي الداخلية.. حاول أهلي إقناعي كثيرًا أن أشتري غرفة نوم جديدة.. لكن تلك المتعة الخبيثة في مخالفة القواعد واستخدام «النيش» جعلتني أؤجل الأمر قليلًا..

هتفت مسرعة وجدتها ستصرخ في عربتها [illegible]
القصير وملامحها القمحية وملابسها بعربية [illegible]
واسعة كثيرة الألوان كنوع من أنواع [illegible]
يعجب الناس.. ابتسمت «آن» ابتسامتها [illegible]
وخرجت من عربتها ومشت نحوي بخطوات سريعة

- كل سنة وانت طيب..

واحتضنتني..

ربتُّ على ظهرها في حنان. منذ طلاقي وأصبحتُ أصير في [illegible] قليلا عن التعدد مع أهلي وأصدقائي. أتذكر منهم و[illegible]. [illegible] بلا حضورها. لكني أدركها بل لولا أني لا أبوح بمشاعري لقلت لهم جميعًا ألا يتركوا حضني أبدًا..

قالت «آن» بحماس وهي تنظر إليّ:

- مجهزينلك حاجة حلوة تفصلك شوية أه ولعيك..

تنحنحت كعادتي عندما أرتبك، ثم تذكرت «عيسى» في الفيديو وهو يتنحنح فشعرت بضيق لا أدري مصدره، تبسمت نصف ابتسامة:

- أنا بس مش عاوز أبقى بايخ.. هيفضلوا كلهم عاوزيني مبسوط وأنا مش هاعرف.. أنا الدنيا لسه سخيفة عندي..

كان هذا أقصى ما أستطيع أن أبوح به. يتحجر معجم كلماتي عند وصف ما أشعر به.. حاجز لا أدري متى بنيته داخلي.. حتى لو أردت أن أحكي، شيءٌ ما داخلي يمنعني بشدة..

أومأت «آن» برأسها في تفهُّم وهي تبتسم ابتسامة ساحرة:

- ما تقلقش.. كلنا مقدرين إنك عايش جوه نفسك كده..

ضربتها في كتفها وأنا أضحك رغمًا عني، تصغرني بستة أعوام تقريبًا لكننا أدركنا كل الحواجز من أول يوم.. تلاقت روحنا بسهولة وبساطة..

[illegible]

تلك السرعة؟ لا أدري

[illegible]

تحدسي.. في محص [illegible]

[illegible]

الحياة كلها مختلفة.

قلت لها في حيرة.

- فيه حاجة غريبة حصلت معانا النهارده..

أشارت بيدها أن أصمت، ابتسمت في حنان وقالت:

- ما تقولش حاجة.. بعد ما تنبسط وتفصل شوية هتحكيلي كل حاجة..

وغمرت عينيها ضحكتها الواسعة التي تشرق حياة بأكملها:

- النهارده عيد ميلادك.. اليوم اللى اتولد فيه صديق عمري كله.. ما تفكرش غير في إنك تستمتع..

أومأت برأسي إيجابًا، مقررًا أن أخرس، كنت سأخبرها أن الاستمتاع شيء صعب أن أشعر به بكل تراكمات الألم داخلي، وأنني بعيدٌ عنه تمامًا يا صديقة، لكني صمتُّ شاردًا في الفيديو الذي رأيتُه منذ قليل. في حين أوصلت «آن» هاتفها بكاسيت العربة، لتبدأ أغانينا المفضلة تدوي في سماعات العربة..

وأكتشف، في نهاية الطريق، أنهم ذهبوا بي إلى أحد «البارات»..

أحب أصدقائي..

لكنهم لا يفهمونني على الإطلاق..

* * *

استقبلوني بترحاب مُبالغ فيه

[illegible]

[illegible] عن صوت موسيقى [illegible] على [illegible]
تصرخ حولي في أذني [illegible]

لابتسم في مجاملة..

[illegible]

و[illegible] طويل يصنع القناع على وجهي في هدوء..

اليوم هو عيد ميلادي.. لأصنع القناع الاجتماعي النظيف الذي يحبه الجميع..

أضحك بشدة وأسخر من كل شيء معهم.. أسخر من نفسي ومنهم.. كثيرٌ من «كفُّك» و«يخرب بيت عقلك»، على كل دعابة قبيحة ألقيها.. أعشق المزاح الجارح.. أشعر بواقعيته وصدقه في كل المواقف..

لم يمر أكثر من نصف ساعة.. وبدؤوا يدورون في دنياهم.. أشعر دائمًا أن هناك بطارية من الاهتمام سريعة النفاد داخل الجميع.. يفكرون فيك وقتًا ما، طال أو قصر.. ثم تنتهي البطارية فيعودون إلى حياتهم رغمًا عنهم.. باحثين عمَّن يشحنهم باهتمامه..

تأملتهم بهدوء وابتسامة حزينة، مَن يبحث عن فتاة ومَن تبحث عن رجل.. حاولوا جذبي للرقص، لكني قاومتُ بشدة.. دائمًا في [illegible] أهز رأسي مستمتعًا بالموسيقى التي أحبها فقط.. ألححت عليهم [illegible] يذهبوا، [illegible] قصوا قليلًا فذهبوا..

وجلست أراقب الجميع كعادتي..

ثم ما لبثت أن تزاحمت أفكاري وشرودي حتى لم أعثر على شعور واحد داخل خوالج نفسي.

فأقف وحدي.. بينما يرقص الجميع..

“lola Lolita..”

دعهم يرقصوا..

وبقيت تشاهدهم في صمت. وتحس وحدتك متعبة في قلبك

كلهم يرتدون أقنعة أخلاقهم.. يرسمون الكحل على عيونهم.. يبتسمون ابتسامات زائفة.. ويرقصون ضاحكين في حلقة محمومة عن من يرقص أفضل..

لن يفهمك أحد..

لن يشعر بك سوى من توقف عن الرقص مثلك.. وفتح عينيه ليشاهدهم فرأى كل ذلك الزيف الذي يدورون في فلكه..

ابتسمتْ صديقتي من جانب قلبي لانزعاجي، ولما رأت الملل يتسرب مني عائدة من حلبة الرقص، ابتسمت لها ابتسامة باهتة، جلست بجانبي متسائلة فقالت صائحة

- قمت أحرك أرجلي شوية.. كلهم مش عارفين يا صاحبة مرض وضهري بيوجعني.

أشرت إلى حلبة الرقص وقلت لصديقتي

- يا عم روح وارقص وانبسط.. مش يمكن تلاقي الحب حيث وهو بيرقص زي ذكر العنكبوت في موسم التزاوج؟

قالت وهي تسند ظهرها إلى الكرسي

- وأحشر معاه في قصة حب وأستمتع وأتعلق به فيتحكم بي ويفرض شروطه فتتشعلل في أفكاري وتتعقد؟

وأشارت بيدها في علامة الرفض:

ـ لا شكرًا مش عاوزة

[illegible]

برأسي وقلتُ بابتسامة ساخرة:

ـ [illegible]
كده [illegible]؟

رفعت حاجبيها في ثقة وقالت:

ـ [illegible] خلاص [illegible] أثري صعب احترافه

ضحكتُ بشدة لـ[illegible] معي [illegible] كل من يرقص. [illegible] من الأغنية أخرى. أشرت لـ«[illegible]» رافعًا إصبعي أن تسمع الموسيقى معي، فانتبهت وهي تبتسم حتى أتت اللحظة وقلناها معًا:

- "DROP IT".

ضحكنا بشدة وأخذنا نهز رأسينا معًا على أنغام الأغنية الراقصة..

أشارت إليّ بيدها، فتبعتها حتى خرجنا من المكان وابتعدنا عن صخبه قليلًا، لتسألني نظرة فضولية أحفظها:

ـ احكيلي بقى.. إيه اللي حصل النهارده..

ابتسمتُ في امتنان لأنها لم تنسَ.. ولأنها جعلتني أتذكَّر بداية هذا اليوم الغريب..

وحكيت لها كل شيء..

* * *

بدأ كل شيء الساعة الثانية عشرة منتصف الليل بالضبط.

بعد أن رحلت طليقتي وغرفة نومي غارقة في الظلام [illegible]

تعيش الآن في قاموس ذكريات العلاقة لا شيء منهم إلا الأثاث. بدأ الزواج بأساطير تدل على أصل العائلات وعلى كرم الأخلاق. ويبقى شجار على أثاث أصبح قديمًا، شهد على قصة حب تموت بين اثنين قتلا بعضهما بالتدريج..

أخبرتني «أسماء»، طليقتي، مرارًا، وهي في حضني، عن خوفها من كل شيء حولها. منذ وفاة والدها وهي طفلة صغيرة لا تشعر بالأمان أبدًا، اختفاء عامود الاطمئنان في البيت يجعله جحيمًا، رأت الوجه الأكثر قبحًا في الدنيا.. وعندما شعرت بدرجة ما من الاطمئنان مع رجل، تزوجته دون تفكير، زوجها الأول لم يعرف ما تعانيه منذ الصغر، بالتالي حصلت على لقب مطلقة بعد أربع سنوات... كانت تقول إنها عاشت في ماضيها بما فيه الكفاية. ولا تريد أن يؤثر على مستقبلها معي. لأنها وجدت الأمل في حياة بلا ألم...

لتحصل على لقب مطلقة للمرة الثانية من زوجها الثاني - أنا - بعد ثلاث سنوات فقط...

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١ - «هناك دائمًا ماضٍ قاسٍ لا بُدَّ أن تنقذهم منه. ماضٍ أثَّر في نفسياتهم وجعل حياتهم جحيمًا.. وأتيت أنت لتصالحهم على العالم أجمع.. الإنسان الطبيعي لا يعتمد على شخص واحد ينقذه، لكن ينقذ نفسه بنفسه.. لكن الشريك في العلاقة المسمومة يعتمد عليك أنت»..

حذَّرتني كثيرًا فكنت أبتسم بلا مبالاة؛ لأني معها وأعشقها.. وأراها مختلفة عن كل ما زرعه الماضي فيها..

كنت أرى نقطة النور المختبئة داخل ظلام روحها..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢ - «يعرفون كيف يُظهرون نورهم لك أنت فقط لتشعر أنك مميز حينما تراه.. يعرفون كيف يكونون لك بكل تفاصيلك.. يظهرون لك أفضل ما فيهم حتى تُدمنهم.. حتى يغرق عقلك في إفراز الدوبامين من عشقهم

[illegible]

[illegible]

[illegible] نفسي وصفاء ذهني غير طبيعي.

[illegible]

من يحدثني..

كانت رسالة من رقم غريب:

- كل سنة وانت طيب.. فاكرني؟

بحركة لا إرادية تحركت عيناي لأرى تاريخ اليوم، الثاني والعشرين من أبريل، عيد ميلادي السادس والثلاثين.. هناك لحظة ما تتوقف فيها عن عد سنوات عمرك؛ لأن الأرقام لم تعُد لها قيمة أو معنى، مجرد رقم يخبرك أن وقت النهاية قد اقترب..

تركت هاتفي على المرتبة ونظرت في اللا شيء..

أخذت كل عائلة ما يخصها... لأستقر في غرفة نوم خالية أراحتني نفسيًا بفراغها..

نظرت بتكاسل إلى هاتفي المحمول.. فتحت تلك الرسالة من الرقم الغريب.. نظرت إلى الرسالة قليلًا وكتبت في ملل:

- وانت طيب يا باشا.. بس مين معايا؟

وصلت رسالتي وفرغت بسرعة، ولم تمر ثوانٍ إلا ووجدت هاتفي يضرب بصوت مرعج وسط صمت الحياة حولي.. مَن هذا المزعج؟ نظرت حولي متأففًا ثم رددت فقط كي أسكت صوت رنته العالي..

«ألو»

تعجبت من الصوت الساخر في الهاتف، تنحنحت وأنا أعتدل على المرتبة

- أيوه.. مين معايا؟

صوت ضحكتها العالي اخترق أذني، قالت بعد ضحكة طويلة:

- انت مش عارفني؟

[illegible] نصف ساعة

[illegible]

هويتهم!

- أنا مابحبش الشغل ده.. مين معايا؟

ولكنه تعمد "إفيه" لفيلم لا أعرفه.

- بت منك بقيت "أحربسف" ليه كده؟

أكره بعض المزاح الخاص بذكر دعابة من فيلم.. أحب أن أخترع دعاباتي بنفسي.. لكن من يستهلكون "إفيه" قيل في فيلم ما على موقف ما، لم أفهم عبقرية هذا المزاح أبدًا.. زفرت في ضيق وهممت بإغلاق المكالمة، لكني سمعت صوتها يقول مسرعًا:

- إيه يا "شواف"؟ ما لك؟

لتسري قشعريرة خفيفة في جسدي..

لم أسمع ذلك الاسم منذ زمن بعيد، رغمًا عني صعدت ابتسامة لم تزُر فمي منذ زمن، عقدت حاجبيَّ في حيرة، قلت بنبرة أقل حدة:

- مين معايا؟

لتضحك هي ضحكة مرحة معدية، جعلت ابتسامتي تتسع وهي تقول:

- أنا "سيرا".. عملك الاسود في الدنيا.

لترتجف كل شعرة في وتفلت مني ضحكة بدت غريبة وصداها يتردد في بيتي الكئيب.

✱ ✱ ✱

- أنت شكلك أصغر مني بأعوام!

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أفتقدها حقًا

[illegible] شعورًا غريبًا بالسكينة يتملكني..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٣ - «تخرج منها غير قابل لتصديق أي لحظة أمان تأتيك في الطريق بل أسوأ.. تخاف أن تصدق فتتألم ثانية».

بدا، خشيتُ أن أطيل في العناق حتى لا أعتاد راحته، ربتُّ على ظهرها وابتعدت مبتسمًا في سخرية، هززتُ كتفي بلا معنى وأنا لا أجد الرد المناسب، لكنها صمتت تنتظر ردي، فتنحنحت وقلت ردًّا على جملتها:

- إحنا ماشفناش بعض من ١٨ سنة.. كلنا ها نقى..

بالطبع اختلف شكلي منذ ثمانية عشر عامًا.. هي أيضًا تغيَّرت كثيرًا.. كانت تلك الفتاة الرفيعة التائهة. الآن أصبحت سيدة لا يبدو عليها عمرها على الإطلاق.. هي تبدو في منتصف العشرينات بحجابها الهادئ وعينيها البنيتين الواسعتين وشعرها البني الذي أصبح أشقر الآن.. في حين أبدو بوجهي الكئيب الأسمر وجسدي الرفيع كمن يودع الأربعينات بسلام..

ضحكت «سيرا» على الرغم من سخافة الجملة.. بعد محادثة هاتفية وأنا لا أصدق أنها كلمتني.. «سيرا البداري».. صديقة الدراسة رغم أنها تصغرني بعامين، التي تحوّلت إلى ممثلة شابة رائعة لها جمهور ومعجبون في كل البلاد.. انتابني شعور غريب وأنا واقف أمامها.. أشعر أنها محاطة بهالة «الكيان المشهور».. أشعر أنني أحمق فجأة ولا أدري لماذا..

[illegible] وسعد شحر [illegible] مع طابعي [illegible]

[illegible] في مشهد [illegible] الشجار [illegible]

وقلت مشيرًا إلى التلفاز ببلاهة

- [illegible]

سحر [illegible] صارخة بصوت أعلى، لأنني [illegible]

وشردت في شيء آخر.

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٤ - «يمنعك الشريك من الاهتمام بأي شيء آخر في وقت الغضب.. لا بُدَّ أن تدعهم يمررونك بغضبهم وألمهم وثورتهم حتى يهدؤوا. لا بُدَّ أن تشعر بما بداخلهم لأنهم لا يطيقون أن يشعروا به وحدهم. لا بُدَّ أن يكسروك به حتى ينتهي ما بداخلهم. لذا وقت الشجار والغضب. لا تتنفس. أنت مسخَّر لهم فقط».

فكيف أجرؤ؟

- رحت فين؟

قالتها «سيرا» بصوتها المرح، تضيِّق عينيها وهي تضحك بأسلوب ساحر.. حدقت فيها لحظات في عدم فهم، ثم أدركت أنني شردت أمامها فقلت بسرعة:

- سرحت بس شوية..

رفعت عينيها إلى السماء في ملل وقالت ضاحكة:

- لسَّه فيك العادة المهببة دي؟

حقًّا؟ فاجأني ردها فسألت متبسمًا:

- هو أنا كنت بعمل كدا فعلًا؟

قالت وهي تنظر حولها وقد بدأت تتململ من الوقوف

- يا ساتر.. دا انت كنت على طول.. تبص للواحد في عينه وترد عليه وأصلًا سرحان في مليون حاجة تانية..

[illegible]

[illegible] عشان

ما تسرحش مني.. المهم

وأشارت حولها متسائلة

- هنقعد فين؟

لمستُ حولي حيث [illegible] واقفين في مكاني المفضل، [illegible]

أعوام، عندما [illegible] في الهاتف «أين نلتقي؟»، ارتبكتُ [illegible] لم أدرِ أي مكان يليق بالخروج مع ممثلة معروفة.. قلت مكاني المفضل الذي أجلس فيه يوميًا من دون تفكير.. محطة وقود تطل على مول شهير في التجمع الخامس.

ابتسمتُ قليلًا وأنا أتوقع إحباطها:

- هو هنا بس..

تلفتت حولها وقالت بحيرة:

- هنا فين؟

أشرت إلى المكان بطرقه الواسعة المريحة.. المول البعيد يبدو في الأفق. الصمت والهدوء ونسمة الهواء الباردة والأرض الواسعة أمامنا.. بقعة هادئة وسط ضوضاء الحياة بأكملها، تشعر بالطاقة الإيجابية داخلها، هناك براح لأن آخذ نفسًا عميقًا يدخل صدري من دون أن تمنعه ذكريات مؤلمة..

ابتسمتُ ساخرًا مشيرًا إلى المكان:

- زرع وأشجار وعواميد نور شبك طول الطريق.. جنبك ستار بكس لو عاوزة تشربي حاجة.. ولو عاوزة تاكلي عندك مكانين تاكلي فيهم أحلى أكل. والداتري هنا في ثواني بعيد عن الزحمة.. فيه أحلى من كده؟

نظرت إليَّ بدهشة، ثم ضحكت وعيناها بدأتا تستمتعان [illegible]

- وهنقعد فين؟

مددتُ يدي في ثقة إليها، فاقتربت مني في حيرة، لأحملها [illegible] على حقيبة عربتي العالية، صرخت لحظة من المفاجأة ثم انفجرت في الضحك..

ابتسمت أنا وضحكتها الصافية [illegible]

هزت «سيرا» قدميها في طفولة وقالت:

_طب والله حلو الجو دا قوي

جلستُ جنبها على حقيبة العربة، وأشرت للسماء فوقنا و[illegible]

وقلت بابتسامة صافية

_ بذمتك فيه أحلى من كدا؟

تلفّتت «سيرا» حولها وقد بدأ سحر المكان يتسلل إلى روحها، ابتسمت ابتسامة حانية وهي تستمتع بنسمة الهواء الباردة والسكون، تذكرتْ شيئًا فنظرت لي وقالت:

_ناقص حاجة واحدة بس..

قلت بخبرة من دون أن أنظر إليها:

_ عيب عليك..

وضغطت على زر في هاتفي.. ليصدر صوت أغنية أجنبية من كاسيت عربتي. ضحكَتْ لأنني فهمت من دون أن تتحدث.. قلت وهي تميل بكتفها عليّ.

_يابن اللعيبة..

ونظرت لي نظرة تحمل ألف معنى:

_ ماتغيرتش يا «شواف»..

لأبتسم في شرود وأنا أنظر إلى السماء..

كيف لم أتغير وأنا لا أذكرني في الأساس؟

صفقت بيديها في حماس جعلني أنظر إليها متعجبًا، هبطَتْ من على حقيبة العربة واتجهت بسرعة إلى عربتها المركونة بجانب عربتي، أخرجتْ منها علبة مغلفة وعادت بخطوات سريعة، على وجهها بهجة طفلة صغيرة وجدت عروسة أحلامها، تأملتها محاولًا فهم أي شيء ممّا يحدث، وقفت أمامي

ونظرت في نظرة فيها مشاعر لم أفهمها، مزيج من الحنين والأمل والحزن، شردت في عراقة نظرتها وعمقها، فقالت:

- أنا نفذت الوصية بعد السنين دي كلها

فردت ذراعيها لتعطيني العلبة، فمددت يدي وأنا لا أفهم شيئًا، لكنها سحبت يدها ثانية وقالت بصرامة مازحة:

- بس ليا شرط.. أول فيديو هتصوره عليه معاك

لم أفهم أي شيء، لكن الحالة التي تملكتها أسرتني، فأومأت برأسي أني موافق، فاقتربت مني وقبّلتني قبلة في خدي هامسة:

- كل سنة وانت طيب يا «شواف»..

ثم مدت يدها ثانية وسعيدة ضحكتها تبث طاقة إيجابية في أوصالي، ما إن أخذتُ منها العلبة حتى أمسكت هاتفها وبدأت في تصويري «فيديو»، فتحت العلبة بسرعة لأجد داخلها علبة أسطوانات قديمة جدًا، مكتوبًا عليها جملة واحدة:

- لا تُفتح قبل مرور ثمانية عشر عامًا.

لم يُثر كل ذلك داخلي أي نوع من الذكريات، لم أفهم ما هذا الذي أراه، نظرت إليها لحظة في عدم فهم، لتنظر «سيرا» إليَّ بتعجب، كانت كل أسطوانة مضغوطة عليها رقم، قلّبت فيها داخل حافظة الأسطوانات، نظرت إلى «سيرا» ثانية في عدم فهم، قلت وإحباط ملامحها التدريجي يوتّرني:

- إيه دا؟

ذبلت عيناها فجأة، قالت باستنكار غير مصدقة:

- انت مش فاكر بجد؟!

أومأت برأسي أنْ لا في حيرة، لتتحول نظرتها إلى حزن غريب، اقتربت مني وأمسكت يدي، وقالت بحزن:

- أنا مش مصدقة.. آخر واحد تخيلت إنه يتغير وينسى..

هل تلك دموع بدأت تظهر في عينيها؟ شعرت بالتوتر المفاجئ، فقلت بأسلوب دفاعي بحت:

- لا مش موضوع اتغيرت.. بس طبيعي إن لما حد يحبني هو يقولي إيه هي أو يشرحها

ابتسمت في حنان، ربتت على يدي، وبدأت تجذبني قائلة:

- مفيش مشكلة. هنفتكر كل حاجة مانفتكرش.. تعالى معايا..

هرعت لأسفل في سرعة وأنا أسأل السؤال المنطقي:

- هنروح فين؟

لتجيب هي الإجابة غير المنطقية:

- بيتك طبعًا. هنشوف أول فيديو مع بعض.

نظرت إلى الساعة لأجدها العاشرة مساءً، أعلم أنني فاتن، لكن ليس لتلك الدرجة التي تجعل فتاة بهذا الجمال تطلب مني أن تذهب إلى بيتي بتلك السرعة.. لكن نظرتها المصرة وعينيها الحزينتين جعلتني أطيعها..

* * *

- بعدين؟

سألني «آن» السؤال في فضول كان أساس صداقتنا وتشابهنا، نبيع أنفسنا من أجل أن نُرضي فضولنا.. قلت وأنا أنظر حولي في شرود:

- مافيش.. طلعنا البيت.. قالتلي إنها لما لقت إن موضوع السيديهات دا بيقدم، حطّت كل الفيديوهات على فلاشه.. وشوفنا أول فيديو.. وسابتني ومشيت من غير كلمة..

وتنحنحتُ قليلًا وأنا أذكر معلومه بلا قيمة، لكنها مهمة بالنسبة لي:

- بعد ما باستني في خدي..

ضحكت في خبث وقالت ما أتوقعه:

ـ أيوه نعم

ثم سألت ما لا أتوقعه:

ـ هي حلوة [illegible]

[illegible]

[illegible]

ـ [illegible]

[illegible]

ـ [illegible] شوف الفيديوهات.. الفكرة حلوة [illegible]

[illegible]

ـ [illegible]

[illegible]

[illegible] من علاقة سابقة. [illegible] قبلها

أن كل حب [illegible] مكسور [illegible] الحدود حتى لا ينكسر شيء

آخر [illegible] لا تأخذ قرارات سريعة في العلاقات [illegible] حتى

تحس روحك من [illegible] تدريجيًا [illegible] فقط

[illegible]

ـ [illegible] حاجة وحشة [illegible]

تفكر بتنسيك كل حاجة وحشة..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] صديقتي [illegible]

[illegible]
[illegible]
ذلك السحر داخلي..

[illegible]
[illegible]
لكني صمتُّ تمامًا..
كعادتي الأثيرة.

(٢)

الأمر الأول

خرج ابن آدم للعدم قلت: ياه
رجع ابن آدم للعدم قلت: ياه
تراب بيحيا.. وحي بيصير تراب
الأصل هو الموت ولا الحياة؟
عجبي!

صلاح جاهين

ورد «عيسى» ذو الثلاثة عشر عامًا وهو [illegible]

ـ بطلت ترقص؟

ورد «عيسى» ذو الثلاثة عشر عامًا [illegible]

ـ لو بطلت ترقص هايجدلك..

* * *

نظرت إلى منامتي المعلقة على شماعة صغيرة في غرفة نومي، بجوار [illegible] كرسي السخيف، حدقت في المنامة وقتًا طويلًا.

دائمًا ما أشعر عندما أرتديها أنني شخص آخر تمامًا..

دائمًا ما كنت أرى التفاصيل بطريقتي، وأضع لكل شيء أسماء خاصة بي، عندما أبتسم وأن أضع قدمي في ما أطلق عليه «بنطال الحب»، وأضع ذراعي في أكمام المسؤولية، ثم أدخل رقبتي في ياقة الاهتمام والاحتواء، لأصبح بعد أن أرتديها شخصًا آخر تمامًا..

الزوج المثالي..

نظرت إلى نفسي في المرآة لحظات، فردت يديَّ على ملابسي كي أفردها قليلًا، صنعت هذه الملابس من أجل الراحة، لماذا أشعر بكل ذلك الضغط والكراهية لمن أراه أمامي في المرآة؟

اللعنة على الذكريات.. منذ فترة، اعتدت أن أترك نفسي تتذكرها وأعيشها تمامًا.. حتى تنتهي مني أو أنتهي أنا منها تمامًا

أغمضت عينيَّ قليلًا..

نفس عميق

زفرة طويلة تخرج كل ما أشعر به في ثوانٍ

مسحت عيني لأجد أمامي في المرآة الوجه ذاته [illegible] واعتدته منذ سنين،

ذلك الشاب ذا العينين الملونتين، نصف الابتسامة والنظرة الحائرة [illegible]

كأنه كان هناك من تخلّى عنه للأرض رغمًا عنه

خرجت من غرفتي ولم أطل النظر أكثر من هذا لكي أستعد [illegible]

اعتدت أن أفعل. خرجت إلى صالة منزلي لأجدها تضع الطعام على المائدة

ابتسمت كعادتي كلما أراها.. في عيني ما زلتُ أراها أجمل مما تحتمل هي، ما

زلتُ أراها كأول مرة رأيتها فيها..

تلك الفتاة العابثة التي لم تهتم بأي قدر من القواعد والقوانين، تلك الحرة في كل تفاصيلها، من عينيها إلى أخمص قدميها، الفتاة التي كانت لديها الثقة أن لو انقلب عليها العالم لن تتغير لحظة، ستظل هي كما هي..

لم ينقلب العالم وتغيرت هي..

عندما عرفتُها ظننت أنها وصلت إلى حكمتي وذاقت من الدنيا ما لم يذُقه أحد، واختارت أن تكون حرة على الرغم من كل هذا

لكني أدركت، بمرارة السنين، أنها لم تكُن حكمة..

بل حماقة طفلة لم ترَ العالم بعدُ..

وما إن رأته.. ماتت..

جلستُ على المائدة الطويلة، جلست بجانبي مبتسمة ابتسامتها التي كنت أعشقها، قالت تجر الكلام مني كما اعتادت حتى أصبحت لا تبالي:

- اليوم كان حلو في الشغل النهارده؟

أومأت برأسي إيجابًا، لا أدري منذ متى أصبح الكلام المعتاد ثقيلًا لتلك الدرجة! أشعر بالزيف وأنا لا أستطيع أن أزيف تفاصيلي أكثر من هذا، قلت بهدوء:

- كان ناقص بس وجودك معايا

[illegible] المسؤول [illegible] أن [illegible] من الحقيقة [illegible] الأحلام [illegible] أمامك أنه [illegible] مشكلة [illegible]

[illegible] أنا إلى [illegible]

[illegible] أي شيء [illegible] المشكلات

[illegible] ثم سحبها من عمري عنوة، كنت أرى أحب شخص لنفسي وهو يدير يومًا بعد يوم [illegible] أنه قد استسلم لخوف قاتل من غدر الدنيا. بحث [illegible] محموم بين جدران الأمان الصماء كي يرتاح قليلًا.. أرى المرأة التي عشقها، تتحوّل إلى روحة يائسة تنظر إليَّ وعيناها تقولان مباشرة: «أنت سبب كل هذا»..

وتقبل أن التهمة بنفسٍ راضية.. بل أعترف بها مستسلمًا..

يشتتُ..

تمسكتُ يدي قطعة تسسل أفكاري، انتزعت عينيَّ من على شاشة الصغير، نظرت «أسماء» إليَّ بحب أعلم أنه داخلها على الرغم من كل ما حدث، قالت بابتسامة متفائلة:

- وحشني إنك تفضفض معايا.. انت مابقتش تقولي اللي جواك خالص..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٥ - «سيصيبك الخرس.. ستكتشف يائسًا أن شريك الحياة لا يريدك أن تحكي أسرارك ليسمعك.. لكن ليسجل في ذاكرته نقاط ضعفك ليستعملها فيما بعدُ ويتحكم فيك أكثر.. يذاكر كلماتك عن ظهر قلب.. وعندما يأتي الشجار وتبدأ في لومه.. يضعفك في قمة قوتك بما قلته في ضعفك»

انسحبت [illegible] في سخرية، وحدثُ من يصرخ بداخلي بكلمات خشيت

[illegible]

[illegible] أن [illegible] أمل

رأيت الخوف على وجهها، وربت على يديها، وقلت الجملة الوحيدة

التي كنت أؤمن بصدق في تلك العلاقة

- بحبك

تشعر هي بصدق الكلمة في قلبها، فتبتسم وتغلق في حين أغمضت عيني مستمتعًا بقربها، ثم فتحت عيني.

ولم أجدها..

تهت الذكريات وانتهى وجودها اللحظي في خيالي..

نظرت حولي ببطء..

منذ ذلك اليوم الذي تشاجرنا فيه وبدأت حياتنا تنهار..

ابتعاد بطيء محتم..

نظرت إلى ذلك البيت الذي اختفت منه تفاصيل امرأة كانت تعشق هذا البيت أكثر من رجله.. امرأة دهستُها بقطار جنوني ومرضي وكآبتي المريرة.. وسحقتني هي بقضبان خوفها وألمها وماضيها.. ذلك البيت الذي رأى مقاومة الاستمرارية أكثر من متعة الحب.. فانصرفت «أسماء» بحقيبتها مع لقب طلاق تقاسمناه معًا.. تاركة في قلبي فراغًا لا يُحتمل.. التهم ما تبقّى من روحي..

كنت هي أول أمل لي في الحياة أن هناك من قد يفهم.. أن هناك من سيحتوي كل ذلك الظلام..

وكانت أول إحباط ذقت علقم مرارته بأسوأ طريقة ممكنة.

نظرتُ إلى البيت البارد، إلى الأكل السريع الذي طلبتُه، إلى الساعة التي تجاوزت الثانية ظهرًا، ربتُّ على صدري ثلاث ربتات وابتسمت في حزن هامسًا:

- معلش..

ووقفت أنظر إلى كل شيء، لمع عرقي على الماء، الجسم والعلامة في ظهره تومض بلون برتقالي مسمر.

لا بد أن أخرج من تلك الحالة المملة البائسة

لا بد أن أفعل أي شيء لأنسى

أمسكت هاتفي المحمول، ووضعته على قائم الكاميرا الخاص بي، ثبت الهاتف عليه ونظرت إلى الكادر الذي راق لي، ضغطت زر تسجيل الفيديو، وذهبت بإصرار وفتحت التلفاز ووقفت أمامه منتظرًا تحميل أول فيديو

أرتدي مثل «عيسى الصغير» منامة..

منامة الزوج المثالي..

* * *

بدأ «عيسى» الكلام مباشرة من دون تضييع وقت، كان يجلس على كرسي المكتب ذي العجلات الأربع، كنت أحب أن أتحرك به في غرفتي كما أريد في هذا الوقت، لم أحترم أبدًا المقاعد الثابتة، مملة وكئيبة ولا تترك فرصة لأن تطلق لخيالك العنان..

أكره كل ما لا يثير الخيال..

هذه المرة ابتسمتُ عندما رأيت «عيسى» الذي يرتدي منامة مثلي، مكتبي القديم المعدني، كان مكتبًا قديمًا في شركة أبي فلم يُلقِه وأعطاه لابنه كي يذاكر عليه، هذا المكتب المعدني هو السبب الرئيسي في «نتش» كل ملابسي بسبب أدراجه المعدنية البارزة..

قال «عيسى» بصرامة ناظرًا إلى روحي مباشرةً كعادتنا:

- بطلت ترقص؟

ورفع إصبعه مهددًا كأنما سيستطيع تنفيذ تهديده بالفعل:

- لو بطلت رقص هابهدلك..

[illegible] بالتصوير [illegible]

فيه فكرة، وفاجأني عندما نظر إلى الكاميرا ثانية وقال:

- فيه حاجة مهمة بس سمعتها لما [illegible] فعلًا. ماعرفش [illegible] في مشروع دا عشان إجابته؟

وصمت ينظر إليّ، كنت حريصة [illegible] يستحيل [illegible] من [illegible] فابتسمت وقلت بصوت هادئ:

- عشان [illegible] حاجة اسمها وقار.

وهززت كتفي كأنما سيراني:

- صحيح [illegible] فيه بس كتير أصغر مني في السن. فلازم تحافظ على مظهرك قدام الناس كلها..

فاجأني بابتسامة خبيثة انتقلت إلى شفتيّ بسرعة:

- يمكن، بس أنا مش مقتنع..

اتسعت ابتسامتي، تلك الإجابة الذكية، وقتها لم يكُن لديه - أو لديَّ - أي من ردود مستقبل؛ لذلك حافظ على الردود العامة التي تحيي الحوار ولا تميته. ردود تسمح بأن يكمل حواره حتى لو لم يعرف الرد..

لكنه قال ما جعلني أتأمله وأبتسم لذكائه:

- بس معنى إنك حاولت بالسرعة دي إنك بقيت واحد منهم..

وأشار بإصبعه رافضًا وهو يقول بابتسامة صارمة:

- وأنا مش هاسمح لك بِدَا..

نظر إلى الكاميرا ثانيةً، وهو يريح ظهره على المقعد الجلدي، قال:

- أنا وأنا بعمل المشروع دا كان عندي مستقبلين.. مستقبل انت فيه بتعمل كل حاجة صح زي ما أنا عاوز.. ومستقبل تاني انت بقيت منهم.. عشان كدا - زيادة في المجهود مش أكتر - عملت من كل حاجة فيديوهين..

رفع إصبعيه ليوضِّح الرقم، لا بُدَّ أن أكفَّ عن تلك العادة المزعجة

[illegible] أكثر من مرة، وقال هو [illegible]

- دا أمر هام، [illegible] عملت [illegible] فيديو لـ«عيسى» اللي عرف ينجح وعرف يحافظ علينا، [illegible] فيه [illegible] «عيسى» [illegible] عشان أسهلك الدنيا [illegible] هتلاقي ملفات، خش على الاسم اللي يناسب حالتك..

وأشار إليّ بالسلام قائلًا:

- يلا. حالًا. تخش على الملف وتكمل كلام معايا. ماتكسفش

انتهى الفيديو بغتة، شعرت بانتهاء سريع لحالة ما استطاع أن تدخلني فيها هذا الوعد، بسرعة فتحت الملف لأجد ملفين، ابتسمت عندما قرأت أسماءهم. أول ملف فيها اسمه «عيسى حبيب قلبي».. والثاني ببساطة اسمه «سنفور كئيب».. رغمًا عني ضحكتُ من تفاهة ما كنت أفعل، ساورني الفضول أن أفتح «عيسى حبيب قلبي»، لكنني شعرت أنني يجب أن ألعب اللعبة بقواعدها.. إكرامًا لهذا الكم من المجهود لفتى في الثامنة عشرة، أراد أن يستمر، قبل أن أهرب أنا منه بقية حياتي..

فتحت «سنفور الكئيب»، لأجده يجلس الجلسة نفسها، ينظر إلى الشاشة بضيق، ويقول كأنه يكمل كلامه من الفيديو السابق:

- كنت عارف إنك هتبيعني وتبقى زيهم يا كلب..

ضحكت هذه المرة بملء فمي، نسيت هاتفي الذي يسجِّل كل ردود فعلي هذه، توحدت معه لدرجة غريبة، لا بُدَّ أن أعترف: كان لديَّ كاريزما غريبة فيما مضى..

قال وهو يهز رأسه بأسف:

- بس كنت متوقِّع..

وابتسم بحنان لأول مرة وهو ينظر إليَّ نظرة استطاعت أن تحتضن قلبي وتهوِّن عليه:

[illegible]

[illegible] وعرفت ومشى وما عرفتش نقوم تاني [illegible]

[illegible] علينا أصلاً

سرت قشعريرة في جسدي [illegible]

[illegible]

قال هو بعد لحظة صمت:

- [illegible]

[illegible]

[illegible] شرف [illegible] في ذلك [illegible] مسرحية [illegible]

[illegible] شرف [illegible] ذلك الكهف ذي العليقات [illegible]

[illegible] ومن عشقي تلك الشخصية تقمصتها [illegible] في [illegible]

سخريته.. كلامه مزدوج المعنى..

كان هذا قبل أن أكره مزاح الأقلام.

ما هذا التناقض؟!

تلاشت ابتسامتي تمامًا، حينما بدا عليه الجدية، اختلفت نظرته حين

وهو يسأل سؤاله:

- لشه ما لاقوش علاج؟

ثم تنحنح وهو يسأل بأمل:

- يعني إحنا حنسا ولا لسَّه تعبانين؟

هبط سؤاله ثقيلًا على قلبي، تذكرت هاتفي فنظرت إليه بجانب عيني،

لا أريد أن أجيب، لكني نظرت إليه ثانية وقلت باقتضاب متجاهلًا كل شيء

كعادتي:

- آه لسه..

ابتسم هو، لا أذكر لماذا ابتسمت لحظتها، لا أذكر [illegible] أن

أسمع من مستقبل، وهل كان لديّ الأمل فيما مضى أم فقدته منذ زمن أبعد

من حياتي؟ شرد «عيسى» [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] نهاية إنك

وصلت لحد سنك دا ولسّه مابدأتش

وصمت [illegible] وهو يقول [illegible] أعرف ان دا [illegible].

- اوعدني.

[illegible] ثانية، تبعثر كل شيء داخلي، لم أدر لماذا أحسست، لكني ابتسمت، ونظرت إلى عينيه الصارمتين وقلت بهدوء:

- وعد..

عاد بظهره للوراء بارتياح، كأنما كان يثق أنني سأعده، ابتسم وقال بثقة غريبة:

- أنا قريب كبير قوي ازاي أخرّج واحد بدماغي لما يكبر من الاكتئاب.. أصلنا مش أي حد يا «عيسى».. أنا وانت ناس بتحرق نفسها تفكير.. مافيش حاجة بتعدي على عنينا إلا وبنلقطها وبنحاول نفهم معناها.. مابنعرفش نتكلم ونقول اللي حاسينه.. ودا اللي بيخلينا نبعد ونكتئب أكتر..

ورفع إصبعه وقد تقمص شخصية الناصح:

- عشان كدا أول أمر لازم تنفذه هيبقى سهل قوي..

ومال على الشاشة قائلًا:

- زي ما عمك «جاهين» قال: «الأصل هو الموت ولا الحياة؟».. انسى كل الحجج.. انت هترجع ترقص.. الرقص حياة..

وابتسم ابتسامة جدلة وهو يقول:

- هترقص في كل حتة.. كل ما تسمع مزيكا حتى لو في كافيه.. حتى لو في عزا.. هترقص.. الرقص هو أول حاجة بتطلّع الطاقة السلبية القذرة اللي

حتة إنسي آدم. وشخصه يخرج من صحن كل الناس اللي حواليه.. واحنا دلوقتي هنرقص.

نظرتُ إليه مستنكرًا حقيقي، فأشار إلى الشاشة كأن ذلك.. مع

- يلّا!

ونهض من مقعده، ليقف مثلما أقف الآن.. ضغط على زر ما في جهاز الكمبيوتر القديم.. لتصعد نغمات أغنية، ما إن سمعتها حتى ابتسمت في حنين.. كانت أغنية لفرقة حمقاء الآن.. «back street boys».. أغنية كنت أعشقها، اسمها «larger than life»

أكبر من الحياة..

وقف «عيسى» يستعد للرقص، وضع رأسه على الأرض وفرد جسمه منتظرًا..

وما إن بدأت الأغنية حتى بدأ هو في الرقص..

لأنظر أنا إليه مذهولًا..

كان يرقص حقًّا..

كل حركة يفعلها يؤديها بدقة بالغة، حركة قدميه وجسده وذراعه المتناسقة، بدأ بحركة صعبة لو شُوهدت في فيلم لارتفعت أعين المشاهدين إعجابًا، بدأت أهز رأسي وأبتسم رغمًا عني.. تأملت رقصه - أو رقصي - في إعجاب حقيقي، دار حول نفسه وأشار إليَّ فجأة وهو يتوقَّف عن الرقص.. ويصيح بصوتٍ عالٍ:

- ارقص..

وقفتُ لحظات مترددًا، نظرت حولي وإلى النوافذ كأنما أتأكد أن لا أحد يراني، هززتُ رأسي قليلًا ثم بدأت أرقص..

"All you people can't you see, cant you see..

How you love affecting on reality".

كل شيء في جسدي شعرت أنه صار [illegible] بين يديه وهو [illegible]
حركته، حتى فاجأت، نظرت إليه وهو يحاول [illegible] مني الخطوات بسبب
بعض [illegible] وبدأت أتذكر بعض الحركات التي كنت أحفظها فيما
مضى..

الملحة على [illegible] جسدي وارتجاف بدني

لكني نظرت إليه وإلى سلاسة حركاته، نظرته المستفزة لي وهو يرقص، فتحوّل الأمر إلى عناد غريب داخلي، أغمضت عينيّ كي لا أراه وتركت الموسيقى تدخل ثنايا روحي تصحبها.. شعرت بقلبي يتناغم مع دقاتها العالية. بدأ جسدي بالتعرُّق لكني لم أبالِ.. قاومتُ كل الأفكار الصدئة التي أثقلت جسدي وبدأت أحرّكه رغمًا عنه..

الخطوة الرابعة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تعود إلى كل ما كنت تحبه فيك قبل أن تتسمم روحك..

ورقصت كما لم أرقص من قبلُ..

(٣)
ما بعد الأمر الأول

رقصت طوال الليل في راحة حقيقية، حتى بعدما انتهى الغناء، ظللت أرقص على الأغاني التي أحبها

نمت يومًا عميقًا، استيقظ عقلي فجأة على تأخري عن العمل في البنك، ذهبتُ مسرعًا محاولًا لحاق ما تبقّى من مرتبي الذي يُخصم ربعه في الفترة الأخيرة، من سخرية القدر أن «أسماء» هي من كانت تعمل في هذا البنك، في كل شجار قديم بيننا كانت تقول إنها من أسهمت في نجاحي..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٦ - «سيذكر شريك الحياة كل شيء فعله لأجلك، ستجده يهوِّل من كل شيء يفعله، ابتداءً من التضحيات المنطقية لأي علاقة، نزولًا إلى أنه يعمل من أجل توفير نقود لك لو كان ذكرًا، وغسيل الملابس والقهوة لو كانت أنثى.. سيحكيه لكل من تعرفه، حتى يظن الناس أن لهم الفضل الأول والأخير لنجاحك في الحياة، بل سيقنعك أنت أيضًا بهذا حتى تشعر دائمًا عندما يهدد بالابتعاد أنك ستصبح تائهًا بلا أدنى فرصة للنجاح»..

كنا صديقين قبل الزواج، وهي مَن وجدت فرصة عمل لي في هذا البنك، تركَتْهُ هي وقت زواجها الأول، وظللتُ أنا فيه، أضطر للذهاب إليه كل يوم.

كنت في حالة من عدم التركيز، لكن عملي لا يحتاج إلى تركيز من الأساس، ظللتُ محافظًا على ألَّا تتم ترقيتي طول السنوات الماضية لأنني أكرهه ولا أريد المزيد من المسئوليات، إجراءات روتينية على شباك الاستقبال لأناس يلهثون خلف نقودهم وحقوقهم، في دائرة طالما كرهتها، ليست لأنها سيئة، بل لأنها إلزامية..

رسالة قصيرة من المساعد كشعار طه الدائم «إن أردت أن تحيا، امش خلفه كل ما تريد»..

صوت الوقت [illegible] بشغل بالي إلا [illegible]
حالة من تحدي وأن سعيد باستسلام روحي لها

أنهيت عملي وعدت إلى بيتي مسرعًا، فتحت [illegible] ووضعته على الكرسي المفضل، وبخطوة مجرح داخل زاوية عمه وقفت أمام [illegible] في حرص، لأجد في ملف الذي [illegible]، ملف باسم «حلم ستحقق»، والذي كانت [illegible] «حلما يس الكئيب». لم أتردد وفتحت الذي متبسمًا.

لأجد «عيسى» في غرفتي القديمة يبتسم ابتسامة شامتة، لم أدرك معناها إلا عندما قال:

- فتحت الفيديو التاني على طول، صح؟

حسنًا، كنت أحب أن أبدو ناضجًا في مصر، لا بأس، مر يوم كامل لكنه ظن أنني سأفتح الفيديو بعد الرقص مباشرة، قلتُ في هدوء:

- لأ طبعًا.. عشان فيه حاجة في حياتنا اسمها شغل دلوقتي ولازم أرتاح..

سأحذف هذا الجزء من المونتاج بيني وبينه، لم يكُن له داعٍ ولن يصح أن يظهر «عيسى الصغير» بشكل غير احترافي..

نظرت إلى أعلى لحظة في إدراك.. هل أفكر في الفيلم حقًّا وفي تنفيذه؟ لقد وصل خيالي إلى مرحلة المونتاج..

قال «عيسى» مقاطعًا أفكاري بابتسامته الواثقة:

- أول حاجه فيا وفيك لازم نعترف بيها.. إننا بنكسل حتى نفكر.. عشان كدا أكيد مش هاقضي الموضوع كله فيديوهات..

ورفع إصبعه الثانية، مكملًا:

- تاني حاجة لازم نعترف بيها.. إن أنا وانت بنعشق [illegible] بنعشق التحدي.. وبنحب اللي يستفزنا.. وده اللي خلاني أخترع لك مخصوص لعبة «إذمًا»..

شعرت بإحباط مفاجئ، هل يمزح؟ لقد انتظرت اليوم كله لأسمع الأمر الثاني.. لماذا لا يقوله وينتهي من دون إطالة؟!

ورد فحأة بحدته وقليل من الحزن، ليجعلني لأول مرة أجد في ردوده شيء مشترك بيننا:

- أنا حاسس إني شايفك.. شايف الدنيا اللي حواليك.. شايف إنك لوحدك ومافيش حد من اللي بتحبه حواليك.. شايفك قاعد في مكان كئيب ومش عارف تقول اللي جواك لحد.. وأنا وإنت بنكره الوحدة يا «عيسى».. إحنا روحنا بتكمل بالناس.. ولو انت اخترت فترة الاكتئاب.. يبقى مش هتكمل هنا.. لازم تتحرك شوية.. ولازم تغير المكان..

وقال فحأة بصرامة:

- كلم «سيرا» وهي هتفهمك كل حاجة.. الفيديو انتهى..

أظلمتِ الشاشه فجأة، لأشعر مع ظلامها بشيء ينطفئ داخلي، ياللسخافة! لقد كنت متحمسًا بشدة لأسمع الأمر الثاني..

نظرت إلى هاتفي المحمول الذي يصوِّرني، انتابني إحساس أن أنسى كل شيء، لكني ذهبت بعناد لم أشعر به منذ زمن، أمسكت الهاتف وأغلقت تسجيل الفيديو، كلمت «سيرا» على الفور، لأجد صوتها يرد بفرحة:

- كنت مستنياك..

قلت لها بنبرة آمرة لم أعتدها في شخصيتي:

- نتقابل فين؟

لتقول هي بضحكة:

- البنزينة طبعًا.. عجبتني قوي المرة اللي فاتت..

واتفقنا على ميعاد المقابلة، لألتقط مفاتيح عربتي وأخرج من الشقة مسرعًا.. نظرت للحظة إلى باب الشقة المقابلة لي.. ترددت لحظة.. ثم تجاهلت

[illegible]

* * *

[illegible]

[illegible]» التي انطفأ الحماس في عينيها [illegible]

بعد حفلتي الأخيرة..

[illegible] أمام محطة الوقود، المكان [illegible]

[illegible]، وأصبح مكان المفصل بعيدًا عن الدب [illegible]

[illegible] من رحل وباب من باتي من الأصدقاء،

[illegible] لا نتزحزح..

[illegible] «بشير» و«شمس» و«درية».. هذه

[illegible] في النهاية هي تلك

[illegible] تتخلص منهم هنا..

في محطة الوقود..

[illegible]

[illegible] للرقص ولا عشاق نقعد نتحايل على أهلك

إنك توافق..

[illegible] «بسيس» بحدية

[illegible] مكان كله كآبة وذكريات وحشة..

[illegible]

[illegible] وهو يقول ناظرًا إلى الفتيات كما [illegible]:

[illegible] والله.

[illegible] «درية» كأنما شعروا [illegible]

[illegible]

- كمان هتروح تعيش مع القمر دا.. حد طايل؟

لماذا لا يشعر أحد بي؟ ولماذا لا يبهرني نجاح «سيرا» وشهرتها كما يبهرهم؟ في نظري هي صديقة عمري، رفيقة أيام الدراسة.. لا أكثر ولا أقل.

ما قالته «سيرا»: إن «عيسى» القديم اشترط أن أغيّر مكان فرضي حتى يكتمل المشروع.. وعندما سألتها كيف لطفل ساذج أن يعرف أين سأكون بعد ثمانية عشر عامًا؟!

ردت ردًا أفحمني، قالت بابتسامة خجول:

- ساعتها كنت بتقول إن مستقبلك مش هايتساب في حاله.. يا إما هتكون عايش مع أهلك يا إما متجوز وعايش جنب أهلك..

شعرتُ بالإحراج للحظة، لا أتذكّر أي شيء من هذا، لكن من الواضح أنني كنت مراهقًا واقعيًا لدرجة الملل، بالفعل ظللتُ مع أهلي حتى تزوجت وأخذت الشقة التي أمامهم.. لا أعرف متى ولا كيف تركت الأمور تسير في هذا الاتجاه.. كل ما أذكره أن هذا كان طبيعيًا وقتها.. حاولتُ تجاهل الأمر وسألتها أين سأقيم؟

لتخبرني بما اعترضت عليه في البداية

- هتعيش في الفيلا بتاعتي، في شقة على الروف، أوضة وصالة

لأرد بعدها ردي العنيف الذي أحبطها، وبدأ الأصدقاء في إحياء ما تبقّى من رماد روحي، قالت «سيرا» بعد ابتسامة لـ«درية» على المحاملة اللطيفة:

- انت ساعتها كان نفسك في مكان عالي يكون مفتوح..

لأنظر لها ولا أعرف كيف أرد..

قالت «شمس» وهي تنظر إليَّ نظرة هادئة:

- انت محتاج تغير مكانك يا «عيسى».. اسأل نفسك سيبت حد.. هتخسر إيه أكتر من اللي خسرته؟

نظرتُ إلى «شمس» نظرة طويلة، كنت أفهم كلامها.. لكنّي اكتشفتُ ذكاءها، دائمة المراقبة لما يحدث حولها، ولا تتحدث إلا عندما تشعر أنها ستقول شيئًا

[illegible]

والوعود الرائعة

هذا أحترمه دائمًا كلامه

[illegible]

[illegible] حتى صارا شاهدًا على وصل [illegible]

[illegible] التي أصبحت بيننا تقريبًا ولا

[illegible]

نمة «بدون كلام»!

[illegible] حتى [illegible] عميق

[illegible] يخرج ما تبقى من الجنون..

[illegible]

[illegible] في هذا [illegible] منذ عشت فيه [illegible] الأعوام التسعة، مكان فيه

كل [illegible] شيء وأشعر فيه بأمان غير محدود.

حتى [illegible] بعض الذكريات السيئة، [illegible] أهم من

كل شيء..

قلت هذا كله في استسلام معلنًا قراري:

- أنا مش [illegible] في [illegible] دي.. مش رايح في حته.. لو تحبي تدبي

[illegible] يبقى زي الفل.. مش عاوزة يبقى خلاص الدنيا دي.

[illegible] وهي تنظر [illegible] تكتم غضبها لأنها تريد أن تحترمني

[illegible] فعلًا، قالت من تحت ضرسها بطريقة

[illegible] أحدًا:

- [illegible] أستاذة في قلب الترابيزة. ياريت ماتعملش [illegible] دي..

[illegible] وقد بدأت العصبية تتخلل نبرات صوتي:

- أنا مش [illegible] الترابيزة.. أنا مش عاوز الحوار دا [illegible]

شعرتُ فجأة بصدري يضيق، أن هناك ألمًا حقيقيًا فيه، وأنني أتنفس بصعوبة..

إحساس يأتيني دائمًا عندما أشعر أن هناك شيئًا أنا مجبَر عليه، ذلك الإحساس الذي جعلني أتوهّم أن لديّ أزمة قلبية وظللتُ مريضًا بهذا الهوس فترة. هوس أنني سأموت بعد زواجي بعام واحد..

عندما...

عندما حاولت «أسماء» الانتحار يومًا أمام عيني.

تزاحمت الأفكار في عقلي.. كانت «آن» تتحدَّث وتقول لي شيئًا ما لكني لم أسمعه.. صورة دم رسغ «أسماء» هاجمتني فجأة.. عندما تشاجرنا شجارًا عنيفًا بسبب شكها أنني على علاقة وأخونها للمرة الألف.. غضبتُ من هذا الظن الحقير وأخبرتها أنني لن أتقبّل هذه الحياة.. لتختفي في دورة المياه فترة.. شعرت بالقلق وذهبت لأطمئن.. فتحت باب الحمام لأجدها جالسة والدم يملأ رسغها الأيسر.. وتنظر إليَّ نظرة هادئة وتقول أغرب جملة سمعتها في حياتي:

ـ أنا مش عارفة أقطع جوّه قوي.. ممكن تساعدني أقطع العروق؟

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٧ – «الشريك يريدك أن تتقبَّل مرضه وجنونه وضعفه.. بالنسبة له هو ليس جنونًا من الأساس، بل نتيجة طبيعية لكل ما مرَّ به من مآسٍ، لقد تآمر العالم أجمع على بؤسه، وأنت الوحيد الذي لا بُدَّ أن تتحمله من دون شكوى، في الوقت نفسه يحاسبك بالشعرة على مرضك وجنونك وضعفك.. لا يجد لها مبررًا ويستهين بها. لسان حاله يقول إنك مهما شعرت لن يكون بقسوة ما رأى.. بالنسبة له.. أنت خُلقت كي تتحمله هو فقط».

نظرت حولي، لا أحد فيهم يشعر بما أنا فيه، شعرت بصدري يضيق أكثر، قلت فجأة كي أهرب من ذكرياتي قبل أن أهرب منهم:

ـ أنا لازم أمشي..

ولم أنظر إلى أحد، مشيت مسرعًا وخلفي الصرخة، سمعت من خلفي
صوتهم وهم ينادونني، يظنون أنني غاضب، لا يفهمون شيئًا، لا أحد منهم
يفهم وصف ومهما حكيت، حمدت الله أن عربتي كانت خارج المدينة، لا
بعد خروجها عربة من عرباتهم، انطلقت مسرعًا

لا بد أن أهرب..

رغمًا عني، رأيت عينيها الباردتين وهي تمد لي ذراعها الملطخة بالدماء، وتناولني القطعة الزجاجية التي ستخدمنها للانتحار، لم أدر حينها ماذا أفعل

في كل خبرات الحياة، لا تعلمت أحد وأنت في عمر الرابعة والثلاثين كيف تتعامل مع واحدة هي أقرب لك من روحك، تطلب منك أن تساعدها في انتحارها!

ضغطت دواسة البنزين أكثر عسى أن يلهيني الطريق، لكنني رأيتني عندما أمسكت منها قطعة الزجاج، وابتسمت في عدم تصديق، احتضنتها وعقلي يرفض فكرة أنَّ هذا يحدث لي، لتقول «أسماء» في حضني بصوت مريض فيه مزيج من الحنان والشرود:

- متخافش.. أنا مش موجوعة.. أنا مبسوطة إني هموت.. عشان خاطري بس، لو بتحبني.. ساعدني..

انتفضت عندما رأيت كلبًا كان يركض في عرض الشارع وكدت أدهسه، انتزعني فزعي من ذكرياتي ونظرت حولي على الطريق، أوقفت العربة بجانب الرصيف وخرجت منها لاهثًا..

بدأت الدموع تحتشد في عينيّ، أحاول أن ألتقط أنفاسي بصعوبة.. استندت إلى العربة وانحنيت قليلًا.. لا بُدَّ أن أهدأ..

أغمضت عيني..

نفس عميق..

وزفير طويل يُخرج ما تبقى من الذكريات...

* * *

وليت من بابي [illegible]

[illegible] ٢٠٧.. مثلا وسبع رسائل [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وابتسمت في ارتياح

الخطوة الحاسمة لتتعافى من علاقة سابقة، كما تقول الكتب، تخلَّ [illegible]

التي تثير فيك الذكريات.. ابتعد عن المحيط الكئيب الذي رسم شريك الحياة

فيه وجوده.. لا تجعل عقلك يذكّرك دائمًا بوجوده في كل تفاصيل حياتك

لكني لم أستطع أن أترك بيتي المريح حتى لو هاجمتني ذكريات لعدة

أيام.. أنا هنا بعيد..

في مكاني الآمن..

كم مرّ من الأيام؟ قد يكون يومان أو ثلاثة أو ربما شهر.. لا أتذكر.. بل

لحظة نسيت تمامًا كل ما له علاقة بـ«سيرا» والـ«فيديوهات» و«عيسى»

نفسه.. لا أدري لماذا تحمست من الأساس وأنا لا أذكره.. ونضجت كثيرًا

عن تلك المرحلة الحالمة المتفائلة، كبرت لأتعلم الواقعية الجميلة..

الحياة هي تدريب متواصل لتعلمك معنى الخسارة..

لكن الخيال الذي كان يعيشه في عمره المراهق.. لا يمت إلى الواقع بصلة..

الحلم والأمل.. والحياة الكاملة..

ما هذا السخف؟

أضاء الهاتف، ووجدت رقم أبي هذه المرة، رددتُ في هدوء لأجده يقول

قبل أن يسمع كلمة «ألو» التقليدية:

ـ تعالى حالًا..

قالها بلهجته الآمرة، أعلم من تلك اللهجة أن هناك مصيبة ما قد حدثت،

إما أزمة صحية يتعرّض لها، وإما شجار عنيف، سواء مع أختي أو أمي،

شعرت بثقل [illegible] منذ الطلاق لا أشعر إلا [illegible]
وصراخهم عليّ [illegible] [illegible] لأنها [illegible]
على الإطلاق، لكنها [illegible] من أجلي [illegible] الطلاق، [illegible]
الخيمة التي تغطي أمام كل [illegible] حتى [illegible]
ماسمعتش الكلام»..

ثم إن هناك أحداث كل ما قبل الانفصال، كل المقدمات [illegible]
لتحمل الأخطاء على الآخرين، فالطرف المخطئ يدفع [illegible] أكثر.

ذهبت متثاقلا، [illegible] بعد أن [illegible]، لأشعر
بالصدمة المشحونة في الجو على الفور، دخلت ببطء لغرفة المعيشة حيث نقضي
تسعة وتسعين في المائة من الوقت فيها..

نظرت إلى أمي الواقفة في منتصف الغرفة أمام التلفاز، تنظر إليّ بعينين
متسعتين غاضبتين، في حين جلس أبي على مقعده يشاهد مباراة كرة قدم ما
بين فريقين غير معروفين في الدوري المصري.. قلت وأنا أنظر إليهما منتشيًا
في عدم فهم:

ـ فيه إيه؟

قال أبي من دون أن يحوّل نظره من على التلفاز:

ـ اقعد..

جلست ونظرت إليهما مترقبًا، هناك أمر جلل، من ملامح أمي القلقة
وهدوء أبي، هناك شيء يخصني أنا، نظر إليّ أبي نظرته التي يحاول بها كتمان
معظم ما يشعر به:

ـ أنا صدقتك زمان لما قلتلي إنك ماختنش «أسماء».. ومشيت في إجراءات
الطلاق كلها مصدقك.. هاسألك لآخر مرة: انت كنت بتخونها؟

قلت الجملة التي كررتها ثلاثة أعوام من عمري في نفاد صبر:

ـ والله ما خنتها..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- مش فاكر

[illegible] إلى [illegible] بالعمل لا أتذكر [illegible] لا أتذكر [illegible] عن «أسماء» وما حدث معها طوال الأعوام الثلاثة [illegible] خارجه عن [illegible] أسرارها، شجارنا المتواصل [illegible] الأوقات التي قضيتها خائفًا من أن أموت بجانبها فأتهم قلبي خوف من [illegible] لأحد في العالم الآخر، غير هذا لا أتذكر كيف كنت ولا ماذا فعلت طول هذا الوقت..

سألتُ «ب» عن سلامة عقلي، لترد «آن» وقتها وتطمئنني أنني فقط [illegible] الأمر، قالت بنبرتها العملية:

- انت عملت «بلوك» بس لكل حاجة ليها علاقة بالفترة دي.. دا طبيعي..

ابتأست قليلًا، كان سيتحوَّل هوس أزمتي القلبية إلى هوس فقدان الذاكرة، لأنني بعد الطلاق أيضًا لا أتذكَّر شيئًا من الأشهر الثلاثة الماضية، أقضي اليوم بطوله وأستيقظ كأنه يوم جديد ولا أتذكر شيئًا عن البارحة..

قال أبي ليعيدني إلى أرض الواقع:

- خد اقرا..

وأمسك رزمة أوراق مطبوعة وأعطاني إياها، نظرت إليه في غير فهم، أمسكت الورق ونظرت إليه لأجد أنه ورق مطبوع عليه صفحات من حديثي مع إناث مختلفات، كلها أحاديث بيني وبينهم على «فيسبوك» و«إنستجرام»، تم طبعها في هذه الرزمة خصيصًا..

شعرت بفوران يغلي داخلي..

انعقد حاجبيَّ وأنا أقرأ كلامًا كثيرًا لا أذكر أنني كتبته في الأساس..

بعد انصراف «أسماء» من البيت شعرت بخواء غير طبيعي.. دخلت

[illegible]
[illegible]
تستمر التدفق من دون ألم.

[illegible]
[illegible]

ممكن تساعدني أقطع العروق؟!..

حركت رأسي بعنف [illegible]
[illegible] الكلام [illegible]؟

نظرت إليه في [illegible] وصمت [illegible]
في الأمر، وحين [illegible] قلت:

- دي كلها حاجات بعد الطلاق..

يبتسم أبي مكتفيًا بنظرة ثابتة ويقول:

- بص على التواريخ..

نظرت إلى التواريخ ثانية في الورق كله. لم أفهم. نظرت إليه ثانية وكررت بإصرار:

- دي كلها حاجات بعد الطلاق.. بعد ما أمي سابت البيت..

ليومئ أبي برأسه ويشير إليَّ بنبرة هادئة:

- بالضبط.. بعد ما سابت البيت.. مش بعد الطلاق..

نظرت إليه في استهجان.. وما الفرق؟ منذ أن طلقتها وتركت هي البيت كنت أعرف أنها النهاية.. كنت أعرف أنها لن تعود ثانية مهما حدث.. انتهت علاقتنا بالنسبة لي وتم استهلاك كل جزء فيّ.. فما الفرق بين نهايتي ونهاية الورقة الرسمية التي جاءت بعد شهر أو أكثر؟ هل يقصد أنني خائن لمجرد أنني لم أنتظر ورقة رسمية تفيد موظفي الحكومة بشرعية تصرفي؟!

قال أبي بنظرة لائمة، تخبرني بمنتهى الوضوح أنني السبب في كل ما يحدث:

ـ هو مانتشرش حبوا الحاجات دي مين!

أدركت فجأة هذا السؤال البديهي، لكن أمي هذه المرة أجابت بعصبية.

ـ فيه حد سرق حسابك كله. وبعتها لينا من غير ما يقول مين.

للمرة الثانية شعرت أنني عارية تمامًا، منذ يومين أو أكثر لم أطالع أيًّا من حساباتي على التواصل الاجتماعي لكرهي ما تبثه من طاقة سلبية، أمسكت هاتفي وفتحت كل التطبيقات، والرسالة واحدة فيها كلها. «لقد تم تسجيل خروجك من هذا الحساب».. كل حسابات التواصل الاجتماعي الخاصة بي سُرِقت..

هل من سرق الحسابات وأرسل تلك الأوراق لأهلي هي «أسماء»؟

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٨ - «الشريك السام عادة ما يكون نرجسيًا.. يرغب في السيطرة التامة.. ويصل به الهوس إلى أن يرغب في السيطرة حتى بعد الانفصال.. يخاف على مظهره بشدة؛ لذا يُبقيك تحت سيطرته، سواء بالاستجداء العاطفي أو البكاء أو التهديد.. وقد يصل إلى الإيذاء.. الشخص النرجسي يريد أن يشعر أنك لا تستطيع الحياة من دونه.. يريد أن يثبت للناس كلها أنك ذبلت من بعده؛ لأنه يظن أنه مصدر حياتك.. فكيف تتجرأ وتتنفس من دونه يومًا؟».

والخطوة السادسة لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تبتعد تمامًا..

نظرت إليهما بغضب، أدركت لماذا يلومني أبي، فهمت فجأة أنني لم أغيِّر أيًّا من كلماتي السرية لكل تلك الحسابات.. قال لي مرارًا أن أفعل.. لكنني رفضت.. لقد وعدتني «أسماء» أنها لن تفعل ذلك مهما حدث..

لن تؤذني عندما تنتهي قصتنا..

هذا لو كانت هي من فعلت كل هذا، ومن يهدد أماني الآن ليس شخصًا

[illegible]

شعرت اني أختنق..

اريد ان اهرب من كل هذا..

[illegible]

[illegible]

إليهما فجأة وقلت:

[illegible]

[illegible]

(٤)

وثاني الكنوز

البط شال عدى الجبال والبحور

ياما نفسي أهج.. أحج ويّا الطيور

أوصيك يا ربي لما اموت.. والنبي

ما تودنيش الجنة.. للجنة سور

عجبي!

صلاح جاهين

وقفت بسيارتي أمام فيلا صغيرة في «كومباوند» بالسادس من [illegible]
كان «ياسين» يتحدث في هاتفه [illegible] قليلًا، فقالت «آن» وهي تستند إلى سيارتها ناظرة إليّ:

ـ مش طايقاك..

ابتسمتُ في هدوء، طول الطريق تلومني لأنني تجاهلت اتصالها، لدينا أنا وهي مبدأ واحد، نتجاهل الجميع وقت حزننا لكن لا نتجاهل بعضنا أبدًا، مهما حدث، حكيت لها ما حدث في الطريق فهدأت قليلًا.. لكنها ما زالت غاضبة..

أخرجت «آن» من حقيبتها علبة السجائر وأخرجت سيجارة، أخذتها من فمها من دون استئذان، لتنظر إليّ في حزن، أخذت الولاعة منها وأخذت نفسًا عميقًا

وأخرجت زفرة طويلة..

قالت بلهجة متسائلة لكنها تحمل بداخلها الكثير:

ـ انت مبطّل بقالك حبة كويسين.. ليه كدا؟

أومأت برأسي أن نعم.. منذ أن أصابني ذعر الأزمة القلبية.. قررتُ أن أعيش حياة صحية من دون تدخين حتى أقنع نفسي أنني لن أصاب بنوبات قلبية.. لكن لا أدري لماذا الآن لا يبدو الموت فكرة سيئة لتلك المرحلة.

قال «ياسين» وهو ينظر إلى الفيلا ويضع ذراعه حول عنقي:

ـ يا بختك يا عم.. هتعيش في القصر دا..

لو تعلم ما تحدث لي الآن لم حسدني على الإطلاق، ابتسمت حاملا،
سمعت حينها صوت مزلاج معدني تفتح، وتخرج «سيرا» على شفتيها ابتسامة
سعيدة أحبها منذ أن كنا طفلين..
قلت مشيرة إلى فيلتها بأداء استعراضي:
- مرحبًا بك في عالمك الجديد..
عقدت حاجبيّ في تعجُّب وأنا أبتسم، لتقول هي ضاحكة:
- انت اللي وصلني أقولك كدا أول ما تيجي.. والسي ما تتريق..
ضحك جيغ، صعدت معها في هدوء، كنت في الدور الثالث، فتحت
بابًا معدنيًّا أسودَ كبيرًا، لأجد نفسي على سطح الفيلا، على الرغم من الليل،
لكني كنت أرى مساحة واسعة من الفراغ أراحتني نفسيًّا، نظرت إليَّ «سيرا»
في ترقُّب منتظرة رد فعلي، في حين تركتهم رغمًا عني ومشيت شاردًا حتى
سور السطح ونظرت إلى كل شيء حولي، هناك حالة من السكون والهدوء
تُنزل السكينة على القلب..
شيء ما داخلي ينتمي إلى هذا المكان..
بل ينتمي إلى أي مكان واسع لا يحده أيٌّ من الأسوار..
- يا «شواف»..
قالتها «سيرا» منادية، ما زلتُ لم أعتد بعدُ أن يناديني أحدٌ بـ«الشواف»
ثانية، نظرت إليها لأجدها فتحت باب الشقة الصغيرة، يقف بجانبها «ان»
و«يمين» ناظرين إليَّ بسعادة، ذهبت مبتسمًا وأنا في حالة من الهدوء النفسي
لم أشعر بها منذ فترة طويلة..
دخلت الشقة لتتسع ابتسامتي أكثر.. شقة صغيرة للغاية، غرفة واحدة
وصالة واسعة، لكنها كانت راقية، والمثير للدهشة والحيرة أن «سيرا» زيَّنت
كل تفصيلة فيها بما كان يحبه «عيسى» القديم..
حوائط بلون رمادي، وحوائط أخرى مرسوم عليها رسومات بديعة،

[illegible] في غرفة [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible]
[illegible] [illegible]
صحبي "في شخصية "غرفة الشواف" [illegible]
مكتوبة تحته جملة ذكرتني بكل شيء أحاول أن أنساه

«باتجنن من يقينكم»..

[illegible] حلتي المقصبة، عندما [illegible] "غرفة الشواف" [illegible]
[illegible] وبصوته متضرزًا، ليصرخ بتلك الجملة العنيفة في ساعاتها [illegible]
قبل أن تضرب عقلي.. ذلك اليقين الذي يتحدث الجميع به [illegible]
وصلوا إلى الحقيقة الكاملة، ذلك التعالي في فرض القوانين وما يصح وما
لا يصح. يثير جنوني ذلك اليقين.. يكمل بعده "غرفة الشواف" الجملة [illegible]
أشعر به دائمًا طول حياتي:

"وأقول إيش عرفني إنكم ما بتكذبوش عليا..
أو يمكن تكون الحقيقة فاتتكم"..

وقفت أمام الحائط أنظر إلى الرسمة وداخلي أشياء كثيرة تتحرك [illegible]
عني، "سيرا" تنظر إليّ كطفلة منتظرة انبهاري، نظرت إليها وقلت كل [illegible]
كان في عقلي وقتها:

- انتِ حلوة قوي يا "سيرا"..

ضحكت وهي تقترب مني واحتضنتني.. ربتُّ على ظهرها في حنان..
وأنا أنظر لـ"آن" التي غمزت لي في خبث، فرفعت لها إصبعي الوسطى، في
ردّ جعلها تنظر إلى "ياسين" في إحراج، فضحك "ياسين" [illegible] مضى
- وحتى الآن - كانت تلك الإشارة لها معنى قمة في [illegible] مع تطور
الزمن أصبح الجميع يستخدمونها كإشارة أقرب للاعتراض [illegible] يست
بمعناها البذيء الحقيقي؛ لذا أستخدمها أنا و"آن" دائمًا..

وذهوبي في مرح، للحظة كنت أمرح معهم، بسبب كل شيء، لكن عندما
تركوني وحدي وانصرفوا، شعرت فجأة بكل شيء، بأسى تام
ونفَسي يضيق في صدري قليلًا..

* * *

لكني استيقظت اليوم التالي بعد نوم متقطع بلا أحلام
استيقظت على صوت جرس الباب، نهضت مسرعًا فوجدتها «سيرا»،
يبدو عليها النشاط، دخلت الشقة الصغيرة، وأمسكتني من يدي لتجلسني
على كنبة وثيرة، ووقفت لحظات تتأمل المكان، ثم علّقت الهاتف على قائم
الكاميرا الذي أتت به من منزلي، صوَّبته نحوي وضغطت على زر التسجيل
نظرَتْ إلى الكاميرا وقالت بلهجة حماسية:

ـ هنبدأ لعبة «إدْما».. النهارده أول يوم في رحلة الـ«Treasure hunt»..

"إدْمَا"، اسم قاله عيسى قبلًا وتقوله سيرا الآن ولا أذكره على الإطلاق،
ذهبَتْ "سيرا" لتقف أمامي، أردت أن أخبرها أنني ما زلت بـ«عماص»
عيني، وأن الكادر الذي اخترته سيئ للغاية، لكني تركتها بحماسها، مدت
لي يدها بظرف كروت عيد الميلاد، نظرت إلى الظرف، مكتوب على غلافه.
الكنز الثاني..

توقف عقلي لحظة عندما قرأته، ونظرت إليها متسائلًا:

ـ مكتوب هنا الكنز التاني.. فين الأول؟

أشارت إلى نفسها وقالت بفخر:

ـ أنا طبعًا..

ابتسمت مصدقًا؛ لأن الإجابة منطقية، لكنها ضحكت وقالت مصححة:

ـ الهدية اللي جبتهالك والفيديوهات.. دا الكنز الأول..

أومأت برأسي أن نعم، قالت بحماس وهي تصفق.

- هلا افتحه واقرأ

فتحت الظرف بتكاسل لكن [illegible] بطاقات عيد الميلاد [illegible] لأحد رسالة من «عيسى [illegible] كله» عن الآن.

رفعت حاجبيّ في إعجاب وقلت

- دا بالفصحى

لتقول «سيرا» بنفاد صبر:

- ما ان كد ستكتب جوابات لبعض بالفصحى لازم.. يلا كمّل.

نظرت إليها وابتسمت ساخرًا من تعجُّلها، وقرأت:

- "كل لعبة بحث عن كنز تبدأ بلغز يا (عيسى).. القواعد بسيطة. سأعطيك لغزًا يدلك على مكان. في المكان ستجد شيئًا ما.. ستعطي هذا الشيء لـ(سيرا) فتعطيك الجائزة.. الجائزة هي الفيديو الثاني.. تنفِّذ الأمر الذي أعطيك إياه في الفيديو الثاني عندما تنفذه ستعطيك (سيرا) الكارت التالي فيه لغز ثانٍ.. وهكذا».

عقدت حاجبيّ، ياللمراهقة المعقدة، لماذا كل ذلك المجهود؟ أكملت قراءة لأجده يجيبني - اللعين - عمّا يدور في عقلي:

- «متعة اللعبة يا (عيسى) في صعوبتها..

اسم اللعبة "إذمَا".. منذ شهور قال لي مدرس اللغة العربية، عندما اكتشف أن جدي "عبد الآخر العسال" كان معلمه وصاحب أفضال عليه، أن هناك أداة شرط جازمة لكنها نادرة الاستخدام، "إذمَا"، وهي ببساطة دمج لـ"إذا ما".. تجزم فعلين مضارعين بعدها.. أعجبتني المعلومة وظلت عالقة بذهني، حتى وقت تخطيطي للعبتنا معًا.. اكتشفت أن لعبنا معًا يا (عيسى) تعتمد على أداة الشرط تلك، لا بُدَّ أن تتحرك قليلًا.. حتى تستطيع

أن تجد كل شيء تركته لك.. حتى تجدني داخلك

لا أدري في أي وقت ستسمعني.. لا أعلم ما الذي حدث لك.. لكني أعرف أنك استسلمت لسبب ما، أقوى منك ومني، داخلك.. الذي يحملك تساؤلات لا بد أن يكون شيئًا أكبر من احتمالك.. شيئًا لم تجد به أحدًا كعادتنا.. سجنته داخلك، وكي تجد مساحة تكتب به نسيتني، لذا أرجوك.. تحرك معي.. لدي كلام مهم جدًا في الفيديو الثاني.. في النهاية أنا وأنت نكره الخسارة في اللعبة فلتلعب بقوانيني قليلًا.. اترك كل شيء داخلك يخبرك أن ترفض.. واقرأ اللغز الأول الذي لن يحله سوانا»

قالت «سيرا» عند هذه النقطة:

ـ اقرا اللغز بس بصوت عالي..

نظرت إليها لأحد عينيها في بطاقة المعايدة معي، لم أبالِ، قرأت بصوت عالٍ:

ـ «عمك (جاهين) قال:

أوصيك يا ربي لما أموت.. والنبي..

ما تدخلنيش الجنة.. للجنة سور..

ونحن مثله يا (عيسى) لا نحب الأسوار.. يزرعون فينا فكرة "السور" منذ الصغر.. كيف تضع حدًّا لكل شيء تريده أو تحلم به.. لهذا نكره السور حتى لو كان يحمينا من كل ما هو آت في المستقبل.. وسنظل طوال عمرنا إما نريد أن نهده..

أو نحلق عاليًا فوقه..

وفي نهاية اللغز أقول: هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك،

إذًا يبدأ.. يحدني.»

انتهى الكارت، ابتسمتُ في شجن، عدّلت «سيرا» من جلستها بجانبي ووقفت تنظر إليّ بترقُّب، كان اللغز سهل الحل، لكني تذكرت كل ما يتعلق بتلك الفترة الطويلة من حياتي.. قالت «سيرا» بابتسامة حانية وعين تربت

على روحي الكئيبة مهوّنة:

- عرفت الحل؟

ابتسمت وطرت إلى كاميرا هاتفي، قلت بابتسامة وأنا أعلم خطته البعيدة

- المدرسة.

صفقت «سيرا» بيدها، وقالت مشيرة إلى الكاميرا كأنها تريد أن توضح للجمهور الذي سيتابع بعد انتهاء الفيلم

- وعرفت ازاي؟

هربت كثيرًا وأنا أتذكر صعوبته، قلت بابتسامة

- أنا وهو كنا بنكره سور المدرسة عشان بيحدد الخروج من الباب بس وأول مرة نضامن على السور في حياتي عشان كره فكرته كانت في المدرسة..

ثم قمت ساخرًا وأنا أشير إليها بالبطاقة:

- بس هو خاف إني ما فتكرش موضوع السور.. فكتب جملة هبلة تابعة «بيحمينا من المستقبل»..

نظرت إليّ في عدم فهم فضحكتُ قائلًا:

- أنا وأنت كنا في مدرسة المستقبل..

نظرت إليّ باستخفاف، لم تتوقع سذاجة اللغز، فأشرت إليها معتذرًا، ضحكت «سيرا» معي لحظات، ثم ذهبت لتنظر إلى الكاميرا قائلة بابتسامة:

- الكنز الأول في المدرسة.. هنروح دلوقتي نشوف «عيسى الصغير» سايب لنا إيه هناك..

تأملتها بابتسامة، لم يكُن يعجبني ما تفعله من أداء استعراضي مباشر، بالتأكيد سأحذفه في مونتاج الفيلم التسجيلي بعد الانتهاء.. اتسعت ابتسامتي رغمًا عني.. مونتاج الفيلم؟ هل بدأت أفكّر في تنفيذه فعلًا؟

الخطوة السابعة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تنغمس

في شغف جديد. أيًا ما كان نوعه. لا تبال بعرف ومجتمع وقيود. انغمس في شغف يسرق عقلك ولو للحظات قليلة

لأذهب إلى مدرسة المستقبل..

* * *

وقفنا أمام المدرسة ننظر إليها..

كم تغيَّر كل شيء فيها!

عندما دخلت المدرسة كنت مدرسة تجريبية جديدة، كانت دفعتنا أول دفعة تطأ أقدامها محرابها التعليمي، كانت كالشابة النضرة بطلائها الجديد ومبانيها المميزة وقتها.. الآن، شابت أطرافها ودهستها آلاف الأقدام، يبدو عليها الكبر، وتهدلت أكتافها وضربت التجاعيد ذلك السور العلي.. بدا عليها القدم مقارنة بالمدارس الحديثة ذات النظام التعليمي الأحدث..

مثلي تمامًا..

كان الوقت قرب غروب الشمس، انتهت مواعيد الدراسة الرسمية.. جلسنا أنا و«سيرا» في العربة أمام البوابة الرئيسية.. قالت «سيرا» وهي تنظر إلى المدرسة بصوت حائر:

ـ هنعمل إيه؟

كانت تسجّل كل شيء بكاميرا هاتفها المحمول الحديث، نظرتُ إليها بجهل حقيقي، ما الذي سنقوله كسبب منطقي للدخول؟! الآن المدارس ـ الحديث منها والقديم ـ تبالغ في التأمين.. و لآن على ما أتذكَّر هو مواعيد المجاميع الدراسية التي تحاول الحكومة محاولة فاشلة استبدالها بالدروس الخصوصية، نظرت إليها لا أدري ما أفعل. ثم عمرت بعيني فجأة وقد خطرت لي فكرة:

ـ هادخلها زي ما خرجت منها..

[illegible]

[illegible]

مرة أخرج منها لازم نتفق كبيرة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لتسأل السؤال المتوقع

- [illegible] بعد من على السور؟

وملت برأسي بحماس، على الرغم من سخافة الفكرة، لكن [illegible]

لم أستطع تفسيرها، قلت بسرعة:

- تعالي معايا بس..

خرجتُ من العربة في خطوات سريعة، لتتبعني هي في استسلام، ووصلت إلى المكان الذي اعتدت أن أقفز من على السور منه، كان سور مبنى الحضانة، كان أقصر من بقية الأسوار، وهناك بعض الأحجار البارزة التي تساعد في التسلق. كانت «سيرا» تصور كل هذا ممسكة هاتفها على ما يسمونه «selfie stick»، تصورني معظم الوقت وتصور نفسها معي أحيانًا أخرى.. بدأت في التسلق لتقول هي أغرب شيء توقعت سماعه:

- أنا لابسة كعب!

لأقول وأنا أتسلق بصعوبة وارتجاف جسدي كله يهز صوتي:

- اقلعيه..

تعثرت في طوبة بارزة فكدتُ أقع، سمعت شهقتها، تحتي ضحكت، فيما مضى كنت أتسلقه بقفزة واحدة، لكن ثمانية عشر عامًا كفيلة بذهاب اللياقة البدنية للجحيم، ألصقت جسدي بالسور، وقبل أن أفقد توازني وأجد وجهي يصافح أسفلت الطريق من تحتي، استندت بيدي العلوية في

أغرق في حدة أخيرة، دفعت بقدمي نتوءات السور، لأصل لاهثًا إلى قمته

شعرت بانتصار غريب، تأملت ما حولي من أعلى السور وضحكت،

صافحتني نسمة هواء باردة فأغمضت عيني..

نفس عميق.

وزفير يخرج من شفتين مبتسمتين.

نظرت إلى «سيرا» المبتسمة التي قالت

- ربنا معاك بقى.. أنا هاستناك هنا..

أشرت لها بيدي أن لا، مِلتُ بجسدي كله بحيث نمتُ بعرض السور على بطني، مددت يدي لها وقلت:

- يلّا.. ولا نسيتي زمان؟!

قالت ضاحكة وهي تناولني عصا التصوير:

- يابني عندي تصوير حلقة في برنامج مع منى الشاذلي كمان أسبوع.. أروحلهم رجلي متجبِّسة؟

لكن مع جملته كانت تقترب، أعجبتها الحالة كما أعجبتني، خلعت حذاءها ذا الكعب العالي، أمسكته في يدها اليسرى وركضت فجأة لتستند على السور بقدمها وتدفع نفسها لتمسك يدي، تشبثَتْ بيدها اليمنى في يدي، آلمني ذراعي بشدة فقلت ضاحكًا:

- انتِ تختي عن زمان قوي..

لترد لأول مرة بطريقة «سيرا» القديمة مع «عيسى»:

- انت اللي بقيت مكحكح..

وتسلقت بقدميها ببطء، معتمدة على يدي، ثم تسيبني لتمسك بيدي الأخرى وتهبط من الناحية الأخرى، لأقفز جانبها.

آلمتني القفزة للغاية لأدرك حماقتي، فيما مضى كانت الأرض رملية، الآن

تحولت بعد رقص صعب، سمعت صوت ارتطام أسناني ببعضها، لكني تجاهلت ذلك ورحت أحافظ على ما تبقى من رجولتي أمام «سمر».

على الرغم من عرقي الغزير، فإنني ابتسمت وأنا أنظر حولي متأملًا المكان الخالي..

لقد أصبحنا داخل المدرسة..

قالت «سمر» وهي تلهث مثلي ناظرة إلى الحوش الواسع أمامي، خلفه مبنى خرساني:

- هو ده اللي «عيسى» كان عاوزنا نيجي هنا ليه؟

نظرت إليها في حيرة، لم يقل شيئًا عن المكان الذي سأجد فيه ما يسميه «الكنز». عقدت حاجبيَّ في حيرة.. ثم تذكرت.

* * *

- يعني مش منظر، لو حد من صحابنا دخل عليك ولقاك في كابينة واحدة جوه الحمام مش هانخلص..

قالها «صلاح» وهو غاضب. كنا في الثانوية العامة، وكنت واقفًا على مرحاض بقدمي داخل الزي الرسمي للمدرسة وهو يسندني من الخلف. أشبُّ بجسدي كي أنظر من النافذة العلوية كي أرى شرفة شقتها من خلال النافذة، وكان هو يسند ظهري كي لا أقع، قلت وأنا أضحك:

- ما هو أنا مش هامشي غير لما تطلع «سمة» تطمني عليها. إحنا متفقين [illegible] تطلع تطمني من البلكونة.

قال في غيظ:

- تطمنك عليها ليه؟ هي شغالة؟ دي قاعدة في بيتها [illegible] الناس المحترمة..

وأكمل غاضبًا

ـ مش قاعدة في حمام ريحته زي الزفت

لم تكن الهواتف المحمولة منتشرة وقتها، كنت أنا الوحيد الذي أمتلك هاتفًا وسط أصدقائي وكان ممنوعًا في المدارس، كما كنت أكبرهم سنًا بعامين كاملين، ألحقتني أمي بالمدرسة متأخرًا فكنت أكبرهم جميعًا ـ حتى «سيرا» ـ وكانوا يحترمونني لهذا السبب..

لم أعبأ بكلامه، تشبثتُ بإطار النافذة الألوميتال بحماس، عندما وجدت باب شرفتها يُفتح، وتخرج «نسمة» منه متدثرة بغطاء، كانت تسكن في المبنى المقابل للمدرسة مباشرة، والشباك الوحيد الذي يطل عليها هو شباك هذا الحمام.. ابتسمت في سعادة عندما خرجت وهي تنظر إليَّ، كانت المسافة بعيدة نسبيًّا، لكننا كنا نرى بعضنا جيدًا..

لوَّحتُ لها في سعادة.. لترسل لي قبلة في الهواء. مثَّلت أنني آخذها لأضعها على قلبي كأي مراهق يحترم نفسه.. لكن تلك الحركة المفاجئة فعلت شيئًا ما في النافذة، لأجد الإطار الخارجي ينخلع فجأة، وأفقد توازني..

وأسقط فوق «صالح» مباشرة..

* * *

ابتسمت فجأة وأنا أتذكر، نظرت إلى «سيرا» بحماس وقلت:

ـ تعالي معايا..

وأمسكتُها من يدها، أمسكَتْ هي عصا التصوير مني؛ لأني لم أكُن بالبال الرائق لأصوِّر، دخلنا مبنى طلاب الثانوية العامة، منذ ثمانية عشر عامًا وهو مميَّز بأنه من الطوب الأحمر، يحدُّه إطار مدهون باللون الأبيض بطول المبنى، صعدنا إلى الدور الرابع، بدأتُ ألهث من الدور الأول، كنت فيما مضى أقفز سلمتين معًا حتى أختصر الوقت، قالت «سيرا» كي تملأ ذلك الصمت في فيديو التصوير:

وصمتت لحظة ثم قالت بفضول:

- بس مش ليه بتتكلم عنك زي ما يكون واحد تاني؟ «عيسى» عمل! «عيسى» قال! ليه مبتقولش «أنا كنت عامل»؟

قلت باقتضاب:

- عشان هو فعلًا واحد تاني..

لم تعرف بماذا ترد، فقالت:

- طب إحنا طالعين فين؟

ابتسمتْ في خبث، قلت هذا وأنا أحاول أن أتغلّب على لهاثي كي لا أبدو عجوزًا في الفيديو:

- عارفة إيه الحاجة الوحيدة اللي عمرها ما بتتجدد في المدارس التجريبية؟

لم تُجِب، وصلنا إلى الدور المنشود، الدور الرابع، الأخير، نظرت إلى الفصل الذي أخذ من عمري ثلاث سنوات، ثم تجاهلته وذهبت إلى الحمام مباشرة مكملًا:

- المباني..

فتحتُ باب الحمام، هاجتني الرائحة السيئة نفسها لتعيدني ثمانية عشر عامًا للوراء، رائحة بسيطة وغير محيرة، هي مزيج من تزاوج غير شرعي بين «الفنيك» والبول..

أضأتُ نور الحمام، ذهبت إلى الكابينة التي كانت تطل على بيت «نسمة»، خلفي «سيرا» التي قالت مبتسمة:

- أول مرة أخش حمام الولاد في المدرسة..

ثم أكملت ضاحكة:

- كنا بنتخيله أنا والبنات دايمًا إنه كله البتاعة اللي بتعملوا فيها حمام وانتو واقفين دي..

قلت وأنا أنظر إلى النافذة الألوميتال بعد كل تلك السنين:

- مولة..

قالت باشمئزاز:

- [illegible]

[illegible]

• • •

عندما وقفت فوق الصندوق، الذي صرخ من الألم [illegible] الأرض، لاحظت وأنا نائم على ظهري تلك الطوبة [illegible] تحركت من مكانها عندما، [illegible] نهضت [illegible] يصرخ وينفض ملابسه:

- الله يحرقك يا أخي..

وانصرف غاضبًا، لكن تلك الطوبة أثارت فضولي، صعدت ثانية على المرحاض، زحزحت الطوبة من مكانها لأجدها تخرج معي بسلاسة..

كانت نصف طوبة فقط، تم شطرها نصفين بالطول، ولا وجود للنصف الآخر، وضعتها ثانية لأكتشف ذلك التجويف الكبير الذي أحدث النصف المفقود..

لتأتي في عقلي فكرة عبقرية..

* * *

قالت «سيرا» في تساؤل عندما وجدتني أشير إلى الطوبة:

- إيه دي؟

قلت لها مبتسمًا:

- الطوبة دي هي السبب إني بقيت أكتر واحد عمويت في الدور كله..

اتسعت عينها وهي تتذكر فجأة:

[illegible]

[illegible]

أومأت برأسي أن نعم، ووقفت على المرحاض [illegible] فأصبح [illegible] خرجت [illegible] التي لم يمسسها أحد لمدة [illegible] من مكتبة بلاستيكية كي [illegible] ذاتها، لأجد [illegible] كيس بلاستيكي شفاف مغلق بإحكام، شهقت «سيرا» في حين نظرت إلى الكيس الذي امتلأ بالأتربة وتغير لونه وأصبح مهترئًا للغاية

انتابني إحساس غريب لم أفهمه، شعرت أنني أقترب من شيء ما لا أدري كنهه..

قلت لـ«سيرا» بهدوء:

- افتحي حنفية الحوض بسرعة..

نفّذت «سيرا» من دون تفكير، لأمسك الكيس بأطراف أصبعي وأهبط مسرعًا على الحوض وأضعه تحت الماء مباشرة..

وكما توقعت.. كمُّ النمل الذي خرج من الكيس مع الأتربة كان غير طبيعي.. كنت في صغري مقتنعًا أن النمل لا يخترق الأكياس البلاستيكية، الآن كبرت وفهمت، حمدت الله أنني وضعتُ ما أريد في علبة معدنية مصمتة.. صدئت تمامًا من الخارج..

قرّبت «سيرا» الهاتف من العلبة، انتهت عملية التنظيف، أمسكتُ العلبة، نظرتُ إلى الكاميرا وابتسمتُ، قالت «سيرا»:

- انت فاكر سبت لنفسك إيه؟

[illegible]

هدوء لأجد ما نسيته تمامًا..

قلم «بوسول» جاف، أزرق اللون

* * *

- القلم دا هيبطلوا إنتاجه خلاص.. مش هينزل تاني..

قلتها لـ«نسمة» بحزن شديد، فنظرت إليّ في حب وهي تمسك يدي، كنت هي أول من أهداني هذا القلم في أول سنة في الإعدادية، قلم «بيسول Laknock» ذا الخط سمك «١,٠». أكملوا إنتاج الخط الأكثر رفعًا والأكثر سمكًا، لكن هذا النوع بالذات أوقفوا إنتاجه..

عندما أهدتني «نسمة» القلم، ظللت أمسكه في يدي طول الوقت ولا أتركه، أكتب به كل أفكاري ومذكراتي، حتى شتهر أيضًا وسط أصدقائي المقربين بقلم «عيسى».. وصل الأمر إلى أنني كنت أبتاع علبة كاملة منه حتى تنتهي وآتي بغيرها..

وأتى اليوم الذي يخبرني فيه صاحب المكتبة، الذي يعلم أنني لا أكتب إلا به، أن القلم سيتم وقف إنتاجه واستبدال نوع آخر به..

لأشعر أنني أفقد جزءًا من روحي..

قالت «نسمة» مهوِّنة بعقلية فتاة في السادسة عشرة:

- ماتزعلش.. أنا بحبك.. وهاجيبلك غيره..

لم أستطِع أن أخبرها أن القلم أصبح أكثر أهمية منها، كانوا يقولون إن الجماد يأخذ من طاقة صاحبه، وهذا القلم كان فيه من طاقة روحي كثير، ابتسمت لها مجاملًا ونظرت إلى القلم بحزن..

* * *

نظرتُ إلى القلم بحنين..

آخر نسخة تم إنتاجها من المصنع لذلك النوع من الأقلام في يدي الآن..

[illegible]

[illegible]

[illegible] أدرت القلم بين أصابعي [illegible]

[illegible]

رقصها بين أصابعي مرارًا..

أمسكت عساي في حسن، ضغطت عليه، ليخرج سنه لدي ظننا ضخمًا في جيبي، كان أنبوبه فارغة؛ لأنني وضعته هنا بعد أن انتهى حبره، ضغطت عليه أكثر من مره ليصدر صوت الكتكتة المحبب إلى قلبي

ابتسمتُ ابتسامةً من قلبي لم أبتسم مثلها منذ زمن..

نظرت إلى «سيرا» التي كانت تنظر إليَّ دامعة، قالت مبتسمة:

- «عيسى الصغير» كان حلو قوي..

أومأت برأسي أن نعم، لتبتسم «سيرا» وتقول:

- انت دلوقتي تستاهل الجايزة، وهتشوف الفيديو التاني..

كدت أخبرها أن عودة هذا القلم بكل ذكرياته تكفيني، ابتسمت وقلت بصوت متهدّج:

- أنا مش مصدق..

للحظة اعترفت بيني وبين نفسي أن «عيسى» القديم كان عبقريًّا.. كان يعرف تمامًا أهمية هذا القلم..

سمعنا صوت صدى خطوات تصعد السلم، نظرت «سيرا» حولها في خوف وقالت:

- نور الحمام..

قلت لها وأنا أضع العلبة الصدئة في جيبي:

- عارفة إيه تاني أحلى حاجة في المدارس؟

لم أنتظر إجابتها وأنا أقول مسرعًا وأطفئ نور الحمام:

- إن كل الأدوار لها صلحين..

[illegible]

[illegible]

لكنا ركضنا بسرعة أكبر..

لم يفهم أحد أن [illegible] في المدرسة [illegible]

[illegible] أن المدرسة في الليل فقط لنعثر على [illegible]

ركضنا الحوش كله مسرعين، وصلنا إلى السور [illegible]

التي لم تضيع الوقت وقفزت برشاقتها لتعلو السور [illegible]

[illegible] مرات كثيرة من صعوبة التسلق، لكني قفزته في النهاية وهبطت [illegible]

إلى الناحية الأخرى، ركضنا للعربة، وما إن دخلناها حتى انطلقت مسرعين.

خلفنا يركض رجل الأمن صائحًا، يسمع ضحكاتنا العالية من العربة

وهي تذهب مبتعدة عنه..

* * *

(٥)

الأمر الثاني

وراكل شباك ألف عين مفتوحين

وانا وانتي ماشيين يا غرامي الحزين

لو التصقنا نموت بضربة حجر

ولو افترقنا نموت متحسرين..

عجبي!

صلاح جاهين

- لقيت القلم؟

ز هـ «عيسى لصغير» مسائلا في أمل حقيقي

أومأت برأسي إيجابًا، شغل فضولي، فأخذت الفلاشة من «سيرا» فعـ،

عودتي، استحممت بسرعة، انتظرته حتى صعدت إلى السطح كي ترى

معي الفيديو الثاني، وضعت الفلاشة في التلفاز الحديد- الذي كان أكبر من

تعزي- وبدأت تسحيب الحدث على الهاتف كالمعتاد، ووقفت أمام لتعاز،

وجدت ملفًا مكتوبًا عليه «الأمر الثاني».. وملفًّا آخر مكتوبًا عليه اسمه..

«نسمة»..

فتحت الفيديو الأول لأجد «عيسى» يسأل سؤاله..

مددت يدي لأريه القلم، ضحكنا معًا، فهمت أنه كان يريد وقتها أن

يبدو الفيلم كأننا نُحدِّث بعضنا، أن هناك تفاعلًا ما؛ لذا ضحك هو ضحكة

مفتعلة، في حين ضحكتُ أنا ضحكة حقيقية من قلبي..

قال هو غامزًا بعينه:

- معنى كدا إن زخنوق «عيسى» هيفضل بتاعنا لحد ما نموت..

ثم رفع إصبعه وقال:

- طبعًا هتسألني كان إيه اللي هيحصل لو المكان تحدد أو قفلوا الزخنوق

أو عوامل التعرية حصلت، ساعتها هاقولك: عشان أنا عبقري حاجة زي

كدا ماتفوتش عليا، فيه نسخة تانية مع «سيرا».. كانوا آخر قلمين محتفظ

بيهم.. و«سيرا» ما كانتش هاتديك القلم إلا لما كنت تروح المدرسة برضه..

ابتسمت في هدوء، شعرت بالغيظ من «سيرا» قليلًا، قالت «سمر» في خجل:

ـ بس أخد رسايلك منه عشان هو صاحبي

نظرت إليها بدهشة، قالت معتذرة:

ـ والله غصب عني..

قلت بابتسامة مهوّنة:

ـ يا بنتي إيه الهبل دا؟! كفاية كل اللي بتعمله أصلًا

لهذا سمعت شهقتها عندما رأت «سيرا» الكيس البلاستيكي، كان طوق نجاة للمشروع كله بالنسبة لها..

اعتدل «عيسى» في جلسته، بدأ يتحدَّث وهو يشير بيده كثيرًا، فعرفت أنه سيكون جادًّا في كلامه القادم:

ـ القلم فيه كتير قوي مننا.. كان أول حاجة قريبة قوي كدا وتروح مننا.. أول خسارة اللي بعدها جت الخساير كلها.. بس دا مش موضوعنا.. الأمر التاني اللي لازم تعمله إنك تكلم الشخص اللي اتربط بالقلم دا.. هاتدوَّر على «نسمة» وتكلمها.. عشان تسجل معاها الإنترفيو..

عقدت حاجبيَّ في حيرة، كيف سأصل إلى «نسمة» الآن؟

أكمل «عيسى» بهدوء وهو يبتسم:

ـ عارف إن الموضوع صعب.. بس لو هي ما رضيتش تصوَّر عشان أي سبب.. اسألها سؤال واحد بس..

ومال على الشاشة أكثر لينظر إليَّ بعينيه الحانيتين اللتين تخترقان كل الحواجز:

ـ أنا كنت عامل ازاي في عينيها؟

واعتدل ثانيةً وابتسم، ولوَّح لي بيده مودِّعًا، لتظلم الشاشة كلها.. تاركًا إياي في حيرة كما يفعل دائمًا..

* * *

لاحظت أنني لم أرك [illegible]

[illegible]

فسألتها وأنا أضيق عيني:

- فيه إيه؟

قالت بضجر وهي ترفع شعرًا منسدلًا على [illegible]ها

- مابحبش أتكلم عن نفسي كتير.

ثم قالت بابتسامة:

- بس هي لسَّه عندي على «فيسبوك»..

ابتسمت في ارتياح، نسيت تمامًا أن الحل الأسهل دائمًا هو «فيسبوك»

تذكرت كل حساباتي المسروقة فنفضت الفكرة بسرعة حتى لا يضيق صدري

وقلت لها:

- انتِ بقالك قد إيه بتحضَّري للموضوع دا؟

رفعت رأسها للسقف كأنها تتذكَّر، قالت بابتسامة:

- يعني من سنة سنتين كدا.. بعد انفصالي على طول..

لتجبرني إجابتها أن أنسى كل شيء عن «نسمة» وعن «عيسى الصغير»..

«سيرا» مطلقة؟!

أدركتُ أنني في قمة الأنانية.. كيف لم أسألها حتى الآن عن أي شيء عنها؟! كل ما أعرفه عنها يخص «سيرا» صديقة المدرسة.. لكن مستقبلها لا أعرف عنه سوى أنها ممثلة مشهورة ناجحة..

قلت معتذرًا:

- أنا زبالة قوي.. أنا ما سألتكيش عن أي حاجة عنك.. انتِ اتطلقتي؟

لم أكُن أعرف أنها تزوجت في الأساس، أومأت «سيرا» برأسها إيجابًا.

قالت بنبرة هادئة:

ـ فكك، أصلًا أنا مش حابه أتكلم عن حاجة تنكد في المود الحلو دا. أنا رجعت هنا عشانك وعشان منير وعلا.. مش عشان حد.. عمي في كلام مش هيقدّم ولا يأخر..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٩ - «تخرج منها واهنًا غير قادر على الحكي للآخرين. يصيبك الخرس خلال العلاقة وتلازمك اللعثمة بعد انتهائها.. كثرة التفاصيل المرهقة التي استنفدتك، تجعلك غير قادر على الكلام.. هناك يقين داخلك أنه لن يفهم أحد مقدار التشوه. فتصمت وتحاول أن تبقى وتستمر وتستجمع روحك ثانية»..

ابتسمت ناظرًا إليها، فاهمًا ما تقوله، لتخبط هي بيدها على قدمها، وتقول مغيرة للموضوع:

ـ المهم دلوقتي.. هنعملك أكونت جديد.. وتخش تكلمها منه

وأكملت شارحة:

ـ أصل أنا كنت عارفة حل الكنز التاني.. بس التالت هاموت وأعرفه..

حسنًا..

لأنفِّذ الأمر الثاني حتى أستطيع أن أكمل تلك الرحلة..

* * *

لم أكُن أرغب في أن أنشئ حسابًا جديدًا على مواقع التواصل الاجتماعي، ربما لأملٍ داخلي أن «أسماء» ستستعيد عقلها وتعيد كل الحسابات، هي عصبية لكنها طيبة وحنون، أو هذا ما كنت أعرفه عمَّن كانت زوجتي.. الكائن العاضب الذي يدمّر كل ذكرى جيدة بيننا الآن لا أعرف عنه شيئًا..

الخطوة الثامنة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تنسى ما أظهروه من مميزات في شخصياتهم.. وتبدأ تذكُّر مميزاتك التي تم محوها في أثناء العلاقة.

تولت «سيرا» الأمر، أرسلت رسالة لـ«نسمة» على تطبيق الفيسبوك، تخبرها بالأمر كله، أن «عيسى الشواف» يريد أن يحدثها قليلًا، رحّبت «نسمة» بشدة. عندما أخبرتها «سيرا» أننا ننفّذ هذا المشروع القديم بالفعل، ضحكت «نسمة» بشدة، وقالت ما جعل قلبي يحلق في إحساس لم أفهمه كتبتْ:

- والله واحشني جنانه..

ابتسمتُ في تعجب عندما قالت ذلك بأريحية، تبدلت أرقام الهاتف وأخبرتها «سيرا» عن ميعاد مناسب للاتصال، لتكتب أن أتصل الآن.. تعجبت للحظة من سرعة استجاباتها، أخبرتها «سيرا» أن المكالمة ستكون مسجلة لوضعها في الفيلم التسجيلي، فلم تمانع «نسمة»..

خفق قلبي في خوف لم أفهمه، توقعتُ أن يكون الأمر أصعب من هذا قليلًا، ثم إنها «نسمة»، أول علاقة حب في حياتي بأكملها.. أول شعور جارف يجتاحني.. أول بطلة من لحم ودم تحتل خيالي وأحلم بها. أول كل شيء في قلب بريء يفيض بالمشاعر..

كل ما عرفته عن «نسمة» أنها تزوجت وأنجبت طفلين، هذا كل ما أعرفه..

شعرت بالتوتر وأن الهاتف المحمول ثقيل في يدي قليلًا، لكنني خرجت للسطح وطلبت الرقم، كان تطبيق تسجيل المكالمات يعمل تلقائيًا عند أي اتصال، ضرب الهواء وجهي فشعرت برجفة تجتاحني

صوت الجرس..

أغمضت عيني..

نفس عميق.. ثم زفير يعيد كل الذكريات العاشقة.

- «شواااااااف»!

سمعت صوتها الفرح يرد على المكالمة، منذ زمن بعيد لم يتغير، كانت «نسمة» هي الوحيدة في حياتي التي تشعر بضحكتها في صوتها وهي

تحدث، ابتسمت في سعادة حقيقية، قالت:

- انت مختفي فين يابني؟ عامل إيه؟

سمعت ونظرت إلى الأرض، مشاعر متضاربة ضربت قلبي [illegible]

و[illegible] وبين أنني أحدث شخصًا عرف عني [illegible]

قلت بصوت خافت، يرتجف

- عايش

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٠ «بعد فترة لن تجد أي رد مناسب على سؤال (كيف حالك؟) إلا أنك ما زلت تتنفس. لأنك بالفعل لم تعد تعرف أكثر من هذا عن نفسك».

بعد لحظات صمت، ردي المقتضب جعلها تصمت متسائلة؛ لذا قلت وأنا أمشي ببطء على السطح:

- أنا عارف إن فيه سنين كتير قوي عدت.. وأكيد ناسياني.. بس لازم أسألك سؤال، «عيسى الصغير» قالي إني أسأله..

ضحكت بشدة، ما زالت ضحكتها تطرب قلبي، ضحكة مرحة واثقة، قالت:

- مين «عيسى الصغير» دا؟! ما انت «عيسى» يابني ماتلخبطش..

ضحكت تلك الضحكة التي تخرج في شكل تنهيدة قصيرة، قلت مقاومًا أن يبدو على صوتي الحزن:

- الدنيا مش سهلة قوي كدا..

شعرت هي بالجدية في صوتي، خرج صوتي متحشرجًا، تحولت نبرتها إلى الجدية وهي تقول:

- بس انت عمرك ما تتنسي..

أشعلت سيجارة وأنا أنظر لكل ما حولي بعين شاردة، لا أدري ما تلك الحالة من الشجن التي اجتاحتني، إحساس بالألفة، أمي أخيرًا أحدث

شخص يعرفني جيدًا، [illegible]

الخوف، قلت بصوت تائه:

- طب لو مافيهاش رخامة تقدري تقوليلي أنا كنت هامل ازاي؟

[illegible] كنت هامل ازاي؟ [illegible] هذا الذي أقوله؟ كيف أتعامل بهذا الأسلوب [illegible] الذي يفتقر إلى أبسط قواعد الذوق والأدب؟

وكيف تهت عن كل شيء في لحظة [illegible] كهذه؟

قالت «نسمة» بجدية:

- مش فاهمه!

نظرت حولي ثانية، سمعت صراخ «أسماء» في أذني..

انفتح باب كنت قد أغلقته تمامًا ولا أريد أن أفتحه..

* * *

- انت أوسخ راجل عرفته في حياتي..

قالتها «أسماء» صارخةً، ناظرةً إليَّ بعينين تريدان أن تقتلاني، وأكملت باكيةً فجأة:

- انت بتوجعني ببرودك دا..

لتركض ناحيتي وتحتضنني..

فأحتضنها مهوِّنًا، بعينين مشتتين على الضمادة التي لفَّتها حول رسغها..

ضمادة تخفي جرح انتحارها الذي فشل منذ أسبوعين فقط..

* * *

قلتُ لـ«نسمة» وأنا أكاد أكسر الهاتف من قوة ضغطي عليه:

- أنا بعدك عشت عادي.. حبيت واتحبيت ووجعت واتوجعت.. اتجوزت وطلقت.. كل دا خد مني كتير.. طاقة مستهلكة غيَّرت في روحي بطريقة

سخمة.. أنا نسيت أنا كنت عامل ازاي

ثم أكملتُ كطفل تائه

ـ أنا مش فاكرني خالص يا «نسمة»

• • •

قالت «أسماء» يومًا ما:

ـ أنا مش مستحمله .. أن كنت قذرة قبل ما أعرفك .. أنا نفسي في ده

شعة .. أن عمري ما كنت كدا .. أن حسيت بي قرفانة من نفسي

عندما يخبرك حد بيتكلم معك ويشاركك كل لحظة في حياتك أنك

أنك رجل قذر، رغمًا عنك تصدقه..

لذا فقد ابتسمت لخطفه وقلت شعيت كل ما يتعلق به أعرفه عن نفسي

ـ أنا مصدقك. أعمل إيه عشان حياتنا تبقى أحسن؟ أنا ممكن أعمل إيه؟

لترد باكية ردها القاتل:

ـ بعد إيه؟ مافيش فيدة.. عمرك ما هتتغير.. انت مافرقتش حاجة عن

جوزي الأولاني...

* * *

هبطت دمعة من عيني، أريد أن أهرب من ذكرياتي اللعينة. قلت لـ«نسمة»

وأنا أعرف أنها لا تشعر بكل ما يحدث داخلي:

ـ انتِ أول حد عرف يحبني بجد.. فكَّريني البني آدم اللي حبك دا كان

عامل ازاي.. يمكن أعرفني تاني..

ليجيبني صمتها. سحبت أنا نفسًا طويلًا من السيجارة وخرج من شفتيَّ

مهزوزًا، رقص الدخان المتهالك كروحي أمام عيني رقصة مرتبكة تائهة،

لأسمع صوت نحنحتها، وهي تقول بصوت حنون:

ـ بص.. انت أكتر واحد في الدنيا فهمني.. لحد دلوقتي مافيش حد

فهمني زيك.. لما كانت الدنيا بتبهدلني بلاقيني بجري عليك وعارفة إنك

[illegible] أكثر حد
حولي أكثر من نفسي.
ثم ضحكتُ مكملة:
- كان عندك قوة إقناع رهيبة، وحلم مصاحبه، تحب كل اللي حواليك مصدقينه
صمتُ تمامًا، هذا ما كانت تقوله «أسماء»، هذا ما كان يقوله كل من أحبه وأحببته يومًا، لكنها لم تفهم السؤال الذي نحت عقلي في كل مرة يقتل قلبي من ألم فراقهم..
ما الذي يتغير عندما يقتربون بشدة؟
ما الشيء البشع داخلي الذي يجعلهم عندما يرونه يركضون بعيدًا داهسين قلبي في الطريق؟
قالت «نسمة» بصوت متسائل
- سكت ليه؟
لن يفهم أحد..
قلت محاولًا أن أعيد مشاعري خلف الباب لأغلقه تمامًا:
- مافيش.. أي حاجة فاكراها عني تانية؟
قالت بصوتها الهادئ الذي يغريني أن أحكي، وأنا لا أريد هذا..
- بصراحة لأ.. انت بتتكلم في ١٨ سنة..
- طيب.. تمام..
قلتها في هدوء، لقد أكثرت في الحديث و«عيسى الصغير» كان يريدني أن أسأل سؤالًا واحدًا فقط، أنا الذي طمعت في أكثر من هذا، وكأنما شعرَتْ «نسمة» بإحباطي، سألَتْ في نبرة مَن يعلم ما بداخلي:
- الإجابة ماعجبتكش؟

* * *

قلت لـ«أسماء» بعصبية:

ـ انتِ مش مبسوطة معايا.. أنا مش بعمل فيك حاجة عدلة.. تلات سنين متجوزين وحياتك ما بتقدمش خطوة.. وبتلومي فشلك عليا من ساعة ما جمعنا بيت..

آخر شجار بيننا قبل الطلاق..

كجثة هامدة، رقدت «أسماء» بجانبي تنظر إلى السقف بلا مبالاة.. غرفة نومنا كانت مظلمة كالمعتاد.. على فراشنا الواسع رقدنا.. ضوء خفيف يتسرب من شباك نافذة مكسور.. لا يسمح بمرور ضوء الفجر، وكذلك لا يعتم الغرفة بالقدر المطلوب..

كحياتنا تمامًا..

ظلت كما هي، فقط تحرك بؤبؤ عينيها البارد لينظر إليَّ نظرة جانبية باردة، لأكمل:

ـ انتِ عمرك ما حبيتيني.. بس بتحبي فكرة إنك جنبي.. متعلقة بيا زي أي مدمن بيستقتل إنه يكمّل في إدمانه وهو بيموت.. أنا حاسس إني محبوس في الدنيا بتاعتك ومش عارف أتنفّس..

ـ ماتقلقش..

قالتها ببرودها العجيب.. شعرتُ بيدها الرفيعة تربت على ظهري فأردت أن أبتعد عن لمستها لكني لم أستطِع.. اشمئزاز غريب سرى في جسدي.. كيف أتقبّل لمستها وأنا أشعر أنها ذلك السجان الذي حكم على روحي بالموت البطيء؟

اعتدلت «أسماء» من رقدتها الميتة ووضعت رأسها على كتفي.. أردتُ أن أخبرها أن تبتعد.. أن تتركني.. لكني منعت نفسي.. في النهاية أنا من لبست ثوب الحبيب المنقذ والزوج المسؤول والأب الحنون.. في النهاية، لا بُدَّ أن أحتملها مهما حدث.. هكذا وعدت ولا بُدَّ أن أَفِيَ..

هكذا [illegible] وهكذا سحبت عملي في [illegible]

قالت وهي تحدق في اللاشيء:

- إحنا كويسين يا «عيسى» أنا ماليش غيرك وانت مالكش غيري

وعمري ما هاسيبك أبدًا..

كنت تلك حيلتي الدائمة لأطمئنها

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١١ «يتقمص الشريك السام شخصيتك تمامًا في كلامك ومراحك ووعودك وقناعاتك وفلسفتك ينحي شخصيته الحقيقية جانبًا ويأخذ منك حتى تملأ عقلك فكرة أنكما خُلقتما لبعضكما.. ثم تظهر الحقيقة بالتدريج عندما تكتشف أنه جرَّدك من أهم صفاتك وانتقدها حتى تغيَّرت داخلك. وزيَّن بها نفسه للإيقاع بضحايا آخرين»..

نظرتُ إليها باستنكار..

هل كانت تسمع شخصًا آخر؟ هل هذا كل ما فهمته من كلامي؟ أردت أن أنهض وأصفعها على وجهها كي تستيقظ وتسمعني لمرة واحدة في حياتها.. أن تكفَّ عن سماع عقلها وتسمعني أنا..

لكني لا أستطيع..

شعرت بشيء ما ينسحب من جسدي ببطء.. ثم يموت داخلي..

الأمل..

الأمل في أن يسمعك ويفهمك من أمَّنته على قلبك..

هدأت شهقاتي.. تبدلت نظرتي الخائفة الباكية إلى نظرة ميتة..

كنظرتها..

سكن جسدي تمامًا كأنها عندما حضنتني نقلت في عدوى موتها القاتل.

مال رأسي يمينًا [illegible]
ستؤدي إلى إعدامي
ـ بحبك

* * *

أغمضتُ عيني.
نفس عميق.. ثم زفير بصمت صراخ قلب سالم
قلت لـ«نسمة» من دون أن أفكر فيما أقول لأول مرة في حياتي:
ـ لا والله مش كدا.. بس أنا اتعودت أصلًا على الموضوع دا.. الناس مش بتحب تفهم حد تعب عشان يفهمها.. ما بيصدقوا يلاقوه.. بيفرحوا بيه ويحبوه ويعشقوه عشان بس فهمهم كإنه عمل إنجاز ابن كلب.. ليه بقى يتعبوا نفسهم أكتر ويركزوا في تفاصيله؟ ليه يحاولوا يفهموا أكتر؟
سألتْ «نسمة» بنبرة هادئة تُخرج الكلام من لساني:
ـ وانت عاوزهم يفهموا إيه؟
قلت بغضب فاجأني شخصيًّا:
ـ يفهموه..
ثم صمتُّ لحظات، وأكملتُ بغضب:
ـ يفهموا إنه بيتعب قوي كدا عشان نفسه حد يفهمه.. حد ياخد باله من وجعه.. من تفاصيله اللي نفسه يصرخ بيها بس مش قادر.. بيكتم اللي جواه عشان حاسس بيهم وبيصبَّر نفسه بكلمة همَّ كويسين ودا كفاية..
نظرت حولي لحظات، التفتُّ خلفي لأجد «سيرا» تنظر إليَّ في حزن، أدركت أن صوتي قد ارتفع، شعرت بتلك القدم العملاقة تدهس كل ما بداخلي وتكتمه فجأة، قلت معتذرًا:
ـ أنا آسف..

قالت أسماء بصوت رقيق:

[illegible]

قلت باهمال تتلت في كتابه،

[illegible]

[illegible]

أشعلت سيجارة أخرى

نفس عميق

ثم رآه يخرج من دون جدوى.

* * *

(٦)

وثالث الكنوز

يا دايق الكون بالحساب والقدر

وناشي ماشي بالاختيار والحذر

كل اللي حيلتي رمية أمل

وإزاي تكفيني لباب القمر؟

عجبي!

صلاح جاهين

لم تضيّع «سيرا» الوقت..

استيقظتُ في اليوم التالي لأجدها في الصالة وقد حضرت كل شيء، ممسكةً في يدها الظرف الثاني..

لم أعتَد المكان الجديد بعدُ، لم أنم جيدًا؛ لذا فقد احتل الصداع عقلي ودلدل أقدامه على عيني في أريحية، «سيرا» كانت بالذكاء الكافي كي لا تفتح معي أي موضوع له علاقة بمكالمة البارحة، كل ما قالته وهي ترتب الوسائد الصغيرة على الكنبة الوثيرة:

- «نسمة» مش هتعرف تعمل الإنترفيو.. عشان جوزها وولادها وكدا.. بتسلّم عليك وبتقولك إنها فرحت بالمكالمة جدًّا..

هززت رأسي مُستقبلًا المعلومات، إذًا فقد تحدثنا معًا في الهاتف بعدما أنهيتُ المكالمة، أكملت «سيرا» وهي تقف ناظرة إليَّ:

- بتقولك برضه لو هتعمل المكالمة في الفيلم، يبقى غيّر اسمها..

احترمت خوفها على مشاعر زوجها، لكنها حمقاء، صوتها هو أكثر صوت مميز في التاريخ، سيعرفها الجميع من تسجيل المكالمة فقط لو نجح الفيلم الوثائقي، لم أبالِ كثيرًا، في النهاية دور «نسمة» انتهى تمامًا، أمر «عيسى الصغير» كان أن أكلمه وأسأله السؤال وأحصل على الإجابة..

نقطة ومن أول السطر..

أمسكتني «سيرا» من يدي وأجلستني على الكنبة. أعطتني الظرف الثاني. كان مكتوبًا عليه «الكنز الثالث»، لم أسأله وقد نصبت أمامهم حامل الكاميرا يسجِّل ما يحدث..

وتحت الصرف لأحد بطاقة معايدة أخرى، فداك أو أجمل من العصور

_ «(عيسى) الكبير..

أظن أن هذا هو أحلى عيد ميلاد لك في حياتك.. أنا وأنت نعشق أعياد الميلاد ولا نخبر أحدًا بهذا أبدًا.. أنا وأنت نحلم بذلك الشخص الذي يحاول أن يحتفل بعيد ميلادنا بطريقة مميزة.. لا يهم قيمة الهدية.. لكن ما يهم هو أن يفهم تفاصيلنا ويعرف ما نحبه.. لكنني لا أعتقد أننا سنجده.. سنظل ندور في دائرة أناس لا يهتمون بأعياد الميلاد أو يظنون أنه هدية تساوي كثيرًا من النقود وانتهى الأمر»..

كنت بالفعل أومن بهذا لوقت طويل، بل كل هدية أتتني عليها بصمة صاحبها أو فيها من علاقتي كنت أحتفظ بها، احتفل عيد الميلاد لا بدّ أن يكون فيه شيء واحد إنساني مميز؛ لذا كنت أومن دائمًا ببطاقات المعايدة ورسائل التهنئة التي تُكتب من القلب، وليست تلك الديباجة السخيفة المعتادة، وأعتبرها الهدية الحقيقية لصادقه وسط كل الهدايا، الكلمات الرقيقة هي التي ستظل معك حتى النهاية..

حتى عرفت «أسماء»..

كرهت أعياد ميلادي وميلادها وأعياد ميلاد العالم أجمع..

كل مناسبة انتحار يحرق الطاقة الداخلية للاستمرار..

الخطوة الناسعة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب. امحُ خوفك من أن تعيش اللحظات السعيدة بكامل طاقتك، لقد ذهبوا للأبد، لن يستطيعوا أن يسلبوها منك الآن..

أكملت قراءة مبتسمًا..

_ «المهم، أردت أن أخبرك أن نعود ونهادي الناس بطريقتنا، لا تستسلم ونحتفل مثلهم بـ(نورتة) ودائرة من المقربين حول المائدة، احتفل بهم بطريقتنا أنا وأنت، وابذل المجهود الكافي ليجعلهم يبتسمون ويتذكرون دائمًا أحلى ما

مهم.. هديتي لك في عامك السادس والثلاثين هو لعبة الكنوز بكل المجهود المبذول فيها.. فكّر من الآن في الهدية التي ستهديها لنفسك العام المقبل.. هذا ليس أمرًا.. ولكن طلب.. لا تخذلني فيه.. وتذكر دائمًا.."

عقدت حاجبيّ في آخر جملة؛ لأنه وضع نقاطًا لتخفيها في الجهة الأخرى من البطاقة، تحت عنوان «اللغز الثاني»..

اضطررت أن أقرأ بصوت عالٍ مفندًا قواعد اللعبة

- «اللغز الثاني..

. وتذكَّر دائمًا . أن احتفال الميلاد أفضل بكثير من ذكرى يوم الممات في نهاية اللغز الثاني والكنز الثالث أقول- هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك،

إذمًا يتذكر.. يجدني.»

عقدت «سيرا» حاجبها، فغمزتُ لها قائلًا:

- بيصيع في اللغز وكدا..

ضحكت «سيرا»، فأكملتُ قراءة:

- «بص يا (عيسى).. عمك وعمي صلاح جاهين قال: (كل اللي حيلتي زمزمية أمل.. وازاي تكفيني لباب القبر؟).. أنا وانت بنكره الموت.. كل الناس بتقولك إننا لازم نحبه وإنه سُنَّة الحياة . بس إحنا مابنحبوش.. عشان كدا بنبعد عنه وعن كل حاجة بتفكَّرنا بيه.. بس انت بتبدأ دلوقتي كل حاجة من تاني.. وعشان تبدأ حياة جديدة لازم تشوف الموت بعينيك»..

حسنًا، جملة مفتعلة تمامًا، يريد أن يوصِّل بها رسالة واضحة، قلت لـ«سيرا» مبتسمًا:

- كنت متأثر قوي بصلاح جاهين..

قالت وهي تجلس جانبي، بعد زفرة طويلة:

- يووه.. كنت قارفنا بيه..

قلت لها وأنا أتذكر:

- كنت مقتنع إني شبهه جدًا؛ لأنه بيقول اللي جوايا بخلاصة الحدث اللي متغلّف بطفولة واستهزاء بكل حاجة حواليه، مفيش أحد دمه خفيف زي اللي باشوفه ونفسي أقوله..

وضحكتُ ساخرًا وأنا أكمل:

- وبعدها كتشفت لما كبرت إنه عشان عبقري كان بيلمس الناس كلها..

قالت «سيرا» متسائلة وهي تنظر إليّ:

- عرفت الحل؟

أومأت برأسي إيجابًا، وابتسمتُ قائلًا وأنا أشير إلى فقرة معينة في البطاقة:

- القصيدة دي فضلت تضرب في دماغي في يوم معين من عمري مش هانساه..

نظرتْ إليّ متسائلة، في حين شعرت أنا بكل المشاعر المتصارعة التي تجاهلتها حتى يومنا هذا:

- يوم وفاة جدتي الله يرحمها..

بدا على «سيرا» التأثر، فأكملتُ مبتسمًا وأنا أشعر بخفقات قلبي المضطربة، لما سأضطر أن أفعله الآن:

- «عيسى» عاوزنا نروح نزور قبرها.

لتعقد «سيرا» حاجبيها ويبدو عليها القلق. قالت وهي تضع يدها على صدرها:

- أنا قلبي انقبض..

هززت رأسي بلا مبالاة، نظرت إليّ وقالت هامسة:

- أقولها بحماس ازاي في الفيديو دي؟

اقتربت منها وهمست وأنا أقلّد أداءها الحماسي المنفعل وأشيح بيدي:

- اقفي قدام الموبايل وقولي: «هاروووووووووح قبر جدتي»..

[illegible]

الهاتف وفعلت تمامًا ما قلت

لأتأملها متشنجًا وأنا أهز رأسي بمعنى «مافيش فايدة».

* * *

ـ اشمعنى؟

قالتها أمي بتوتر وهي تنظر إليّ، [illegible]
بالرسائل؛ لذا فوجئنا عندما وجداني أدخل [illegible]
يدي وقلت لأمي بهدوء:

ـ عاوز مفتاح المقابر بتاعتنا..

لترد عليّ بسؤالها المنطقي، لا أدري لماذا لكني أردت إنهاء وجودي هنا في هذا المكان بأقصى سرعة؛ لذا فقدت نفاد صبري:

ـ عاوز أروح أقرا الفاتحة على تيتة وجدو..

قال أبي وهو ينظر إلى جهاز «الآي باد» الخاص به ولا ينظر إلي، يلعب لعبة ما تخدعه بطم تفكيره الدائم في كل شيء:

ـ ما تقرا الفاتحة من برّه.. إيه اللي يخليك عاوز تدخل يعني؟!

كلام منطقي مفحم، قالت أمي بخوفها وتوترها الدائمين:

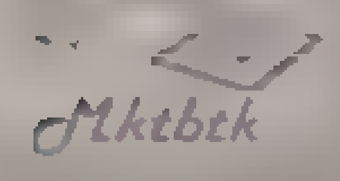
ـ انت بتفكر في الموت يا «عيسى»؟ اوعى تبقى أهبل وتفكّر تنتحر وشغل العيال بتوع جيلك دول..

لم أرد وإن ظهر على وجهي نفاد الصبر، قالت بقلق:

ـ طب تاخد أختك معاك؟

قلت وقد أدركت أن بعض الصراحة لا بأس بها:

ـ من ساعة ما ماتت تيتة وأنا عمري ما روحتلها.. عاوز أزورها أقرالها الفاتحة وأطمّن على المكان..



وأكملت وأنا أعرف رد الفعل

- وكمان هابدأ أصوّر فيلم كدا..

لتشهق أمي وتقول بغضب:

- انت في إيه ولا في إيه؟ [illegible]

والمصيبة اللي مستنياك [illegible]

[illegible] لا أريد أن أفتح موضوع «أسماء» [illegible]

وكل المكتوب في الرسائل الآن، [illegible]

لا أنصرف:

- معلش.. حاجة لازم أعملها..

همّت أمي بالاعتراض، لكن أبي رفع عينيه من على «الآي باد» وقال بلهجة حاسمة:

- مافيش مشكلة يابني..

ثم نظر لأمي، وأشار إلى غرفة نومهما باللهجة القاطعة نفسها:

- طلّعيله المفاتيح..

نظرت إليه أمي معترضة، لكن مرّ ما بينهما من العمر ليجعلها تدرك أن لا أهمية لاعتراضها الآن، ما دام أبي قد قرر، سينفذ الأمر.. نهضت متثاقلة وهي تستند إلى كل شيء في الطريق.. تجاهلت علامات كبر السن التي بدأت تظهر عليهما.. حدثتهما كثيرًا عن كل الأشياء التي لا بُدَّ أن يفعلاها حتى يستردا طاقتهما.. لكنهما تجاهلا الحديث ولديهما قناعة واحدة: «نحن في آخر أيامنا.. لننتظر النهاية في رضا»..

وأنا أكره هذا المنطق بشدة..

أتتني أمي بالمفتاح، أخذته منها على عجل وابتسمت.. قلت بقلق:

- أنا مش عارفة إيه اللي بيحصلنا دا بس.. هاستناك ترجعهولي النهرده..

* * *

ذلك وأنا أمثل رأسها موافقة

- إن شاء الله.. سلام

[illegible]

• • •

[illegible]

أعرفها في حياتي.

فتحت باب [illegible] المعدني الكبير بالمفتاح. [illegible] «سيرا» [illegible]

ارتديت [illegible] أسود اللون، عندما سألتها: «لماذا؟»، هزت كتفيها [illegible]

هذا هو الزي الرسمي [illegible] في عقيدتها..

نظرت إلى السلم الرخامي البسيط الذي يقود إلى الحوش، وهناك ظلام

شديد في أعماقه..

نظرت إلى «سيرا» في قلق بسيط، لتبتسم مشجعة..

فتحت «فلاش» الإضاءة في هاتفي المحمول، وهبطت السلم الرخامي

القصير في بطء..

* * *

- «حج حجيجة بيت الله..

والكعبة ورسول الله»..

نظرت إليها بانبهار طفل ساذج

كانت تضغط على قدميها القوية التي دارت عليهما بثبات ملكة أمام ستة أفراد بإخلاص، ضحكتُ وأنا أشعر بقوة هزة قدميها. لتنحني إليّ بحنان وتحملني بيديها اللتين حمت بهما أولادها من قسوة الدنيا وتقول ناظرة إلى عيني مباشرة:

- أيوه كدا، اضحك وماتهمكش حاجة..

ضحكت وأنا أنظر إليها وهي تحملني عاليًا، عيناها تضحكان بحنان على الرغم من قسوة التجاعيد حولهما، وابتسامة لا تظهر إلا قليلًا، قالت لي هامسة وهي تحتضنني:

- عارف يا «عيسى»! جدك كان نفسه يشوفك قوي..

كانت تحاول أن تشغلني قليلًا، كنت في السابعة من عمري، عندما انفجرتُ في البكاء وأبي وأمي قد ذهبا إلى مستشفى ما في ظرف طارئ لأحد الأقارب، لأجلس أنا وجدتي وحدنا. أصابني خوف مبهم فظللتُ أبكي، لتحاول هي أن تطمئنني على الرغم من كبر سنها..

أكملت كلامها وهي تجلس وتُجلسني على حجرها، بنبرة منبهرة كي تجعلني أنبهر مثلها بما أسمع:

- جدك «عبد الآخر» كان مدرس لغة عربية قد الدنيا، بس وهو لسَّه بيبدأ كان عنده طالب اسمه «عيسى».. كان ولد حلو زيك كدا ونبيه.. كل ما جدك يشرح له حاجة يسأله عن معناها.. ويقولّه: ليه؟ واشمعنى؟ ومين اللي حط القواعد دي؟

وصمتت لتأخذ نفسًا قصيرًا، وعيناي تنظران إليها بفضول. أكملت وهي تبتسم:

- جدك ساعتها زهق من أسئلته الكتير.. لحد ما جه في مرة قاله تعالى المكتب بعد الحصة.. ولمَّا الولد جاله جدك سأله..

وعقدت حاجبيها وغلظت من صوتها قليلًا، مقلّدة جدي

- أنا عارف إنك نبيه وبتفهم بسرعة.. ليه بتقعد تسأل أسئلة كتير وتعطل الحصص على زملائك؟

ثم غيّرت من أدائها لتقلّد التلميذ.

- الولد قاله: يا أستاذ «عبد الآخر»، أنا عندي مشكلة إني مش فاهم.. أنا دلوقتي في الثانوية ومش فاهم. ماحدش في المدرسين بيقولي «ليه».. كلهم بيقولولي «هي كده».. وأنا عاوز أعرف ليه.. ليه المبتدأ مرفوع بالضمة.. ليه كانّ بتنصب الخبر وبترفع المبتدأ.. بلاش في العربي يا أستادنا.. ليه كل حاجة بتتعمل أصلًا؟ بنولد ونموت ليه؟ بنحب ونكره ليه؟ كل حاجة ليه؟

جدك استغرب كلامه قوي.. جدك كان عارف طبعًا كل حاجه.. بس استغرب لأن دا أول ولد يسأله «ليه؟».. بقية الطلاب اللي علّمهم جدك طول عمره ماحدش فيهم كان بيسأل «ليه؟».. عشان كدا ضحك وبص للولد وقاله...

ثم قلّدت جدي بطريقتها المضحكه:

- انت هتعمل حاجة في دنيتك يا «عيسى». مش هتبقى زي الناس اللي حواليك.. خليك دايمًا بتسأل وكتّر من أسئلتك. يمكن تفهم اللي ماحدش فينا فاهمه..

وأكملت وهي تمسح بيدها على شعري:

- وفضل جدك يحكي عن «عيسى» اللي قال «ليه؟».. الولد اللي كان نفسه «يفهم».. ولما عرف إن مامتك حامل فيك، قالي هيطلع ولد، وهسميه «عيسى».. ومات بعدها بكام يوم..

وأكملت وهي تضع يدها على صدري:

- عشان كدا انت اسمك «عيسى».. ابن «محمد» ابني. أغلى الغاليين..

لأسمع القصة بانبهار وأنا أنظر إليها، ناسيًا أنني كنت أبكي منذ دقائق بسيطة..

ستكون هذه هي الذكرى الوحيدة لي [illegible] جدتي
قبل أن تأتيها هجمة المرض..

* * *

ارتعشت قدماي وتخدرتا وأنا أدخل الحوش، قرأت الفاتحة في سري ورائحة الموت تملأ أنفي وتكتم صدري، جلست «أسرار» على مقعد خشبي كبير للزوار، كان الحوش كما أتذكره تمامًا. شاهد كبير للرجال، وآخر بجواره بقليل للنساء، ثم دفن من مات في حجرة من الحجرات. مررت بشاهد جدتي وألقيت السلام.. ثم تجاوزتها لحجرة جدتي ووقفت أمامها..
وابتسمت..

* * *

نظر إليّ أبي بحنان، قال بصوت خافت:
- تعالى يا «عيسى».. جدتك عاوزاك..
كنت في السابعة عشرة، قبل عيد ميلادي بفترة قصيرة، أصابها المرض وكانت لا تستفيق منه إلا قليلًا، ذهبت مع أبي إلى غرفتها، تأملتها وهي جالسة على الفراش تنظر إليّ وتبتسم، قال أبي بحنان:
- ها يا تيتة.. فاكراه؟
لتفتح ذراعيها المرتخيتين بشدة وتقول بفرحة:
- طبعًا.. «عيسى» حبيب قلبي..
ركضتُ ناحيتها واحتضنتها، أصبحَتْ متعبة بشدة، لكن ما زالت يدها قوية وهي تحتضن، كأنها تمت برمجتها على حماية كل من في حضنها من أي إحساس سيئ..
جلستُ بجانبها، فوضعَتْ يدها على صدري، وقالت بصوت خافت ما كانت تقوله لجميع أولادها وأحفادها:

[illegible] القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم [illegible]
[illegible] ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

* * *

قلت وأنا أنظر إلى شاهد قبرها:
- ازيك يا تيتة..
هذه المرة كنت قد تحضرت لما سأفعل، ارتديت قفازًا أسود وشمّرت أكمامي، ذهبت إلى ركن جنب السور القصير، قلت وأنا أنحني جنب السور الحجري بالضبط:
- معلش بقى يا تيتة، أنا مش قصدي أزعجك.
وبدأت أحفر بيدي في الرمال المتكومة، متغلبًا على ضيق تنفُّسي الذي بدأ يزيد قليلًا:
- زمان كانوا بيقولولي إني ماورثتش حاجة منك..
حفرت حفرة صغيرة وأكملت حفرًا، أعلم أنني فيما مضى أخفيت شيئًا هنا، ثم قلت مُقرًّا وأنا أكمل حديثي معها، في تخيلي نظرتها الحنون:
- همَّ مش شايفين إني شبه حد أصلًا.. بس أنا عشان بحبك بقى يا ست الكل.. ورثت أهم حاجة..
لأجد أصبعي تلمس شيئًا معدنيًا صلبًا..
فأبتسم في انتصار..

* * *

وضعت يدها على صدري وأكملت الرقية:
- اللهم بارك فيه وكبده وكليتيه وأحب الناس إليه.. فارجع البصر هل ترى من فتور.. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير..

* * *

ارتطمت يدي بالعلبة المعدنية الثانية.. في ذلك الوقت، وقت «عيسى الصغير» - تم إصدار هذه العلب على أنها أكثر مكان آمن يمكن أن تحتفظ فيه بالأشياء فترة طويلة. وقت تحضري لهذا المشروع اشتريت سبعًا منها.

لقد بدأت أتذكر رويدًا مما كنت أفعل

هذا جيد..

أكملت حديثي البسيط معها، وأن أخرج العلبة مبتسمًا في انتصار:

- ورثت عنك الحاجة اللي بعدتك عنا.

فتحت العلبة، كانت علبه صحمة مستطيلة ككنز حقيقي، هذه المرة لم أعبأ بالتراب والعتبة التي صدئ سطحها، فتحت العتبة في سهولة لأجد داخلها ما كنت أنتظره..

نظرت إلى ملف التحليل، ذلك الملف الذي أثبت بالدليل القاطع أن كل المخاوف كانت حقيقية..

أنني مصاب بمرض لا شفاء منه..

فتحت الملف، كلام كثير بالإنجليزية، لكني وجدت رسالة «عيسى الصغير»، مكتوبة بحبر قلمنا المفضل الذي يسكن يدي دائمًا الآن، بعرض الورقة كلها:

- «المعاد المتوقَّع من أول ٣٨ سنة لحد ٥٥ سنة»..

تذكرتُ فجأة عندما أتى خبر موتها على البيت ليلتهم ما تبقَّى من قوة التحمل لدينا، وقتها كنا قد عرفنا بمرضي، وهناك هالة كئيبة اجتاحت البيت، بكاء أمي وصمت أبي، وحيرة أختي الكبيرة، وعدم إدراك من أخي الصغير..

تذكرت لحظتها أنني لم أحزن..

كنت سعيدًا لأنها ارتاحت من الجحيم الذي كانت فيه.

الجحيم الذي سأصبح أنا فيه..

وقتها قررتُ أن أدفن شيئًا ما مني هنا، في مكان دفنها؛ لذا أمسكت أول ملف تحليل أثبت بالدليل القاطع أن لديَّ المرض، وذهبت لأدفنها، وقتها

[illegible]

[illegible]

وأمسكت هاتفي وأنا أتنزه

نظرت إلى الملف، ثم رفعته وأنا أنظر تجاه ما أظنه هو، أنه كان مكان [illegible]

- ورثت مرضك

[illegible] امة واسمه وأنا أقول

[illegible]

[illegible]

ثم لا أدري [illegible]

[illegible]

لا أدري بعدها، ما الذي جعلني أفعل ذلك، [illegible] شاشة هاتفي

المحمول، كتبت رسالة مقتضبة لمديري في البنك

- أنا مش جاي الشغل تاني.. مفيش وقت لأي حاجة مابحبهاش.. ده إخطار رسمي باستقالتي..

الخطوة العاشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: تيقّنْ أن ما بداخلك من نور لن ينطفئ، قد يخبو قليلًا بفعل السم، لكن نورك لم يمت. سيضيء ثانيةً وتعود أفضل ممّا كنت.. فقط خذ براحتك من الوقت.

ابتسمتُ في راحة، نظرت ثانية إلى كل ما حولي، وضعت الملف تحت إبطي ولوّحت لها مودّعًا..

* * *

(٧)

الأمر الثالث

ياما صادفت صحاب وما صاحبتهمش
وكاسات خمور وشراب وما شربتهمش
أندم على الفرص اللي انا سبتهم
ولا على الفرص اللي ما سبتهمش؟
عجبي!

صلاح جاهين

لم نستطع أن نقاوم التعب، فما إن عُدنا إلى فيلا «سمر» حتى ودّعنا بعضنا وذهبنا لنغط في نوم عميق..

سألتني عن الملف فقلت لها إنني لا أريد أن أخبرها الآن، عبست قليلًا ثم تناست الأمر..

طيبة القلب كما كانت دائمًا..

استيقظت اليوم التالي على صوت الجرس المعتاد، لا أعرف شيئًا عن حياتها كممثلة، لكن واضح أنها من الشخصيات التي تعشق الصباح، تأتيني كل يوم مشرقة مبتهجة بنشاط غريب.. فتحت لها الباب متكاسلًا.. لتدفعني بيدها وتدخل قائلة:

- يلّا عندنا فيديو تتفرج عليه..

ووضعت الفلاشة الجديدة في التلفاز، ووضعت هاتفها على حامل الكاميرا كي يظل الكادر ثابتًا، لأول مرة ألاحظ أنه «iphone 11» ذو الكاميرات الثلاث. كنتُ أخشى من جودة التصوير لكني أدركت الآن أن كل شيء على ما يرام..

لم يؤثر فيّ أمر المرض، كما توقع «عيسى الصغير»؛ ربما لأني اعتدته طول الأعوام السابقة، أصبحت فكرته مستهلكة بالنسبة لي، أنا مريض، ما المشكلة؟ كل البشر مرضى بشكل أو بآخر.. فلأحمد الله أن علّتي جسدية وليست عقلية كمعظم من أعرف..

أو ربما أنا أكثرهم مرضًا في عقلي.. لا أدري.. ولا أريد أن أعرف!

أصبح معتادًا أن أرى على شاشة التلفاز ملفين: ملف بعنوان «أنا فخور

سك».. والأخر بعنوان «مسخوخ ابن الكئبة».. ضحكت عندما رأيت الاسم [illegible] عن أحد زملائي في [illegible] كتب ذلك المراهق ذا النظرة السوداوية في [illegible] أن أوجهه بفلسفتي [illegible] عن «مسخوخ ابن الكئيبة» وظل هذا الاسم يلازمني طول فترة الدراسة [illegible] ووقفت أنتظر حتى يتم عمله؛ ممسكا القلم في يدي.

هذه [illegible] «عيسى الصغير» جالس على [illegible] عليه الحزن، [illegible] بعدها لأجيبة كي [illegible] في البداية، ابتسمت وأنا [illegible] في حياته خلف عينيه الجرسين. بدأت أرى شبحي يطوف حوله.

أمسك «كشكول» كبيرا وجلس مربعاً قدميه، نظر إلى الكاميرا بحماس مفتعل وهو يقول:

ـ «اليمين الرملي» قال على لسان «عرفة الشواف»: «ساعات أشوف كل شيء بوضوح العطش والجوع، القسوة والرحمة، العدل والظلم، الحر والسقعة. وأشوف الشمس لما يسعني شعاعها، وأعرف إنها غابت لما غروبها يرمي لكَنة في صدري.. وساعات عقلي يلهمني. أعرف الشيء اللي قدامي واللي ورايا واللي جنبي. أعرف صاحبي من عدوي.. وألاقيهم يقولوا دا مفتّح وشايف، واحس بالزهو يملاني، لكن جوايا عارف حقيقتي.. بضبّش بإيديا وأعد الخطاوي برجليا»..

بدأ «عيسى الصغير» ينسى كآبته وهو يقرأ الكلام بصوت متأثِّر:

ـ وأتجنن.. أتجنن لما احس بيكم بتتحركوا من غير ما حاجة تحوشكم..

ونظر إليّ من خلال الكميرا، وقال من دون أن يقرأ جملتي التي كنت أعشقها:

ـ باتجنن من يقينكم..

نظرتُ إلى «سيرا» نظرة حانية، الجملة التي على حائط غرفة لموم؛ رفعت

حاجبها في ثقة بأنه لا أحد يعرف ما يقصده جيدًا. ابتسم «عيسى الصغير»

ابتسامة حزينة وهو يحمل

ـ ويقول إنش عرفتي إنكم ما بتعرفوش عني أو ممكن تكون احتمية

منكم. وأقول يمكن لو فتحت أشوف عبد اللي اسم شخصه. ومافاش منه

ثم ترك الكشكول، ونظر إلى مباشرة.

ـ صحابي دايمًا بيرنقوا على أسهاري بـ«عرقة الشواف».. ماحدش فيهم

يعرف السر..

قالت «سيرا» بفضول:

ـ أنا هاموت وأعرفه..

نظرت إلى الأرض في هدوء، في حين قال «عيسى الصغير» مكملًا كلامه:

ـ «عرقة الشواف» شاف الدنيا وهو أعمى.. شاف الدنيا بعين المرض..

عرف يعمل طريقة بتاعته، هي إنه يفهم الناس ويفهم كل حاجة حواليه.. أنا وانت برضه انكتب علينا نشوف الدنيا بعين المرض.. وعين المرض وحشة قوي يا «عيسى»..

نظرت إليَّ «سيرا» بقلق، وعندما نظرت إليها نظرة اعتذار زاد قلقها، ليكمل «عيسى» ما كان صعبًا عليَّ أن أقوله:

ـ أنا وانت عيانين بمرض مالوش علاج..

شهقت «سيرا» و«عيسى» يضحك ضحكة ساخرة مكملًا:

ـ إحنا من الناس المحظوظة اللي ربنا كتب علينا نعرف آخرنا قبل أوانه بكتير.. إحنا آه مش عارفين إمتى بالظبط.. بس عارفين ازاي وهنبقى تعبانين قد إيه..

لم يكُن أحدٌ يعلم على وجه الأرض سواي أنا وأهلي، لذا لم أفاجأ عندما حدَّقت «سيرا» في الشاشة بذهول ممزوج بالغضب، بدأت عيناها تدمعان وهي تقول:

- يعني إيه؟ مش فاهمة!

أمسك «عيسى» ملفًا كان ملقى على الفراش [illegible]

أحضرته [illegible] «عيسى» [illegible] الملف [illegible]

إلى ثانية وقال:

- الدكتور [illegible] من أول ٣٨ سنة لحد ٥٥ سنه

[illegible] هيجي على [illegible] إن [illegible]

نظرت إلى «سيرا» وقالت بصوت حاد:

- انت عندك إيه؟

كنت واثقًا بأن «عيسى الصغير» لن يقول ما المرض، كان يريد للعيبه أن يكون إنسانيًا أكثر من كونه عن المرض ذاته، تجاهلت حدة «سيرا» ناظرًا إلى التمار، ليكمل «عيسى» كلامه بنبرة قاسية قليلًا:

- عين المرض بتجيب آخر كل حاجة بسرعة قوي.. بتوضحلك إيه المهم وإيه اللي مش مهم خالص.. إيه اللي يستاهل تضيَّع فيه وقتك وإيه اللي مالوش لزمه.. إيه المشاعر اللي تستاهل تحسها والمشاعر اللي تستاها..

ثم زادت قسوته وهو يقول:

- عشان كدا أنا دي أكتر حاجة مزعلاني منك.. وقتك اللي ضيَّعته منّا..

ركلت كلمته صدري.. «الوقت الذي ضاع»..

أكثر شيء نأخذه كأمر مسلَّم به هو الوقت، الزمن، يمر بهدوء وسلاسة بين أصابعنا فنتركه يفلت في سذاحة، على الرغم من أنه أكثر القاتلين احترافًا لكل شيء داخلنا..

بل لوجودنا ذاته..

زفرتُ في حزن، لأجد زفرة «عيسى الصغير» في اللحظة نفسها، وهو ينظر إلى الملف ثانيةً على الفراش، ويكمل:

- الأمر التالت إنك تكلِّم حد انت اللي زعلان منه وتعرف تسامحه.. حتى

[illegible]

لو حد قابلته بعد وقتي دا [illegible]

[illegible]

نفصل شايلين من الناس كتير

ولوّح بيده مودعًا، وهو يقول مرة عملية

- بعد عشان لكن الرابع [illegible] انتهى الفيديو

صمتت [illegible] لم أكن مستعدًا لها الآن، نظرت

نحو «عيسى» إلى «سيرا» التي وقفت لا تدري ماذا تفعل، كنت أعرف أن

«عيسى» سيتحدث عن مرضنا، لكن [illegible] بداخلي [illegible] ذلك السر، وأردت

أن أخبر به أحدًا؛ لذا [illegible] أن تشاهد «سيرا» معي.

قالت بصوت يحاول أن يتماسك:

- فهّمني طب إيه اللي عندك عشان دماغي ماتروحش في حتت وحشه.

نظرت إليها بهدوء وابتسمت، قلت برجاء:

- ينفع ماتتكمش دلوقتي في الموضوع؟ هييجي وقت مناسب وأقولك فيه..

عيناها الدامعتان، جسدها المتخشب من التوتر، وقفتها الخائفة، ذلك

كله برز الغضب وهي تقول:

- لأ طبعًا.. أنا معاك في كل حاجة.. أنا المفروض أعرف عنك كل حاجة..

وأشارت إلى التلفاز، تقصد «عيسى» القديم، وهي تقول:

- يعني انت كنت عامل كل دا.. عشان عيان؟!

نظرت إليها، لا أستطيع أن أتحدَّث، ذلك الحاجز الرهيب داخلي يمنعني،

فتحت شفتيَّ لأردَّ عليها، لكن جرس هاتفي ضرب فجأة بصوت عالٍ،

نظرت إلى الهاتف لأرى ما جعلني أنسى كل ما يحدث، نظرت إلى «سيرا»

وقلت بتوتُّر:

- خال «أسماء»..

توترت «سيرا» أكثر، وارتجف الهاتف في يدي..

* * *

[illegible]

[illegible] إلى [illegible]

[illegible] الأ[illegible] على [illegible]

[illegible] أن [illegible] لا [illegible]

ـ كويس إنك رديت..

شيء ما في نبرة صوته [illegible] لا [illegible]

قلت بصوت ارتجف مني رغمًا عني:

ـ إزي حضرتك..

كيف أتحدث معه؟ لا أدري.. ثلاثة أعوام كان هذا الرجل في نظري له مقام من.. حب زوجي ووكيلها.. لكن الآن هو رجل غريب لا أعرف صلة تربطني به..

قال بنبرته الشامتة كمن رآني عاريًا:

ـ والله مش مبسوط يا «عيسى».. مش حاجة كويسة لما تعرف إن بنت أختك اتجوزت عيل..

ابتسمتُ في مرارة من تعليقه، الحيرة نفسها هي التي جعلتني لا أرد، هل هو رجل غريب عني يستحق أن أرد عليه بالإهانة نفسها، أم ذلك الرجل الذي أكلت في بيته يومًا وكنا أهلًا؟ قررت أن أتعامل في تلك المنطقة الرمادية حتى أعلم ما سبب المكالمة..

أغمضت عيني..

نفس عميق..

وزفير يضع قناع الأدب والاحترام اللازم..

قلت كي أتجاوز أي فقرة من الشماتة حضَّرها هو قبل أن يحدثني:

ـ خير؟ حضرتك عاوز إيه؟

ـ ولا حاجة والله..

كان تاجرًا محترفًا، لديه الذكاء الكافي للثأر، بدأ من الصفر ليتحوّل بعد زمن إلى تاجر محنّك ينظر إلى الدنيا كصفقة لا بدّ أن يستفيد منها، كانت لديه تلك الحصلة كأي تاجر محترف في قلب الحقائق، لديه ذلك الأداء المستهزئ بكل شيء كأنه لا يخاف أبدًا، كنت أعرف أن أداءه تمثيلي بحت، وأنه يخاف أكثر من أي شخص..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٢ - «الطرف السام غالبًا يرث السم من الأهل؛ ينقسم بعدها الأشخاص إلى نوعين، نوع يرفض السم ويحاول الهروب منه، والسام هو من يتقبله ويبرره، لهذا تكون هناك دائمًا قصص عن الماضي الصعب.. ولكن ليس بالمعنى الحرفي للوراثة . هو يمتص السمية من البيئة المحيطة.. خيانة أب، تجاهل أم، تدليل مبالغ فيه، قسوة بلا مبرر.. كلها أشياء تُسهم في بث السم النفسي داخله . يترجم عقله ذلك السم كنوع من الحب لأنه نشأ عليه»

سمعت صوته وهو يقول بضحكة مستهزئة:

- عاوز حق «أسماء»..

لم أتوقع رده، عقدت حاجبيّ وقلت في تساؤل حقيقي:

- حضرتك الطلاق تم بالتراضي بعد ما أخدتم حقوقكم كاملة.. حق إيه؟

قال بنبرته المستهزئة:

- لا.. الحاجات دي لما انت ضحكت علينا وقلت «أسماء» هي اللي غلطانة.. بس بعد اللي اتبعت وشفناه وقريناه.. عرفت إنك كداب وبتكدب علينا أنا و«محمد» بيه..

دائمًا ما كان يصاحب اسم والدي بلقب «بيه» كحفظ للمقام، وقال إنني ضحكت على أبي حتى يقسم الجبهات، طرف يمينه وطرف بجانبه، قال وقد عادت الشماتة تطغى على صوته:

- ألا صحيح رأيه إيه في اللي اتبعتلك؟

[illegible]

[illegible]

المسؤول عما حدث أم نحن أم

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لكن قبل الطلاق الرسمي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] هذا [illegible] ما [illegible] من الحياة، [illegible]

بلغني إياه..

[illegible] هذا النص [illegible] في مفاوضات الطلاق، كان يذهب ليحدث [illegible] مفاوضات الطلاق، ويعود لأهل بيته يقول كلامًا كاذبًا لا أساس له من الصحة [illegible] ادّعى أن [illegible] «أسماء» لا تستطيع الإنجاب. [illegible] أهلي كانوا يكذبونه، بل تمادى في كذبه وادعى كل ما تكرهه أنثى [illegible] وعدم تواجهه بالأمر.. يهز كتفه في لا مبالاة ويقول إن الطرف الآخر هو الذي يكذب..

[illegible] الحقيقة تمامًا..

[illegible] له كذبه المستمر لأنني كنت أعلم أن «أسماء» [illegible] بالتأكيد «أسماء» استخدمت ورقة الاستعطاف [illegible]

انهرت غضبًا وأظهرت لهم كم هي ضعيفة تقية لا تستحق وعند مني
مثلما فعلت معي حتى أنقضي عن كل ما كنت تعطيني به؛ لذا فقد كان
من الطبيعي أن تريدها أن تكرهني. أن تكره ذلك الكيان حتى تستطيع
أن تقف على قدميها ثابتة..

هذا كذب في كل شيء. لكنه من دون أن يدري أشعل فتيلًا آخر انفجر
في وجهي أنا..

لأنه لا يعرفها كما أعرفها أنا.. أثار هذا جنونها أكثر.. أثبت لها أن كل
شكوكها كانت صحيحة. الشكوك التي حاولتُ أن أميتها طول ثلاثة أعوام
أثبتها هو لها في ثوانٍ..

ربما..

الأهل هم أكثر البشر حماقة عندما يريدون أن يحموا أولادهم.

لكني الآن لا أستطيع تكذيبه، لا أملك حساباتي حتى أثبت براءتي.
أشعلت سيجارة، هبطت عليّ الشخصية اللامبالية التي أستخدمها عادةً في
الخروج من المواقف الضاغطة، أضع كل مشاعري داخل ثلاجة ضخمة،
ولا أبالي بأي شيء، قلت محاولًا إنهاء ذلك العبث:

- وإيه اللي حضرتك عاوزه؟

استندتُ إلى سور السطح ونفثت دخان السيجارة، ليقول هو ببهجة
المساوِمة، وكأن ما يقوله أمر طبيعي تمامًا:

- يعني. اللي انت عملته وجع «أسماء» قوي.. مافيش حاجة تعوّضها
عن اللي حسّاه دلوقتي.. بس لو حسبنا تلات سنين ضاعوا من عمرها على
واحد خاين زيك.. ممكن ١٠٠ ألف كدا..

صمتُّ تمامًا، ليكمل هو بنبرة قوية طول ثلاثة أعوام لم أرَه يتحدث بها:

- أنا مش بتناقش.. حقنا ييجي حاجتك نرجعلك.. لكن لو ما جاش..

وصمت ليعطي تهديده قوة ما. لا يدري أنني كنت أبتسم مستهزئًا بلا

[illegible]

وانت بقى تتصرف معاهم..

ارتسم حاجبان في أصحاب خلفي، طريقة الابتسام جديدة، طيب أنه سيهدد بالفضيحة، لكن فكرته كانت مبكرة، لم أشعر بالغضب، لم أهتم

في حين قال هو عندما لم يسمع مني ردًّا:

ـ هستناك تقولي أجي آخد الفلوس إمتى النهارده بالليل..

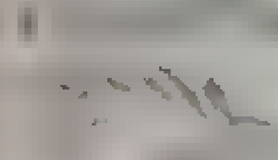
وأنهى المكالمة من دون أن ينتظر ردًّا..

* * *

نظرتُ إلى هاتف لحظاتٍ في غضب، غادرتني اللامبالاة عندما أغلق الخط، شعرت بكراهية بشعة تملأ صدري لكل ما يتعلق بالحياة، غضب عاتٍ يحتل كياني، أردت أن ألكم سور السطح أو أركله، أي شيء يفرغ الشحنة داخلي، رفعت ذراعي عاليًا..

وألقيت الهاتف من السطح بقوة، وتابعت رحلة سقوطه حتى تهشّم على أسفلت الطريق وتبعثرت أشلاؤه..

كما تبعثر كل شيء داخلي الآن..



شعرت بارتجاف قدمي وبدني، [illegible]

[illegible] أن يعاقبني بفضيحة،

لكنه سيجعلني أعيش [illegible] من أين سيأتي الخطر،

كم [illegible] وفيها؟ لا أذكر [illegible] هذا ما أراده هو [illegible]

[illegible] من التساؤل و[illegible] انتقام الأخرس

[illegible] على هذا النوع من [illegible] على كل من أراد أن [illegible]

وينتقم يومًا..

شعرت بنفسي [illegible] اللعبة، أن أفقد السيطرة، [illegible] على كتفي، التفتُّ لـ«سيرا» التي كانت تنظر إليّ بقلق شديد، [illegible] أن أتلفظ به لحظتها:

- همَّ عاوزين مني إيه؟

قالت «سيرا» محاولةً تهدئتي على الرغم من أن قلقها يزيد:

- عاوزين فلوس.. و«أسماء» عاوزة تنتقم منك.. عاوزة تثبت إنها كانت مهمة وإنك مش عارف تعيش من غيرها..

رفعت يدي للسماء، كأنني أشير إليها رغم بعد المسافات، وأنا أصرخ:

- وعاوزة تثبت ليه؟ ما هي اللي مشيت..

قالت «سيرا» بحذر، خوفًا من أن يُغضبني ردها:

- كانت بتهوِّش بس عشان عاوزاك تجري وراها..

نظرتُ إليها للحظة في عدم فهم، فقالت «سيرا» مهوِّنة:

- فيه ستات لما بتغلط وبتبوظ الدنيا، بتهدد إنها تمشي عشان تحس بقيمتها.. هي كانت فاكرة إنك مش هتعرف تعيش من غيرها.. فلمَّا هددت إنها ماشية وانت سيبتها.. حست إنك وجعتها وما تمسكتش بيها..

نظرتُ إليها في ذهول، قلت:

- انتو مجانين؟ كل مرة كانت بتمشي كنت برجَّعها. مليون مرة دُست على نفسي عشان تكمل معايا وماتبقاش مجروحة.. هي اللي باعت كل حاجة الأول..

[illegible]

ـ أنا مش. قادر

(تدعني أكمل واحتضنتني بقوة)

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أسهبت [illegible] لك حرية أن تشعر

[illegible]

أكثر من هذا..

انهمرت..

[illegible] وحدثني [illegible]

[illegible] معي، ولا تمنعني من [illegible]

دفنت رأسي في صدرها وقربتها مني أكثر، تاركة كل ما يتماسك داخلي ينهار تمامًا..

* * *

عندما أتاني ما يطلقون عليه الـ«anxiety attack» بسبب خوفي من أمراض القلب، وضعت لنفسي قاعدة صارمة، هي قاعدة «الساعة الواحدة».

لا أكن أسمح لنفسي أن يطول الأمر عن ساعة، أترك نفسي أشعر بكل شيء، أخاف وأنهار وأقع في بئر الأفكار السوداء، ثم ينتهي الأمر تمامًا ولا أفكر فيه ثانية بعد ساعة واحدة..

لذا، بعد مرور ساعة كاملة، ضمتني فيها «سيرا» ولم تتركني لحظة، تركت عناقها فجأة، نزلت للهاتف الملقى على أسفلت الطريق، شاشته [illegible] قبلًا لكن ما زالت تعمل، وتحطم ظهره تمامًا، [illegible] قائمة الأسماء وبعثت لـ«سيرا» على تطبيق «واتساب» معظم الأرقام [illegible]

ثم أخرجت الشريحة من الهاتف، وألقيته بعيدًا ثانية في عمق
كنت صامتة تمامًا، ولم تحاول إسراء أن تحدثني كثيرًا، كانت تراقبني
من بعيد مقدرة ما أنا فيه، أمسكت هاتفها من دون استئذان وهي تخفض،
ضغطت على أحد الأرقام التي أرسلتها إليها، لتمضي جرس طويل قليلًا،
أسمع بعده صوتًا يرد بتكاسل:

- ألو.

قلت باقتضاب وداخلي كثير من المشاعر المتضاربة.

- «حسام».. عاوز أقابلك. أنا جنب العباسية كمان ساعتين

بدا على «إسراء» التعجب، عقدت حاجبيها عندما سمعت اسم «حسام»،
كانت تظن أنني سأكلم أحدًا من أهلي أبلغهم بالكارثة، لكني لم أفعل.

الخطوة الثانية عشرة لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: لا تسمح لهم بتشتيتك أبدًا. يعود الشريك ويظهر دائمًا عندما يشعر أنك تمضي في حياتك أنك بدأت في تحقيق شيء ما.. أنك اقتربت لاستعادة نفسك ثانية؛ لذا فلا تسمح لهم بإرباكك.. انظر إلى الأمام فقط..

فوجئ من صوتي، ارتبك للحظة وهو يتظاهر أنه لا يعرف صوتي:

- مين معايا؟

قلت له وأنا في حالة لا تسمح بكل تلك التمثيليات المفتعلة:

- ساعتين وتقابلني على القهوة..

وأغلقت..

لأجده يدخل القهوة بعد ساعتين بالضبط؛ لأنني قُدتُ عربتي بسرعة جعلتني أصل قبله، وأبتاع هاتفًا حديدًا لأضع فيه الشريحة..

صافحنا بعضنا مصافحة باردة كأي اثنين غريبين لم يكن بينهما أي نوع من أنواع العشرة..

كان مرتبكًا، أحفظه عندما يحاول أن يبدو قويًّا، ابتسمت في حزن وأنا

[illegible]

اعوام، صديقي [illegible]

أحصيها..

[illegible]

سمعي في كل [illegible] حتى عرفت أن [illegible]

وصديق [illegible]

مع صديق عمري «حسام عامر»..

عدتُ فرحًا وأخبرته أن حلمه اقترب أن يتحقق [illegible]
لبعض إننا لن نترك العمل يؤثر على صداقتنا الطويلة، ولو حدثت أي
مشكلة بسبب العمل لن تؤثر على صداقتنا. «حسام» كان خبرته من أي
أصدقاء كثيرين بسبب العمل، يأخذون مجهوده ويسحبون [illegible] فقد
وعدته أن هذا لن يحدث بيننا أبدًا..

لأكتشف أنني كنت أحمق تمامًا..

قال «حسام» بعد أن طلب فنجانًا من القهوة:

ـ خير يا «عيسى»؟ اتفضل..

لم يكن يشغلني إلا كيف اختلف شكله في عيني..

بدأنا العمل بطاقة رهيبة، نكتب معًا ونحاول أن نخرج فكرة عبقرية،
لأجد أول عائق يواجهني معه..

«حسام» كان يشك في كل شيء، من كثرة خيانة الأصدقاء ينتظر الخذلان
من كل البشر، لا أدري هل كان سامًّا منذ البداية أم تم تسميمه من قبل
الآخرين..

في النهاية، مبدؤه كان معكوسًا، المتهم سيخذله دائمًا حتى تثبت براءته؛
لذا فقد وجدت حجم الشك في كل تفاصيل العمل، يتهمني دائمًا أنني أحاول
المتنح من ورائه، أنني أريد أن آخذ كل مجهوده باسمي، وكنت [illegible]

[illegible] تلك الأفكار مجرد أوهام في عقله.

[illegible] ساخرًا: لماذا يشك أقرب الناس [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] حوالك.. صريح بزيادة، ومافيش [illegible]

[illegible] غريبة.. مش بنفكر زينا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] عيسى» اللعين [illegible]

ـ أنا جاي عشان أصفّي الدنيا..

[illegible] متعجبًا، ثم انعقد حاجباه في استهزاء، وهز كتفيه في لا مبالاة.

ـ أنا مش شايل حاجة.. أنا مش فارق معاي حاجة أصلًا..

لماذا ينسى الجميع أنني أحفظهم؟ لماذا لا يدركون أنني رأيتهم مرارًا وهم يمثلون تلك اللامبالاة مع آخرين، ثم يعودون ليحكوا لي عن مقدار [illegible] لدي كانوا يشعرون به؟

لماذا لا يدركون أنني لا أنسى؟

«حسام» كان السبب لأتعلم حقيقة مهمة في حياتي..

كثير الشك هو أكثر الكذابين احترافًا..

«أسماء»، «حسام»، كانا يكذبان على كل الناس في أدقّ تفاصيلهما، ثم لعنة أنفسهما.. برَّرا الكذب لأنفسهما بأن كل الناس مثلهما.. فأصبحا يشكان في كل شيء.. عقلاهما يجرانهما للحقيقة التي يتجاهلانها [illegible] نحن نكذب ونخون ونعتاد.. فمن الطبيعي أن كل من يعرفنا بنفس الصفات.

[illegible]

حوار من لهب

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أحمد شبث واحدًا داخل

[illegible]

قلت معتدلاً في مقعدي:

[illegible]

[illegible] وخلص باحترام..

[illegible] لا يتذكر أي شيء من [illegible] [illegible] صديقًا جيدًا..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٣ - [illegible] وأحل [illegible] كل شيء [illegible] [illegible] لا يعرفون [illegible] أبدًا [illegible] الدنيا القذرة [illegible] [illegible] الملائكة منهم؟

[illegible]

[illegible]

أنا مش عاوز شايل منك حاجة..

[illegible]

متأكد من الإجابة

[illegible] حد عمل

[illegible]

[illegible]

بقول متظاهرًا بالقوة.

- آه عارف.

[illegible]

- بس انت مالكش دعوة بحاجة يا حسام أنا وهي صحاب عشان هي طول عمرها كده بس معايا وماشفتش منها حاجة وحشة

الحقيقة الثابتة التي تعلمتها من «حسام»: لا يثق كثير الشك إلا بكثير الشك مثله، لا أدري لماذا، لكن هناك حكمة ما. عندما يجتمعون على كراهية شخص يصبحون أكثر الأصدقاء قربًا، يتعاملون بعضهم بالحرص والشك أنفسهما، فيتمادون في المعاملة لدرجة لا تُصدّق، «حسام» يعلم بداخله أن «أسماء» كانت تكرهه، و«أسماء» تعلم أن «حسام» هو من كان ينتقدها ويحاول أن يقصيني أن أحبها دائمًا..

وأنا، الذي رفضتُ منطقها ورفضتُ نصيحته، أصبحت في نظرهما الصديق السيئ والزوج الأسوأ..

نهضتُ من مقعدي، تركتُ حسابي على المائدة، لينظر إليّ هو بتعجُّب، مددتُ يدي وصافحته مودّعًا..

«عيسى الصغير» لم يكُن على حق هذه المرة.

[illegible]

حتى يختفي تماماً..
كأنه لم يكن..

* * *

(٨)

ورابع الكنوز

دخل الشتا وقفل البيبان ع البيوت

وجعل شعاع الشمس خيط عنكبوت

وحاجات كتير بتموت في ليل الشتا

لكن حاجات أكتر بترفض تموت

عجبي!

صلاح جاهين

[illegible] حتى [illegible]

أذان الفجر..

سجلت لقائي أنا وأحمد [illegible]

لأحلامي [illegible] شعرت [illegible]

الأمر برمته، فلم أفكر فيه كثيرًا..

هاتفتُ أميرة وقلت لها أن تنتظرني في شقة السطح، وأن تحضر كل

شيء. لا أريد أن أضيع وقتًا أكثر من هذا. لأعود وأحدثك عن شيء [illegible]

سألتني سؤالًا واحدًا فقط:

- الدنيا أحسن؟

سؤال عام، فأجبت إجابة عامة أكثر:

- مش فارقة..

تومئ برأسها في تفهُّم، وتعطيني الصفحة الرابعة..

فتحتها بسرعة لأقرأ..

- «(عيسى الكبير)..

هل شعرت بفارق عندما سامحت؟ أعرف أنك لا تشعر الآن بشيء، لا تقلق، عندما تسامح أحدًا لا تشعر بشيء على الفور، بل تشعر به على المدى البعيد.. عندما تنام مطمئن القلب»..

كيف يشعر بي هذا اللعين؟ هل كنتُ بهذا الذكاء فعلًا وأنا في هذا العمر الصغير؟

أكملتُ قراءة [illegible] أفكاري، محاولًا الهرب من كل ما يتعلق بالواقع الآن

«قرأت أن الشيء الوحيد الأسوأ من المرض، هو الاكتئاب بسبب هذا المرض، واكتشفت أيضًا أننا كلنا ما إلا طاقة يا (عيسى)، طاقة ستنقل كل مشاعر البشر وترسلها إليهم، لذلك لا تسمح بأدنى قدر من الطاقة السلبية للدخول إلى قلبك يا صديقي، حتى في أسوأ لحظاتك وانظر إلى كل من حولك بعين تحنو عليهم، احمل طاقتك وارفقها في حياتهم، لن يسيطر مرض [illegible] على حياتنا مهما حدث. ستصبح ما تريد أن تكون حتى لو تآمر الكون كله على عدم تحقيق ذلك»..

لم أستطع هذه المرة أن أمنع نفسي من الابتسام ساخرًا، لأول مرة منذ أن بدأت بث اللعبة معه أرى ما في صغر سنه وقلة خبرته، أردت أن أرسل له رسالة أقول له «الآن صديقي، الكون لا يحتاج إلى أن يتآمر ضدك. فالطاقة من حولك هي التي تأخذ منك كثيرًا» شيء ما بداخلي منذ مكالمة [illegible] طليقتي جعلني أشعر بغضب دائم، حتى من «عيسى الصغير» الآن.

لم أفكر في الأمر كثيرًا وأكملت القراءة:

- أقسم لي إنك لن تجعل الحلم يموت داخلك يا (عيسى)»

صحت هذه المرة بسخرية، غير عابئ بتصوير الهاتف ولا بوجود «سيرا»:

- يلعن أبو الحلم يا أخي..

لا أدري ما الذي حرّكني، لكني نظرت إلى «سيرا» القلقة، وقلت باستهزاء:

- حلم إيه دا؟ حلم إيه والناس بتتشحتف في أفكارك كل يوم؟

ونهضت من جلستي وأنا ألقي البطاقة لـ«سيرا» قائلًا:

- كمّلي عشان مش قادر أستحمل الهبل دا..

التقطت «سيرا» البطاقة قبل أن تقع من على الأرض، كنت فيما مضى أفهم جميع من حولي بمجرد أن أنظر إليهم، الآن وبسبب [illegible] من بعد الطلاق، إنني لا أحاول حتى أن أفهم كيف تتحول [illegible]، فتحت البطاقة في هدوء، اقتربت «سيرا» من الهاتف و[illegible] بصوت عالٍ، متجاهلة عصبيتي وسخريتي واستهزائي.

[illegible]

- شفت القمر عطيت لفوق في الهوا..

[illegible]

- شفته ماشوفتوش إنه أنا يهمني؟

[illegible]

- وليه؟

وأحدث نفسًا عميقًا، مكملًا:

- ما دام بالشوق قلبي ارتوى..

[illegible] معتذرًا [illegible]

[illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible] هل عرفت [illegible] (عيسى)؟ [illegible] في نهاية [illegible] والكبر [illegible] أقول هذا اختار لـ(عيسى الكبير) داخلك.

إنما يحلم.. بحلمي!..

[illegible] إلى [illegible]، لأحب من دون تفكير:

- «غريب فيديوجرافي»..

[illegible] وقلت [illegible]:

[illegible]

[illegible]

ـ كده بس كل اللي بيحصل [illegible]

سحبتني من يدي [illegible]

ـ رايحة فين؟

قالت بنشاطها المعتاد:

ـ هنروح على طول على هناك..

لأتركها تسحبني من دون مقاومة حقيقية

* * *

ما إن بدأ الطريق الطويل، حتى بدأتُ أشعر بالإرهاق، نظرتُ إلى الشمس التي تتوسط السماء ظُهرًا، أدركت أنني لم أنم حتى الآن، ربما يكون هذا هو سبب عصبيتي، أغمضتُ عيني قليلًا ويدي تعبث بالقلم ليصدر صوت التكتكة الذي يهدِّئ قليلًا من أعصابي..

وما إن شعرت أنني أذهب قليلًا في النوم، ضرب جرس هاتفي المحمول، انتفض جسدي وقلبي ينقبض، أصبحت أكره رنته، نظرت إلى الهاتف لأجد رقم أبي، رددتُ عليه بقلق، لأسمع هذه المرة صوته المنفعل:

ـ تعالى حالًا..

شعرت بنفسي يضيق، قلت بهدوء:

ـ معلش أنا في مشوار و...

ليصرخ فيَّ بصوت عالٍ:

ـ قلتلك تعالى حالًا..

بدأت أخرج عن شعوري وقلت منفعلًا:

ـ فيه إيه طيب؟ حضرتك قلقتني؟

صمت أبي لحظات ليكتم انفعاله، يقولون إني لم أرث شيئًا من عائلتي، لكني ورثت كل ما لا يُرى، مرض جدتي وكتمان أبي لكل شيء بداخله، قال بصوت هادئ:

قال [illegible] كلامي.. هادي إنه [illegible]

فلوس..

بعد [illegible] عندما لم أرد عليه لأنني [illegible] وأنا أدرك

أنني قد أصيبه بجلطة من توتري:

- أنا مش عارف آخر الحوار دا إيه..

قال بعصبية:

- آخره إنه [illegible] ماسكه عليك [illegible] في سنتين دراسة.. إنه اللي هيخصص

معي؟ مش هيجي واحد زي دا يدلك على آخر الزمن

[illegible] أنني دائمًا أن أكون بقوة، خلال استمرار بيننا في شخصيته حتى

العمر، هو يهتم بالأسس [illegible] والمنطق والنتيجة النهائية، وأنا أهتم بالروح

والمشاعر والنفس..

شعرت بنفسي [illegible] أكثر، قلت [illegible] مترددة

- المشكلة مش [illegible]. المشكلة في الناس اللي معاك [illegible] الناس دي [illegible]

وأنا كدا باضرهم..

صاح بعصبية:

- وانت باكي على ناس ماعندهمش أخلاق ليه؟ مش هم وافقوا يعملوا

كدا معاك؟ يشيلوا قرفهم هم كمان..

ذلك المنطق الملتوي الذي أكرهه، من قال إن كل من يتجاوز الحدود

المعروفة يصبح فجأة بلا أخلاق؟ هل الأخلاق كلها تتعلق [illegible] فقط؟ أكره

إطلاق صفات على أناس لا نعرف أي شيء عن حياتهم وظروفهم،

قلت وقد بدا صوتي يرتجف من الغضب:

- محدش فيهم مش محترم، لو فيهم حد وسخ يبقى [illegible]

[illegible]

ضحكت أبي ضحكة عصبية مستهزئة، وقال:

[illegible]
[illegible]
[illegible]
كل هذا وأهرب، قلت بنفاد صبر:
- ماعرفش حاجه.. سيبني أفكر..
سمعت صوت إغلاق [illegible]
خطاب، قلت «سيرا» وهي تحدثني في الغرفة بصوت [illegible]
- هتعمل إيه؟
أشرت إلى الطريق، وقلت بانفعال [illegible] كل شيء
- هاكمّل الطريق..
ونظرتُ من النافذة وبداخلي كل شيء يتضارب..

* * *

بعد ساعتين من الزحام وصلنا إلى المكان.
متجر كاميرات التصوير «عريب فيديو جرافي»..
نظرت بإحباط إلى اللافتة المكتوب عليها «فول وفلافل الشراوي».
نظرت إلى «سيرا» التي قالت بأسف:
- المحل قفل من ١٠ سنين..
لماذا لا يسير أي شيء بسهولة وسلاسة؟! أدركت لأول مرة قيمة الزمن الذي أحارب فيه.. ثمانية عشر عامًا.. عندما وجدت العلبتين المعدنيتين في الأيام السابقة، جاءني شعور أنني سأجد كل شيء كما تركته.. وكان هذا دربًا من الخيال..
شعرت بإحباط مفاجئ.. الشيء الوحيد الذي سيطر عليّ قليلًا من كل ما يحدث هي تلك اللعبة.. على الرغم من عدم تمكني من كتابة بها الآن..

[illegible]

هل اسمت اللعبة الآن؟

قلت لـ«سيرا» حاولا تحاور إحباطي

[illegible]

الرابع وخلاص

تنحنحت «سيرا» وقالت

[illegible]

اللي انت كنت سايبها هناك..

[illegible]

في حياتي.

من هذا المتجر تحديدًا..

قالت «سيرا» مبتسمة:

- [illegible] لقيت الحاجة، بس لازم وإحنا هنا أوريت المحل [illegible].

ثم ضحكت مكملة:

- عشان مش هكرر المشوار دا تاني..

نظرت إلى العلبة في دهشة، ثم نظرت إليها

كيف تحملت كل هذا المجهود من أجلي أنا فقط؟

قلت ناظرًا إلى عينيها مباشرة:

- انت جيتي هنا من عشر سنين عشان تاخدي الكاميرا دي؟

أومأت برأسها إيجابًا، ثم قالت ضاحكة:

- كنت جاية مع [illegible] صاحبي نجيب كاميرات من هنا، [illegible] يافطة "للبيع". حسبت إن مشروعك كله هايبوظ.. قلت [illegible] حبيبك وخدت منه الحاجة...

سألتها السؤال البديهي:

- انتِ ليه بتعملي كل دا؟

احمرت وجنتاها ونظرت إلى الأرض، أمسكت يدها كما اعتادت عند ارتباك، ثم نظرت إليَّ وقالت بصوت خافت:

- عشان أنا باشتغل ممثلة بقالي كتير قوي يا «عيسى».. ماشفتش فكرة حركتني لحد دلوقتي زي فكرتك..

وقالت وعيناها تؤمنان بما تقول:

- انت حقيقي يا «عيسى».. من وانت صغير كنت حقيقي وموهبتك حقيقية قوي.. أنا حتى بعد ما نجحت وحققت كل حاجة نفسي فيها.. لسه دوري في فيلمك اللي بيتعمل ده هو أكتر دور نفسي أعمله لحد دلوقتي.

وأمسكت يدي وقالت:

- أنا مؤمنة باللي جواك قوي..

سرت قشعريرة في جسدي كله، كيف لكلمات بسيطة أن تغيِّر كل شيء بداخلي بتلك البساطة؟ قلت أول سؤال بداخلي بعد أن سمعت كلامها، وأنا لا أستطيع أن أخرج من إطار عينيها الواسعتين:

- حتى بعد ما عرفتي كل القرف اللي أنا عملته واللي أنا فيه دا؟

ابتسمت وعيناها تدمعان، وقالت بصوت خافت:

- انت تايه يا «عيسى».. وربنا ما يوري حد مرارة التوهة اللي بتخلي الواحد يخبط من الوجع في كل حاجة..

وأكملت ودمعتها تهبط:

- عشان بس يلاقي اللي يرجعه تاني..

الخطوة الثالثة عشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: صدِّق أعين الأصدقاء المخلصين والأهل فيك.. صدِّق كلامهم عن إيجابياتك.. وكذب كل ما قاله الشريك فيك..هناك من يحبك لذاتك ويريد أن يراك

وسهولة السيطرة عليك.. وتريد

افصل دائمًا. وهناك من أحبك لضعفك وسهولة السيطرة عليك.. وتريد إضعافك أكثر. تعلّم الفارق.

لم أدرِ ماذا أقول، انتابني بكاء، وأنا أشعر أن هناك شيئًا يهتز داخلي، مسحت هي دمعها بسرعة، أخرجت "آي باد" شاشته كبيرة من حقيبتها، وأمسكت هاتفها لتستعد للتصوير، وقالت:

- اصبر الربع هنا.. هصوّرك عشان لما تعرف الإجابة تروح على طول.

نظرت إليها مندهشًا، لم يكن في الجهاز سوى فيديو واحد فقط، فقالت «سيرا» ضاحكة:

- جبت الفيديو بتاع الكئيب بس..

ابتسمت، وضغطت على زر تشغيل على الشاشة..

* * *

(٩)

الأمر الرابع

مركب ورق من نفحه تنطوح
ركبتها والكل بيلوح
سوحت فيها اتنين وخمسين سنة
للآن.. ولا بتغرق ولا تروح
عجبي!

صلاح جاهين

- رقصت كام مرة لحد دلوقتي؟!

[illegible]

[illegible]

فيرد هو كعادته:

- ولا مرة.. صح؟

[illegible]

[illegible]

- مش هاقول حاجة غير لما ترقص..

واقترب من الكمبيوتر بطريقة مضحكة وقال كأنه ينادي على شخص ما

- [illegible] رقصني [illegible] يكمل [illegible] على الأغنية كلها

[illegible]

كانت أغنية قديمة قليلًا، اعتقدت [illegible] تذكر، كانت أغنية قديمة لمطرب اسمه "أحمد حسني" على ما أعتقد، لكني كنت أحبها في شدة [illegible] ما كانت تجعلني أرقص..

[illegible] أعني في وقتها بقول شيء عظيم ومؤثر جدًا..

"يا بهية"..

كنت أضحك دائمًا على الطريقة الدرامية التي يغني بها [illegible] الذي [illegible] "بهية"، حبل [illegible] هو أكثر حبل مظلوم، [illegible] تستطيع أن [illegible] أولاد بعشرية ما كنت سمعته. ضحكت [illegible] "السيرا"

بلهجة آمرة:

- يلا.. ارقص..

[illegible]

- [illegible]

كصبية كاتمة.

[illegible]

[illegible]

كان يقوم..

فلماذا لا أقاوم مثله؟

"مش ممكن لازم تقوم... هو شكلك مش معقول... سحر في قلوب وعقول.. يا بهية"..

بدأت أرقص فجأة مهرولة مثل "عيسى"، لتضحك "[illegible]" [illegible] بصوت عالٍ..

كنت جالسة في العربة، ما جعل حركتي محدودة وأحرك نصفي الأعلى فقط.. لمحت نظرات المارة وهم يرون رجلًا واضحًا يرقص مع صدره مثل الراقصات..

لكني لم أبالِ..

فليذهبوا جميعًا إلى أكبر محرقة جماعية تستطيع أن تحتوي مثليتهم المريضة..

كان "عيسى" أكثر حرية، فيرقص بجسده كله رقصة الغربي، لكنه كان يفعل حركات هزلية كثيرة، رقصتُ معه وأنا أحاول أن أنسى كل شيء، أدركت الآن كيف تُخرج كل أنثى عرفتها طاقتها في الرقص، زوجة كانت أو أمًّا، مطلقة أو أرملة، تعطيهن الحياة ما تعطيهن من مآسٍ، يصببن كل هذا في رقصة..

يرقصن على مآسيهن مستهترات..

انتهت الأغنية، ليتوقف "عيسى" عن الرقص وأتوقف معه، تصببتُ عرقًا من الحركة المفاجئة، لكن على وجهي ارتسمت ابتسامة صافية وأن

قال «عيسى» [illegible] أنه [illegible]

- مسموح [illegible]

جلس «عيسى» على [illegible] وهو [illegible] من [illegible] الأول، وهو [illegible]

- لازم [illegible] وعندي [illegible] لازم يروح [illegible] عليك [illegible]

عم «غريب» ونتكلم معاه [illegible] الأم، اللي [illegible] حصل

وكعادته لوّح بيديه وهو يقول:

- هو وعدني إنه هيفضل عايش.. بس لو مش عايش، «سبرا» هي اللي هتقولك.. سلام..

واسودّت الشاشة فجأة..

ابتسمتُ في حرج، نظرت إلى «سبرا» لأجدها تمد يدها إليّ كمن يطلب نقودًا، نظرتُ إليها بعدم فهم، فقالت مبتسمة:

- «الكريديت كارد» بتاعتك لو سمحت..

عقدت حاجبيّ في عدم فهم، لكن ابتسامتها الواسعة وثقتها جعلتاني أُخرج محفظتي وأعطيها بطاقتي الائتمانية، لتنظر إليها هي وتقول بثقتها الطفولية:

- هروح البنك الأول، بعدها نروح على عم «غريب»..

لأشعر بقلق خفيف يتصاعد داخلي..

* * *

- عاوز إيه يابني؟

قالها عم «غريب»، الرجل الخمسيني ذو الشعر الأبيض الغزير والوجه الأبيض والعينين الخضراوين، كان «عيسى» وقتها ابن عمر الرابعة عشرة، يتأمل نافذة عرض المتجر الكبير برهبة، انتفض في [illegible] «غريب»، ليقول «عيسى» مشيرًا إلى كل كاميرات التصوير وكاميرات الفيديو في كل ركن ورف:

- عاوز أشتري كاميرا..

[illegible] وكان وسيمًا راقيًا، [illegible] الإحراج، لكن [illegible]

[illegible] حلطة من ضغط العمل، مغرورًا [illegible]

[illegible] الكاميرات.

[illegible] «عيسى» [illegible]

[illegible] «عيسى» في [illegible] «غريب» [illegible]

ـ انت فين باباك ومامتك؟

[illegible] «عيسى» [illegible]

ـ في البيت..

ومأ «غريب» برأسه في تفهّم وقال ضاحكًا:

ـ عارف الكاميرا اللي عاوز تشتريها دي بكم؟

[illegible] «عيسى» بفخر وهو يشير إلى صدره:

ـ آه محوّش العيدية كلها عشان أجيبها..

رفع «غريب» حاجبيه في انبهار تمثيلي، وقال مجاريًا «عيسى»:

ـ طب وعاوز تشتري كاميرا تصوير صور ولا فيديو؟

ليقول «عيسى» بحماس:

ـ فيديو طبعًا، أنا عاوز أبقى مخرج أفلام..

هذه المرة تأمّل «غريب» «عيسى» بنظرة مختلفة، ابتسم وقال في هدوء:

ـ اللي في سنك بيبقوا عاوزين يبقوا ممثلين عشان يبقوا زي رشدي أباظة وعادل إمام.. انت ليه عاوز تبقى مخرج يعني؟

قال «عيسى» بشغف:

[illegible]

[illegible]

[illegible]

قال «غريب» في هدوء:

[illegible]

[illegible]

[illegible]

«غريب» بابتسامة فضولية:

- كام دول؟

ردَّ «عيسى» بصوت خجول:

- دول ٤٠٠ جنيه بس والله همّ كل اللي معايا..

ضحك «غريب» ضحكة عالية، اقترب من «عيسى» وربت على كتفه، وقال:

- ماينفعش تبقى سادج كدا.. اسأل الأول على سعر الحاجة عشان مايتضحكش عليك..

وأشار إلى الكاميرا بعينيه وهو يقول:

- الكاميرا دي بـ٢٠٠ جنيه بس..

بدت الفرحة على وجه «عيسى»، في حين ضحك «غريب» في هدوء، أخذ المال منه، ليودعه «عيسى» قائلًا:

- هاصوَّر أول فيلم وأوريهولك..

وانطلق راكضًا بحماس

* * *

[illegible]

حتى لو شعرت بخوف من السقوط من حافة السلالم، لا [illegible]

وصلت إلى باب الشقة، نظرت إلى «سيرا» مبتسمًا، [illegible]

يحدث معي، نظرت إلى الباب وضربت الجرس، ووقفت أنتظر [illegible]

ليفتح الباب واحد رجلًا في عمري مرتديًا «فانلة» داخلية، [illegible]

تساؤل، ابتسمتُ وأنا أحاول الحديث متغلبًا على هلعي.

ـ السلام عليكم.. كنت عاوز أسأل على عم «غريب»..

ابتسم الرجل وهو يهرش في شعره، قائلًا:

ـ ياه.. حضرتك بقالك كتير ماكنتوش؟!

أومأت برأسي أن نعم، وقلبي بدأ ينقبض متوقعًا أن يصدم خبر وفاته

أذني الآن، لكن الرجل قال بضحكة:

ـ عم «غريب» عزّل من ٨ سنين كدا.. أنا مأجر الشقة منه..

تنفست في راحة، قلت بأمل:

ـ طيب ممكن رقمه الجديد أو عنوانه؟

قال الرجل بطيبة:

ـ اه طبعًا.. بس ممكن أعرف حضرتك مين؟

قلت وأنا أمد يدي إليه مصافحًا

ـ أنا «عيسى الشواف»

[illegible]

[illegible]

وضحك قائلًا:

ـ [illegible]

[illegible]

داخل الشقة قائلًا:

ـ دا فارقنا بيك يا راجل.. حتى شوف..

وجذبه يسحبني فذهبت معه وأنا و«سيرا» [illegible]

ودخلت «سيرا» خلفنا، وهو يقول ماسكًا يدي:

ـ ما تخافش، المدام والعيال برّه.. تعالى..

بدت الشقة مختلفة تمامًا عن الشقة القديمة التي دخلتها مرارًا عندما كنت أزور عم «غريب».. شعرت بإحراج مفاجئ وأن أجد الشقة غير مهدمة لكنه استمر في سحبي داخل الشقة لدرجة أنني شعرت أنه سيأخذني إلى غرفة النوم.. لكنه توقف عند غرفة أتذكّرها جيدًا، فتحها بقوة، كانت تلك الغرفة فيما مضى «استوديو» صغيرًا نسجل فيه الأفلام أنا وعم «غريب»، تحوّلت إلى غرفة معيشة عادية جدًّا، لكن الرجل أشار إلى الحائط وهو يقول:

ـ عم «غريب» يبقى جوز عمتي، ولمّا أجّرت منه الشقة حلّفني إني عمري ما أنزّل الصورة دي من على الحيطة دي أبدًا..

نظرت إلى الصورة وقشعريرة تسري في جسدي..

كانت صورة في برواز كبير، لعم «غريب»، خلفه محل الكاميرات، يبتسم في ثقة وفرحة حقيقية..

كُتب جانبه بخط كبير: «إخراج: عيسى الشواف»..

[illegible]

فيلم عن حياة عم «غريب».

* * *

- «cut»

[illegible]

نحو عم «غريب»..

كان «عيسى» في السابعة عشرة من عمره [illegible]

[illegible] عشرة، أصبح أكثر طولًا، أكثر إصرارًا على [illegible]

[illegible] يبتسم عم «غريب» وهو يستريح في جلسته أمام شاشة [illegible]

أشار إلى «عيسى» أن يقترب قليلًا، فاقترب «عيسى» حاملًا [illegible]

آخر فيديو «غريب» منذ أول لقاء، أمال «عيسى» الكاميرا [illegible] «غريب»

الفيديو في الشاشة الصغيرة الجانبية، كانت هذه عادتهما [illegible]

«غريب» ملحوظاته على الكادر وحركة الكاميرا، ليتعلم منه «عيسى» في شغف وينفذ كل ملحوظاته.. هذه المرة نظر «غريب» إلى الفيديو نظرة غير فاهمة.. والتفت إلى «عيسى» قائلًا:

- ليه ماعملتش اللي نبهتك عليه؟ وليه واخد الكادر من تحت قوي كده؟

ابتلع «عيسى» ريقه وقد توقع اعتراضه، لكنه ابتسم وأجاب بحماس:

- عشان ما اقتنعتش قوي بالملحوظات دي. حتى لو غلط فدا إحساسي

عقد عم «غريب» حاجبيه، في حين أكمل «عيسى» وهو ينظر إلى الأرض بخجل:

- وواخد الكادر من الزاوية دي عشان انت في عيني عظيم قوي.. حسيت إن من هنا هيديك حقك.. زي ما أنا شايفك

نظر «غريب» إلى «عيسى» في حنان ممزوج بالفخر، وقال بابتسامة مازحة:

- بقيت تتعدل عليا كمان؟

ليقول «عيسى» باعتذار:

- والله أبدًا.. ولا أقدر.

تذكره «غريب» في سعادة، ويقول بصدق:

- [illegible] يفتكر يا عم.. لازم بعد علينا وتنسى.. حسيت إن [illegible]

وبت الحديد.. الفهيم اللي بيعلموا الناس آراءهم يقولوا [illegible]

مندعين.. بيخرجوا [illegible] حيفضلوا مش فاهمين

ابتسم «عيسى» في ارتياح، ليسأل «غريب» بلهجة جادة:

- هو.. إنت دلوقتي هتخلص موضوع الفلم بتاعي دا.. [illegible] فكرة الفيلم الجاي؟

جلس «عيسى» على الأرض أمامه.. كان هذا هو ما يفعلانه طوال أربع سنين.. ما إن ينتهي من تنفيذ فكرة، حتى يطلب منه «غريب» فكرة أخرى لينفذها على الفور.. اعتبر «عيسى» هذا تدريبًا رائعًا؛ لذا فقد كان يؤديه بإخلاص.. على الرغم من رفض أهله وغضبهم مما يضيّع فيه وقته.. قال «عيسى» وهو ينظر بترقب إلى عيني «غريب»:

- فكرة غريبة وهتبقى مشروع عمري..

بدا الفضول على وجه عم «غريب»، واعتدل في جلسته.. ليقول «عيسى» بابتسامة شغوف:

- مشروع الـ١٨ بعد الـ١٨..

ضيّق «غريب» عينيه، فعتدل «عيسى» في جلسته ولمعت عيناه.

وبدأ يشرح بحماس غير طبيعي..

ومع كل كلمة يتفوها، يبدو على «غريب» التأثر أكثر وأكثر..

لينهي «عيسى» كلامه بسؤال:

- انت مثلًا يا عم «غريب».. كنت تتمنى وانت عندك ١٨ سنة تقول لنفسك إيه دلوقتي؟

ضيّق عم «غريب» عينيه لحظات كأنه يسمع عن السؤال، ثم تغيّرت ملامحه لحظات في شرود، دُهش «عيسى» عندما طفرت دمعة شجن بين مقلتيه المحمرتين، نظر إلى «عيسى» قائلًا:

ـ بطّل تخاف.

عقد «عيسى» حاجبيه في دهشة، ليكمل «غريب» كلامه في لحظة مصمصة نادرة لم تحدث من قبل:

ـ لو بطّلت أخاف يا «عيسى» كان زماني نفسي مخرج كبير دلوقتي بدل مانا بابيع الكاميرات للمخرجين..

وقال غامزًا لـ«عيسى»:

ـ سهّرت ليالي ويامـا لميت وطُفت وفي ليلة راجع في الضلام قمت شفت. الخوف، كأنه كلب سد الطريق وكنت عاوز أقتله..

عم «غريب» هو من جعل «عيسى» يعشق «صلاح جاهين»، جعله يقرأ أشعاره كلها، ابتسم «عيسى» وأكمل الرباعية:

ـ بس خفت..

سعل «غريب» كأنما يداري على دمعته التي لم تغادر عينه، ونظر إلى «عيسى» نظرة تحمل ألف معنى، وقال:

ـ بس عارف بقى؟ لو أنا هاسيب رسالة، نفسي أقولها ليا وأنا عندي ١٨ سنة.. هاقوله إيه؟

نظر «عيسى» بابتسامة متسائلة، ليقول «غريب» وهو يربت على كتف «عيسى»:

ـ خليك زي «عيسى الشواف».. الولد اللي عاوز يخلي البشر كلهم تشوف جمال الدنيا بعينه هو بس..

سرت قشعريرة في جسد «عيسى» كله، وتلك الجملة ترن في أذنيه في اللحظة نفسها..

«وفصل حائط حجري عن «عيسى» [illegible]»
ومن دون أن يدري، احتضن عم «غريب»

* * *

من كل تلك المشاعر والذكريات التي تتلاحق؟
سطع، نظرت إلى الفيلا في الحي الخامس، بعد أن أعطانا الشاب العنوان في حماس، وقدت عربتي تزيد على نصف الساعة حتى وصلنا، وقفت تحت الفيلا، أنظر إليها في حيرة..
لماذا يرجف قلبي بكل تلك الأحاسيس المتناقضة؟
قالت «سيرا» هامسة وهي تمد يدها لتمسك يدي:
- حاسس بإيه؟
نظرت إليها لحظات، لا أدرى ماذا أقول، ثم كعادتي معها قلت أول ما خطر ببالي:
- واحشني جدًّا وعاوز أطلعله.. في نفس الوقت حاسس إنه لو شافني هيجيله إحباط من اللي وصلتله..
تلك الصورة اللعين على الحائط ذكَّرتني كم كان هذا الرجل يؤمن بي، ذكَّرتني بكل شيء كان يراه في مراهق عادي، كيف سيراني الآن وأنا هذا الـ«عيسى» الذي دهسته الحياة واستسلم لها سنوات من عمره؟..
خرجت من العربة، وصلت إلى باب الفيلا المعدني، كانت فيلا قديمة نوعًا، فتحت الباب من دون استئذان، لم يقابلني حارس ليوجِّهني، كأن عم «غريب» ترك كل شيء على طبيعته ببساطة، ولم يترك الخوف يتحكَّم فيه فيعيِّن حارسًا ويركِّب نظامًا إلكترونيًا لفتح البوابة..
سمعت صوت مياه مندفعة من خرطوم، بمنتهى قلة الاحترام والقواعد والأصول، توجهت إلى الجهة الخلفية للفيلا لمصدر الصوت، عسى أن أجد أي شخص أسأله عن عم «غريب»..

[illegible]

يقف يسقي زرع الحديقة بخرطوم مياه

[illegible]

نادت عليه بصوتها المتحمّس:

- عم «غريب»..

التفت إلينا سريعًا من المفاجأة، ضيق عينيه لحظات لتزيد التجاعيد حول عينيه، ما زال مبكرًا يرفض أن يرتدي نظارة تُخفّف من نظره قليلًا، كان دائمًا ما يقول لي إنه يُفضّل أن يرى الدنيا بزغللة عينيه على أن يرى بزجاج نظارته، اقترب منّا ببطء، مع كل خطوة يخطوها نحونا، أسمع دقات قلبي العالية تزداد سرعة..

استمر ضيق عينيه كأنما لم يعرفني بعد، لم تتغير ملامحه بأي مشاعر، لاحظت عينيه تتجهان لـ«سيرا» لحظات وهي تصوب الكاميرا نحوه، لم يُبالِ بها واقترب مني أكثر حتى وقف أمامي، ونظر إلى عينيّ مباشرة.

ابتسمتُ في ارتباك، كنت أفتقده بشدة، ووددتُ لو عرفني فأركض نحوه وأحتضنه، تلاقت أعيننا ووقفنا صامتين لحظات صمت فيها الزمن كله..

ثم ابتسم..

ابتسم ببطء، فانفرجت أساريري أنا بدوري..

ثم هوى على وجهي بصفعة سمعت صوت صداها في المنطقة كلها..

* * *

جلس عم «غريب» بجانب «سيرا الصغيرة»، أمامهما «عيسى الصغير»، يتأمل تلك اللوحة الكبيرة التي كان يخطط فيها «عيسى» أكثر المحطات التي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

«غريب»، وقال:

- دورك مهم هنا قوي يا عم «غريب»..

[illegible]

بحماس:

- [illegible] واحد [illegible] أنا «عيسى» اللي [illegible].

- هو «عيسى» [illegible] خلاص [illegible] كل حاجة

ضحك «غريب» ضحكة مستهزئة، وقال بحيرة.

- وأعرف الفرق بينكم ازاي؟

هرش «عيسى» في رأسه، نكت بقلمه الأثير مفكرًا، ثم قال:

- لو أنا هلاقيني جايلك بكاميرا جديدة، وشكلي حلو كدا وفرحان، لو هو يبقى هلاقيني جايلك مش معايا كاميرا..

وهزّ كتفه وهو يكمل بحيرة:

- وشكلي ميت..

ضحك «غريب» في حنان، قالت «سيرا» رافعةً يدها:

- ممكن أنا ساعتها أقوله برضه.. أغمزله مثلًا ولا أي حاجة..

منذ أن بدأ التخطيط للمشروع، وتعرّف «غريب» إلى «سيرا»، صديقة العمر، قال لـ«عيسى» إن فتاة بذكائها وجمالها ستحقق حلمها وستصبح ممثلة ناجحة.

قال «عيسى» بتركيز وهو ينظر إلى «غريب»:

- الفكرة ساعتها بقى هتعمل إيه؟ عشان دا مهم..

قال «غريب» من دون تفكير:

[illegible]

[illegible]

ـ ما هو لازم حد يوقفه،

فكر «عيسى» لحظات، ثم هز كتفه وضحك قائلًا

ـ طول ما هو مش أنا دلوقتي، يبقى اضربه جامد بقى.. هتبقى لقطة حلوة في الفيلم..

ليضحك «غريب» و«سيرا» معًا..

* * *

رن صدى صفعته إياي عاليًا، شعرتُ بصوت صفير في أذني، وحسبتني أفقد توازني قليلًا بسبب الصفعة المفاجئة.

وضعتُ يدي على وجنتي في حركة تلقائية، وأنا أنظر إليه ثابتًا، ليجذبني إليه ويحتضنني بقوة..

قال بصوت عميق حنون:

ـ واحشني يا «عيسى» قوي..

تضارب كل شيء داخلي، شعرتُ بالدم يتدفق إلى رأسي، وفي الوقت نفسه أفتقده جدًّا، هل كان يقصد أن يثير كل تلك المشاعر داخلي؟ لم أفهم..

التفتْ ذراعي حوله، لأجده يربت على ظهري بطريقة جعلتني أريد أن أبكي فجأة، تركت عنقه بهدوء، التفتُّ له غير مصدق، قلت أول ما جاء بخاطري:

ـ انت لسّه عايش ليه لحد دلوقتي؟

ليضحك ضحكة عالية، ويربت على كتفي قائلًا:

ـ عشان مستني أشوف فيلمك لما يطلع..

احتضن «سيرا» بشوق مرحبًا بها، جذبني لنجلس على مقعد خشبية

كنت أحدثه أو أتعامل معه.

هذا التفكير أرعبني.. هل ... أمزح معه بطريقتنا

القديمة.. هناك شيء ما خطأ

ثم تذكرت.

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٤ - "يُبعدك الطرف الآخر عن عدد من الأصدقاء.. إما بافتعال المشكلات معهم وإما بكراهيته المطلقة لكل من قد ينصحك بالابتعاد. يخشى دائمًا أن يكشف عنه من يرى تأثيره التدريجي عليك. ستسلم بعد فترة من الحرب البسيطة للحفاظ عليهم وتختفي من حياتهم. عندما تعود بعد انتهاء العلاقة لن تستطيع التعامل معهم جيدًا. هم ينتظرون الشخص القديم وأنت لم تعُد تتذكر أي شيء عنه"..

كان يتأملني نظرته حيرة، فزاد ارتباكي، تحولت عيناه إلى "سيرا" ليرحمني قليلًا من التحوُّل في روحي، وقال:

- إيه الأخبار؟

لتقول نظرة إليّ بحنان شعرت أن هناك بعض الشفقة تتخلله:

- لسّه بعيد..

يهز رأسه في تفهُّم، في حين يزداد غيظي وارتباكي، لماذا يتحدثون بتلك الطريقة المستترة؟ لماذا يصدقون طفلًا لم يتجاوز الثمانية عشر عامًا ويشعرونني أن العيب فيّ أنا؟

نظر "غريب" إلى "سيرا" ثانيةً وقال بلهجة عملية:

- جبتي الفلوس؟

[illegible]

وعندما وجدت نظرتي المتسائلة، قالت:

- هتفهم كل حاجة، ماتقلقش..

[illegible]

- معايا آه.. ٧٠٠٠ جنيه..

رفع حاجبيه وقال مستنكرًا:

- بس؟

ونظر لي بابتسامة أبوية:

- ١٨ سنة وماحوشتش خالص؟!

[illegible]

- الدنيا بقى.. أصلي اتجوزت..

[illegible]

[illegible]

حضرتك دي؟

[illegible]

- معلش ساعة، هو ما يقصدش.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

سخريتي:

- [illegible] بحسسني [illegible] وعارفني أكتر من نفسي [illegible]

[illegible] حرام، ومسيره يرجع لي

وقلت مُشيحًا بيدي:

- [illegible] وراجل عنده ١٨ سنة.. وحسسني إنه الولد المطيع لي [illegible] عشان حياتي تمشي بس أنا مش شايف كدا..

[illegible] و«عريب» نظرة أسفة استفزتني أكثر، نهضت من مقعدي [illegible] وبدأت العصبية تتسلل إلى صوتي.

- [illegible] ما تنسوش فهم حاجة زمان.. لما نكبر بنتغيّر وسفى [illegible] دلوقتي أحسن من «عيسى» بتاعكم دا كتير..

[illegible] هذا الغضب؟ هل لأن صفعة «عريب» [illegible] كل ما [illegible] يعطي أحدٌ الحق لنفسه أن يهينني وأنا في [illegible] من عمري؟ [illegible] يبيح جميعُ مَن حولي لأنفسهم أن [illegible] أن [illegible] تذكرت وجه خال طليقتي وهو يسحر [illegible] رجلًا [illegible] وجه طليقتي الشامت وهي تعلم أنها قلبت موازين العالم

ـ «عيسى»!

وأطرد مرة اسمه «عيسى القديم»، هاربًا من كل شيء!

نظرتُ إلى «غريب» الذي نظر إليّ لحظات، ثم ابتسم لسنفري أكثر وهو يلتفت إلى «ميرا» قائلًا:

ـ دا بعيد خالص..

صرخت من دون أن أحرم أي شيء داخلي يجبرني ألّا أصرخ:

ـ بطلوا تتكلموا عني كإني واحد تاني..

وضربت صدري بقبضتي بقوة وأنا أصرخ

ـ أنا هو أنا.. أنا مش واحد تاني..

كانت ضربتي غير مطلقة وضعيفة، لكني شعرت بجسدي كله يرتجف من الانفعال..

* * *

قال «عيسى الصغير» ناظرًا إلى «غريب» نظرة مكتئبة، في وقت ما:

ـ أنت ممكن أتعب قوي.. وكمان ١٨ سنة ما اتعدتش، ثم [illegible] الفيلم دا أصلًا.

[illegible]

بابتسامة متوترة

[illegible]

اللي مكسبي:

[illegible]

[illegible]

دي..

لتهبط دمعة «غريب» الحانية.

* * *

بدا الخوف على وجه «سيرا» وهي تنظر إلى نعلي، لكن «عيسى» قال بصوت صارم وهو ينظر إلى مباشرة بعينين خرسانيتين:

ـ «عيسى» طبعًا.. بس مش «عيسى» اللي أنا أعرفه.

ونهض من مكانه ليقف أمامي. أهلكه الزمن وأصبح أقصر قامة مني، لكن نظرته جعلتني أشعر أنني أقصر منه بكثير. قال بلهجة صارمة:

ـ لو مفيش حد غيرك كان قالي على الموضوع بتاع الفيلم دا ماكنتش هصدقه ولا أمشي وراه..

وأكمل وعيناه لا تتزحزحان عن عينيَّ لحظة:

ـ انت كان فيك كل العبر.. كنت عيل فاكر نفسك دمك خفيف وهو مش. كنت مكتئب وفاكر نفسك أكبر من صحابك.. ما كانش لك صحاب كتير عشان باعد نفسك عنهم. قافل على روحك وبتقرَّب منهم بس ما بتقربهمش منك.. كنت عيل عادي يعني.. زي كل العيال اللي في سنك..

وأشار إلى «سيرا» من دون أن يلتفت إليها

ـ الوحيدة اللي استحملتك هي البت الغلبانة اللي قاعدة ورايا دي.. شافت فيك اللي أنا شفته..

[illegible]

مريم ملس

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- إنك كنت تصدّق يا «عيسى».

[illegible]

وقال بهدوء:

- [illegible]

والدم اللي يلطش والكآبة..

وأشار بسبابته أنّ «لا» وهو يكمل:

- وأنا مش هعمل زي ما انت عاوز و هفضل أعيط عشان عيشتي في دور الضحية دا كتير. هات الفلوس وامشي. ولو مش عاوز ترجع - حتفضل - حبيبي. حياتي مش هيحصل فيها حاجة. انت اللي هتفضل تخسر حاجات.

انعقد حاجباي في عدم فهم، وقلت:

- انت عاوز الفلوس دي ليه أصلًا؟

لينظر إليّ نظرة يائسة، ثم يتركنا ويدخل الفيلا من دون أن يتحدث

* * *

قال «عيسى الصغير» لـ«غريب»:

- هنديني كاميرا أحدث نوع ساعتها.. عشان أصوّر العالم والناس اللي فيهم بـ«كواليتي» حلوة وطريقة احترافية.

قال «غريب» بتركيز:

بس دي [illegible]

[illegible]

وخراب دماغ..

[illegible]

• • •

[illegible]

[illegible]

- [illegible] في عينة تصعيب [illegible] عدم فهم

- [illegible] ليه؟ أنا مش معايا ربع فلوسها.

[illegible] نظرة «غريب» الأبوية تعود إلى عينيه، وهو يبتسم ابتسامة واسعة قائلًا كأنما يتذكر:

- عادي.. ماتشيلش هم..

قلت معترضًا وأنا أبتعد عنه خطوتين:

- لا طبعًا أنا مش هاقبل بكدا..

ليريح «غريب» يده الممدودة، وينظر إليّ بحنان، ويقول:

- أول كاميرا اشتريتها مني.. خدت منك ٢٠٠ جنيه..

ثم ضحك وقال ناظرًا إلى «سيرا»:

- كانت ساعتها سعرها الحقيقي ألفين ونُص..

ثم رفع يديه بالكاميرا ثانية، وقال ناظرًا إليّ بسعادة تسع كل ما يحيّر في المهلك:

- بس أنا كنت باستثمر في البني آدم.. مش في الكاميرا..

واكمل:

[illegible]

وغمز بعينه قائلاً بجذل:

[illegible]

* * *

وقفت على [illegible]

الغروب..

[illegible] أي [illegible]

عرفته في حياتي..

[illegible] «حسام»

[illegible]

وقابلت عم «غريب»..

[illegible] حتى الآن

أشعر بالتعب من كل شيء..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

سمعت صوت [illegible]

[illegible] على السطح،

[illegible]

- [illegible]

[illegible]

- مش قادر ومش عاوز..

[illegible]

- عيسى أمر.. مابفهمش ماتنقاش

وامسكت بيدي وهي تسحبني [illegible]

- أنا المرة دي اللي عاوزة أرقص

هل كانت عيناها دامعتان؟ لم أستطع أن أتبين. كانت أغنية فرنسية حانية، بدأ جسدها يتمايل كراقصة محترفة في حركات [illegible]، جعلتني أنظر إليها بشرود.. هناك حالة ما فيها سحبتني..

Il faudrait être des dieux, il faudrait être fort..

يجب أن نكون آلهة، يجب أن نكون أقوياء

Comme si mouiller des yeux, c'est pour ceux qui ont tort..

كما أن العيون تدمع، لأولئك الذين كانوا على خطأ..

وضعت يدي على خصرها الذي تموّح تحت يدي في حركته الهادئة، لأشعر بإيقاع روحها المكسور يتحلل داخل قلبي..

ما بها؟

Il faudrait danser, et cacher sa douleur..

يجب أن نرقص لإخفاء آلامنا..

Être le dernier à pleurer, jamais montrer sa peur..

كُن آخر من يبكي.. لا تُظهر أبدًا أنك خائف..

وضعت يدها على رأسي من الخلف لأقترب من جسدها الراقص، نظرت إلى عينيها لأدرك حقيقة أنهما دامعتان، على الرغم من ابتسامتها الساحرة الخجول وهي تهز كتفها على إيقاع الأغنية الفرنسية ذات الطابع الإسباني..

ابتسمت وبدأ جسدي يتمايل معها..

[illegible]

Comme si baisser les bras c'est pour ceux qui perd [illegible]

[illegible] الثابتة على حضرهه لتتسع

[illegible]

[illegible] تنادبالـ..

[illegible]

Il faudrait cogner, et puis bomber le torse.

[illegible] ونفخ عن صدورنا

[illegible] حول [illegible]

[illegible] الصغر، [illegible]

[illegible] فيستقبلها صدري الخافق، وتتلاشى [illegible]

Être le premier à crier plus fort..

كن أول من يصرخ بصوت عالٍ

[illegible] أطول [illegible]

ما هذا الذي أشعر به؟

[illegible] الشعور بالابتعاد عن كل شيء، تلك [illegible]

[illegible] أكثر ممّا [illegible]

[illegible] كل شيء فيك، تشعر أنك [illegible] فجأة، لا يكسفه

[illegible] أسطورية تُشبه عالمه.. [illegible] كان [illegible]

[illegible] روحي فتركت نفسي [illegible]

[illegible]

قلت بضعف هامسًا:

ـ أنا مش قادر أحب..

لترد ردًا أذابني:

ـ وأنا كمان مش قادرة أحب..

وتهمس:

ـ بس عاوزة أعيش..

لتتلاقى شفاهنا في قبلة هادئة..

Mais que Dieu me pardonne..

لعل الله يسامحني..

J'ai tout fait à l'instinct..

لقد حرّكتني الغريزة..

Moi je ne suis qu'un homme..

أنا فقط مجرد رجل..

Peut - être un bon à rien..

لا أجيد أي شيء آخر..

تحوّلت القبلة الهادئة إلى شيء أكبر، غمر روحي شعورٌ بالاستكانة كان هذا مكاني منذ البداية.. ذاب فمي في فمها فعشقت طعم روحها.. تحرّكت يدي لتمر على ظهرها وتمر يدي الأخرى على شعرها الناعم لأقرّب رأسها أكثر لي فلا أترك لها خيار الابتعاد..

كأنها ستختار أن تبتعد..

وضعت «سمرا» يدها على رقبتي في استسلام تام، إنها تعذبني.. الألم لدي لن يشعر به سواي.. ألم بالعمق الكوني الذي لن أنساه إلا بتلك اللحظة التي

يتشي فيها العلم بأكمله..

الخطوة الرابعة عشرة لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: اترك نفسك لحظات. توقف عن منع نفسك كما اعتدت خوفًا من العواقب.. تعلم كيف تستمتع من دون قلق النتائج.. صدّق أنك حر الآن.

استمرت الأغنية الصاخبة تدوي حلمي..

تركة إيانا تداوي آلام أرواحنا بإحساس صدق..

في قبلة بدت أنها لن تنتهي أبدًا..

* * *

(١٠)

قضبان

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لم يزد الأمر على قبلة..

[illegible]

ثم ودعنا بعضنا في هدوء..

لم تكن تحتمل تعقيدات الجنس في علاقتنا..

سمعت صوت طرقاتها على باب الشقة، ذهبت مسرعًا وفتحت [illegible]

لأجد شفتيها مشرقة وعينيها اللتين ذهب ذلك الحزن منهما، قالت وهي تدخل:

- قدامنا لسه طريق طويل..

ضحكت أنا وقلت بهدوء:

- طب أفطر الأول..

لحظة صمت أخيرة، تظاهرت أن شيئًا لم يكن. بعمق صداقتنا عرف معنى [illegible] تحت لحظة تغير أي شيء، لحظة ساحرة مرت ولكن لا يوجد أحد فينا يتحمل عقبات التغيير وتعقيدات المشاعر الآن..

قلت بصرامة [illegible]

- [illegible]...

[illegible] أمسكت الهاتف [illegible] صوت أبي [illegible] يقول:

- تعالى حالًا..

[illegible]

- أما لسه صاحي [illegible] فيه حاجة؟

[illegible]

- حضرتك عرفت منين؟

ليرد بصوت بارد كالثلج:

[illegible]

[illegible]

[illegible] السؤال المحتوم.

- فيه إيه؟ قلقتني!

بدأت في ارتداء ملابسي بسرعة، وقلت [illegible]

[illegible] لازم أروحلها، حاسة إن هناك حد ما [illegible] عليها

نظرت إليّ غير مصدقة، مدت يدها إلى [illegible]، لأحد الكروت الخاص

بـ«عيسى الصغير» في يدها، نظرت إليها معتذرًا وأخذت الكارت، أكملت

ارتداء ملابسي وركضت خارجًا

* * *

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٥ «يصادقون أحادي الأبعاد سهل التحكم فيه، ولا يحبون إلا الشخصية الذكية كثيرة الأبعاد وصعبة المنال، لذا فعندما تدخل علاقة وعن كل من يحيط بشريكك من الأصدقاء المقربين ضعيفًا وبلا ملامح .. اسعد.. الشريك فيه سم قاتل»

* * *

وصلت إلى الفيلا، [illegible]
[illegible] سمعت صوت أبي الصارم من الصالة في الخارج
- تعالى يا «عيسى»..
توقفت عن [illegible]، الصالة هي مكان [illegible]، مكان استقبال الضيوف
ولاجتماعات [illegible]، هنا جلسنا وقت [illegible]، هنا [illegible]
مرض والدي، جلسنا قبل زفافي، هنا مكان الجلسات المهمة
ذهبت بخطوات بطيئة، وجدت أبي جالسًا ينظر إلى الأرض، في حين
تمسك أمي هاتفه المحمول وتنظر فيه، حمرة وجهها جعلتني أدرك [illegible]
لم تدعني أجلس، وجهت شاشة الهاتف صوبي وقالت بلهجة مذعورة:
- إيه دا؟
اقتربت ببطء، أمسكت الهاتف الذي تيقَّنت أن هناك مصيبة ما داخله..
وجدت رسالة في تطبيق «واتساب» من خال «أسماء».
- مش عارف أشكر ابنكم ازاي، بيسهِّل علينا الدنيا قوي.
وهناك، بعد تلك الرسالة، أكثر من خمسة وعشرين «فيديو»، وأكثر من خمسين صورة..
كلها لي أنا و«سيرا» على السطح البارحة..
فتحت فيديو منها، لأجد ما توقعته..
قبلتي أنا و«سيرا»..
شعرت بأن الأرض تختفي تحت قدميَّ، وبرغبة في السقوط، تماسكت ولم أقع، لم أُبدِ أي رد فعل بأسلوب تعلمته من أبي، عقلي يصرخ بي يطمئنني: «هذا لا يحدث لك، هذا يحدث لشخص آخر»..
قرأت آخر رسالة أرسلها خال «أسماء»:
- كدا الكلام اختلف، اللي مع ابنكم دي لو مش عارفين ممثلة مشهورة قوي، متجوزة منتج معروف، ودا يثبت إن ابنكم مش راجل، [illegible]، ومش

[illegible]

عقدت حاجبيّ في حيرة حقيقية

متزوجة؟!

قلت باعتراض وأنا أشعر أنني منفصل عن الواقع تمامًا

[illegible]

أن التاريخ لأحد أيام منذ أسبوعين فقط

قبل أن نلتقي بفترة قصيرة!

ما هذا الهراء؟

رغمًا عني شعرت بصدري يضيق، وأنا أتذكر..

* * *

قبل حفل زفافي بيومين فقط، حدث شجار كبير بيني وبين «أسماء» عندما هددها زوجها السابق بالانتقام منها وهدد بأنه سيؤذيها، فخافت «أسماء» وتحدثت لعزة، لأكتشف كل ذلك فجأة بالصدفة..

وكان أكبر شجار خضناه في وقتها.

لعلة أعرفها في شخصيتي منذ زمن، أفعل كل شيء في الحياة كما لا تدري، منعتني «أسماء» من التدخل في الأمر نهائيًا، استخدمت [illegible] الدفاعية، حتى إنها ذكرتني بكونها أكبر مني بعام، وتعرف كيف تحل الأمور بشكل مناسب، بكت وهددت وتشنجت وصرخت و[illegible] انتهى بأنني الظالم الذي لا يقدر خوفها كالمعتاد..

هل كان خوفها من الأذى يبرر إخفاءها أنها تحدثت زوجها السابق؟ هل

[illegible]

وزوقي بقي عليه يومان فقط...

لأشعر بالعجز..

* * *

[illegible]

مبينًا عن حقارة كل ما أرى:

- وحدين يعني؟ هو عوز إيه؟

نظر إليّ في وقت بمملية كعادته:

[illegible]

مع بعض.

[illegible]

[illegible]

ورمقني بنظرة أكثر غضبًا وهو يقول:

- والمفروض تعد لوحدك عشان سمعة البنت.. كفاية اللي هيحصلها

[illegible]

* * *

[illegible]

زوجها السابق..

[illegible]

تأكدت أنه رجل قذر..

[illegible]

كان يخدعني..

[illegible]

[illegible]

بعده "أن عشقها له سم قاتل".

[illegible]

ذلك الحين..

كلمت «أسماء» أخبرتها بما حدث، ضحكت وسخرت من [illegible]

وصممت نفسي بأني سأكون بخير..

* * *

لكني لم أكُن بخير أبدًا..

- بالمناسبة!

قالها أبي بعد أن قل حمته الأخيرة، انتزعني من ذكرياتي فاكتشفتُ أنني ما زلت واقفًا في منتصف الصالة، نظر إليَّ نظرة تحذيرية، قلّما ينظر إليَّ أبي نظرات تحذيرية، قال بهدوء:

- سواء البنت دي متطلقة أو هتطلق.. مفيش حاجة اسمها إنك تجيلي كمان شهرين تقولي بحبها يا بابا وعاوز أتجوزها..

وأكمل باشمئزاز لا يقصده ساخرًا:

- أصلك حنيّن كدا وطري.. بنت خبيثة ومفيش أمور لا حد يشكمها.. هتصعب عليك وتضحك عليك.. تلف دماغك فالاقيك بتقولي بحبها يا بابا .

واصبحت نبرته أكثر حدة وهو يقول:

- واحنا مش ناقصين قرف..

[illegible] أمي كلامه في [illegible] مسكر [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

من الخجل؟

[illegible]

أعلى أبدًا من الخزي والعار؟

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- ليه؟

[illegible]

[illegible]

حتى لو كانت عاهرة [illegible]

لماذا أحكم على أي شيء في صورتها وأنا أعرف شخصيتها؟

أليست هذه حريتي؟

لماذا المنع في الأساس؟

قال أبي وقد بدأ يدرك تطرفي:

[illegible] عاجلك الله إحنا [illegible]

[illegible]

[illegible]

نظرت إليه لحظات بغضب..

ذلك [illegible]

أسلوب تحكمي صرف..

* * *

- [illegible] إني ما تدخلش في [illegible] ولادتي في الجواز.

قد [illegible] في اليوم التالي، عندما حكيت له ما حدث مع «[illegible]»، [illegible] أبي بجملته، ويكمل بعدها:

- فكرة [illegible] ما تخورتش قبل كده، [illegible] وحدة [illegible] صعبة، بس حالتك [illegible]، وهي طليقها مش هيسيبكم في حالكم..

كنت متعبة من كل شيء.. [illegible] الزواج وشجاري مع «أسماء» ثم ذهبت كي أطمئن نفسي وأطمئنها.

عندما ذهبت إلى «أسماء» في شقتها حتى أطمئنها، [illegible] تبكي وتحكي لي عن خوفها وقلقها مما حدث، عن الصدمة [illegible] عندما واجهت طليقها، كيف كانت ستمر من [illegible] لأنها تذكرت

أسمح لمخلوق بأن يؤذيها..
لتبكي في حضني بمهارة
كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٣ - «دائمًا ما ستلتمس الأعذار حتى في المصائب التي لم تحدث لك. ستبرر للشريك مصائبك وتغلفها بطريقة حسنة من الاستعطاف بقصة حدثت له هو. تجد نفسك في عقلك الباطن تشعر أن ما حدث لك سبب في تدميره هو، تهوّن عليه وتحتويه وتحاول أن تسعده، ناسيًا أنك أنت من تستحق الرعاية والاحتواء»..

عدت إلى البيت لأكمل تمثيلي المقنع..

حدثت أهلي وأمثل أني واثق وهادئ حتى لا يقلقوا. لدى المصريين نزعة تحت الرغبة الأدبية، أن يجعلوا ما يحدث لك داخل دراما قصصهم هم. أيام مرضي كانوا يحكون لأقاربهم مدى إرهاقهم وتوترهم النفسي، وبسبب ما أشعر به..

لكنها صفة أتقبلها فيهم
جميعنا أنانيون..

قلت بإرهاق لأطمئنهم كعادتي، راسمًا أكبر ابتسامة مزيفة رسمتها في حياتي:

- أنا عارف إنكم قلقانين، بس الموضوع مالوش علاقة بـ«أسماء». طبيعي ده كان راجل مجنون وراح لحاله..

قال أبي بحرص، عالمًا أنه يحدث شخصًا قد استنفد طاقته كلها:

- «أسماء» مش وحشة. الحاجة الوحيدة اللي شايفها فيها إنها متدلعة قوي.. عصبيتها وحشة وانت مش هتعرف تتحكم فيها في خناقات.. بس الوسط والمحيط اللي حواليها مش زينا يا «عيسى».. الناس دي بنزل قوي

عشان القرش.. دول هسقوا حدود عيالك

أومأ برأسي في تفهم، أدرك تمامًا طبيعتهم وقصدهم، فلديهم [illegible]
في الانسحاب من الأساس، وانصرف مع «أسماء» على هذا [illegible]

- [illegible] بكره يا بابا، واحنا [illegible] أنا عارف إن [illegible]
وحشة.. بس لو اتطلقنا ولو في يوم من الأيام ده يحصل [illegible] «أسماء»
وأنا مش هاسمح بدا..

وقلت بثقة:

- ما تخافش..

لم يسمع بحرف، لكنه نظر إليّ بحيرة، قال بهدوء:

- انت حر يابني.. دي حياتك واختياراتك.. أنا حلفت زي ما قلتلك إن عمري ما هاتدخل.. ربنا يباركلك..

* * *

والآن، لأنني اخترت اختيارًا خاطئًا، لم أعُد حرًّا.. وذهب وعد عدم التدخُّل أدراج الرياح..

لم تعُد حياتي.. بل حياتهم..

كرهت ذكرياتي وكرهت وقوفي أمامهم، عندما ذكر أبي اختيار «أسماء»، كانت حركة استراتيجية منه ليكسب النقاش..

ويخسرني..

أردت أن أصرخ أن لا أحد له أن يتدخل، لأحب من أحب وأكره من أكره، حتى لو وقعت في غرام الشيطان نفسه، لكن كعادتي الأثيرة صمتُّ..

لن يفهم أحد منهم..

ذلك المفهوم البسيط المدعو «حرية مطلقة»، حرمته أجيالٌ من المتحشِّبين ذهنيًّا، الخائفين من كل شيء حتى أنفسهم، الباحثين عن الأمان حتى لو

[illegible] أنفسهم في [illegible]

[illegible] الفرص والأخطاء [illegible]

ذلك الجيل الذي [illegible]

يدّعي [illegible] من أجل [illegible]

[illegible] أن يشعروا به [illegible]

على تلك المفاهيم الخاطئة. حاولت [illegible]

بكلمة واحدة [illegible] جميعهم أمامها [illegible]

إجابة واحدة عنها [illegible] الأمر في النهاية إلى [illegible]

النقاش:

ـ هو كذا [illegible]

مددت يدي لأبي لأعيد إليه المنفضة، قلت وأنا أنصرف

ـ أنا محتاج أشم هوا شوية..

قال بصوت عالٍ كي أسمعه قبل انصرافي:

ـ ترجع شقتك النهارده..

الخطوة الخامسة عشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: **لا تسمح ثانيةً لأي مخلوق على وجه الأرض أن يتحكَّم فيك أو يسيطر عليك أو يجبرك على شيءٍ ما لا تريده.. أنت ملك نفسك من الآن فصاعدًا..**

لم أبالِ وأنا أغلق الباب بعنف..

كارهًا كل لحظة تمر في الحياه الآن..

* * *

(١١)

وخامس الكنوز

وأنا في الضلام.. من غير شعاع يهتكه
أقف مكاني بخوف ولا أتركه
ولما ييجي النور وأشوف الدروب
أحتار زيادة.. أيهم أسلكه؟
وعجبي!

صلاح جاهين

[illegible]
أن أرد عليها.

[illegible]

[illegible]

[illegible] حتى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في الكلام كثيرًا [illegible] [illegible] «عيسى القديم» من كان يفعل ذلك، كان يضع صفات لأرواح صفات حقيقية وأناس يقابلهم، [illegible] [illegible] «عيسى» كان يعرف الأرواح من البشر ويضع صفات من لحم ودم..

حكيت لها كل شيء، وهي تنظر إليَّ في تركيز تستمع، حتى صمتُّ تمامًا، هزت رأسها وقد أدركت هول الموقف، قالت بهدوء:

ـ بس طبيعي يعني.. أهلك مستحيل يصدقوا حاجة [illegible] «عيسى» ماتظلمهمش..

نظرت إليها بغضب، ثم قلت بعصبية:

ـ حتى لو غلطت معاها.. إيه المشكلة؟ الكل بيحب في [illegible] في لحظة ضعف؟

هزت كتفها وقالت بهدوء:

[illegible]

روح مكان ماب برطع فيه..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

سمع عن «لا ضرر ولا ضرار»؟

وكملت محدثة شخصاً وهمياً لأوضح المثل

- يا سيدي أنا مش موافق على أفكارك ودماغك، لأصوم [illegible] هسيبك تعيش حياتك ومش هاضايقك في المقابل انت مش هتفرض على دماغي نفسي في حالي أعيش، وأنا دماغي وطريقة حياتي ومبادئي مش هتفرض عليك عيشتك في حاجة.. صعبة دي؟

نظرت إليّ لحظات، شعرتُ أن نظرتها مترددة، فقلت صائحًا:

- قولي.. إحنا مابنخبيش على بعض حاجة . ومابنزعلش من الصراحة

نظرت «آن» إلى الأرض لحظات، ثم قالت من دون أن تنظر إليّ:

- انت تعرف عني إيه يا «عيسى»؟

انعقد حاجباي من غرابة السؤال، ثم فاض بي الكيل فقلت بسخط:

- لا ماتقوليش إنك هتحكيلي عن مآسيكِ دلوقتي وإنك موجوعة برضه وأنا مش حاسس..

نظرت إليّ نظرة مستهزئة، وقالت ساخرة:

- مآسي؟ لا يا عم ما تقلقش.. أنا قصدي تعرف إيه عني.. عن شخصيتي.. لو حد قالك اوصف «آن» هتقوله إيه؟

[illegible]

[illegible]

والحواز عشان اتمشى كتير ل حانك.

[illegible]

- [illegible]

[illegible]

- اوصفلي «أسماء» كدا..

قلت وقد بدأت تضايقني بأسئلتها:

- صحبة عمري. دمها خفيف ومؤمنة بحلمي.. بتفهمني وبتحاول تنفذ معايا مشروع عمري.. ناجحة في شغلها وكارهة الحب والجواز عشان اتطلقت قريب.

ثم نظرت إلى أعلى مفكرًا، وقلت بحيرة:

- هي قالتلي انفصلت من سنتين، وعرفت بعدها إنها لسه متجوزة.. مش عارف!

قلت بهدوء وابتسامتها يبدو عليها الانتصار:

- يعني لو جيت تقدّمنا لأي حد.. مش هيعرف نلاقي فرق.. نفس الشخصيات بالنسبة لك ومش أنا وهي بس.. «ياسين» و«درية» و«شمس» وكل أصحابنا.. مش شايفهم؟ مش شايف اللي بيعملوه عشانك؟ مش شايف حياتهم ولا اللي جواهم مخليهم مختلفين؟

بدأ صبري ينفد من عدم فهمي، فهمَتْ «آن» ضيقي، فقالت مفسّرة:

- انت عايش من ساعة الطلاق بعينك انت بس، «أسماء» خدت منك

[illegible]

يفهموا.. واحنا بشر يا «عيسى»..

[illegible] عدم الأمان [illegible]

ـ بلاش لنلاقي حد بيصوّرنا ولا حاجة.

رفعت إصبعها الوسطى في الهواء، [illegible]

ـ يلعن أبوه.. مابيهمنيش..

أشعرتني حركتها بثقة ما، فرفعت يدي بالإصبع، وانتفضت [illegible] صائحًا

ـ يلعن أبو الدنيا كلها..

ضحكت «آن» فضحكتُ معها لأول مرة منذ الصباح، قالت مكملة كلامها الذي قاطعناه كي نسب معًا العالم أجمع.

ـ أنا مستنياك تفوق وترجع «عيسى» اللي مياخد باله من تفاصيل اللي حواليه. خد وقتك عشان دا حقك.. بس كلنا مستنيين الوقت اللي تسيب عينك شوية وترجعلنا تاني زي ما كنت. ونصبر عليك كلنا لحد ما هم فهموا الصح بتاعك ويسيبوك في حالك. فما تلومش على أهلك. هم برضه بيكتشفوا عنك بلاوي ولسه مستحملين وفي ضهرك..

أدركت أن كلامها يحمل كثيرًا من الصواب، أنا لا أعلم أي شيء عنها، منذ أن ذهبت إلى «سيرا» لم أسأل عنها مرة، لا أعرف هل تغيرت مثلي أم ظلت كما هي، ماذا تفعل في حياتها.. لا أعرف أي شيء.. صمتُّ لحظات وأشعلت سيجارة.. قلت ما حاولت الهروب منه منذ لحظات:

[illegible]

- مش قادر على أماحة دلوقتي..

ضحكت وقالت:

[illegible]

قلت بلا مبالاة احترفتها:

- لا يمكن.. مافيهاش فايدة..

[illegible]

[illegible]

[illegible] بصوت عال

* * *

- «عزيزي (عيسى)

تسألني عن سر تكاتفنا، سر ذلك الأمل الذي لا ينتهي، سر حماستنا المتجددة في كل من نقابل! كيف نحول برتق عسرتنا إلى أعطاء دائم يسعد كل من اقترب منك؟

اهدأ..

سأخبرك الآن بكل شيء»..

ضحكت «آن» وقطعت قراءتها، ونظرت إليّ قائلة:

- انت كنت فلحوس من زمان كدا؟

ابتسمتُ وأومأتُ برأسي أن نعم، لتكمل هي:

- «أنا وأنت نعيش حياة كاملة من اللاشيء..

تشاجرت مع أبي منذ قليل في منطق أن حياتي كلها عبارة عن نتائج. نتيجة الثانوية العامة، نتيجة سنوات الدراسة الجامعية، تقييمي في العمل وزيادات مرتبي.. هكذا يُقيِّم نجاحي كإنسان.. يرى أن الإنسان لا بُدّ أن يكون سلسلة نجاحات متصلة ليستمتع بحياته..

وأنا وأنت نختلف عنه يا (عيسى)..

كل مَن حولنا يلعبون اللعبة لينتصروا، متعتهم كلها في الانتصار، فلا يشعرون بشيء إلا عند النهاية ومعرفة النتيجة مأساتهم في نظرنا أنهم ينتظرون النتيجة ليشعروا، سواء بالفرح أو الحزن.. فكفوا عن الشعور.

لكن أنا وأنت طول عمرنا نعشق اللعبة نفسها. ومن يعشق اللعبة لا يهتم إذا خرج منتصرًا أو مهزومًا.. تكفيه تلك المتعة الخالصة من التي دخل فيها بإرادته.. تلك الرحلة التي نعشق تفاصيلها..

ولهذا تختلف نظرتنا عنهم تماما

[illegible] عليك، لكننا لا نبالي.. ولهذا يعتبرون

[illegible]

[illegible] أحيانا في انتصار

[illegible]

[illegible]

يستحق المجهود أم لا [illegible]

[illegible] في قصص [illegible]

لهذا أعلم أنك تحب «إدغار» [illegible]

هل تتذكر هذا الكلام؟ هل ما زلت [illegible] يا (عيسى)، أم

أصبحت مثلهم تهتم بالنتيجة؟

والأسوأ.. هل تركتهم يسيطرون عليك بسبب فشلك؟ هل أصبحت

تريد أن تنجح بمعاييرهم؟

عُد واستمتع يا (عيسى)..

لا تهتم إلا باستمتاعك باللعبة.. حتى عندما يأتينا الموت

نموت بأكثر الابتسامات سعادة في التاريخ»..

ابتسمت «آن» ابتسامة حانية، قالت وهي تنظر إليّ:

ـ حلوة اللعبة..

هززت كتفي بلا مبالاة، لتنظر هي إلى الصفحة المقبلة، قالت بصوت

حماسي وهي ما زالت تصوّر الكارت:

ـ «اللغز الرابع..

عمك (جاهين) قال لك يا (عيسى): (وأنا في الضلام من غير شعاع

يهتكه.. أقف مكاني بخوف ولا أتركه؟).. وأنا هنا أحدثك عن أول شعاع

لمس قلبي وقلبك.. جعلنا نعشق الحلم ولا نتأخر عنه.. شعاع أضاء لقلبي

وقلبك دنيا لم نحلم بدخولها.. أول كل إحساس يا (عيسى) يترك أثر فارقا

في حياتنا..

وفي نهاية اللغز الرابع والكثر الخامس أقول هذا احتمال لـ«عيسى الكبير» [illegible]

داخلك..

إنما يدرك.. يجدني».

[illegible] في سحر [illegible] «آن» في عدم فهم

- انت عارف الحل؟

أومأتُ برأسي أن نعم، حتى الآن كل الألغاز سهلة جدًا بالنسبة لي،

قلت بهدوء:

- قصده عن [illegible] أول مرة [illegible] كانت [illegible]

قالت «آن» في حيرة:

- والمفروص نعمل إيه دلوقتي؟

[illegible] حدث صباح اليوم:

- المفروض هروح هناك مع بعض. هلاقي حاجة هناك «عيسى» [illegible]

[illegible]

قالت بفضول:

- إيه هي؟

[illegible] لأدخلها:

- مش فاكر..

[illegible]

- مش [illegible] كل

[illegible]

[illegible]

[illegible] على هذا

[illegible] كثير من

[illegible]

مع [illegible] وشكلها في كل شيء.

[illegible]

- «سيرا» بدأت طريقها. هتقابلنا هناك..

[illegible]

- نجرب بيتك..

قلت بتوتر وأنا أنظر إليها:

[illegible]؟

[illegible] شعرها القصير الذي [illegible]

- ماتخافش.. كدا كدا لازم تعرف..

[illegible] ثم بدأت طريقي شاردًا.

* * *

[illegible] «أسماء» صارخة وشياطين الغضب تقفز من عينيها ترغب في قتلي:

- ودّيت بـ«عيسى» لأخليك لوحدك خدامة توت.. مش هحبي حد صديق [illegible] قلبك على كل [illegible]

[illegible] عن حبك إنك تبعد عن كل [illegible]

نظرت إليها لا أدري ما الرد المناسب لكل تلك التهديدات، كنا منذ دقائق نحتضن بعضنا البعض، كيف انقلب كل [illegible] الشكل؟!

قالت وكل ما فيها يصرخ بالكراهية:

- طلقني يا «عيسى». أنا مش مستحملة قرفك أكتر من كدا.

نظرتُ إلى الصالة التي كسرت «أسماء» معظم ما فيها بسبب انفعالها وعصبيتها، تذكرت نصيحة خالي أن العيب فيّ أنا، قال لي لابد أن أضربها حتى تعرف أن هناك حدًّا، حدًّا لا تتخطاه مهما وصلت من الكراهية، تذكرت محاولة انتحارها أمام عيني، واستغلال «أسماء» ماضيها المؤلم، لم تحاول تجاوزه، بل تحججت به لتصبح أكثر توحشًا وقسوة، مبررة كل تصرفاتها بأنها مُعقدة، فلا بُدَّ أن أسامح..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٧ - «لا يغفر. ينتقم دائمًا مهما كان خطؤك بسيطًا. لا بُدَّ أن يذيقك من الألم نفسه بجرعات مضاعفة. قد يصبر قليلًا ويظهر لك أنه قد غفر. لكن فيما بعدُ سيرد لك الصاع صاعين.. بالنسبة له أنت تستحق.. بالنسبة له هو وصل إلى مرحلة من التحكُّم تجعله يشعر أنه يعيد تهذيبك؛ لذا فلا مجال لك للخطأ.. وإلا عوقبتَ أشد العقاب».

تصارعت داخلي كل تلك الأفكار..

نظرتُ إليها وابتسمت قائلًا في هدوء:

- اهدي بس وهنحلّ كل حاجة..

واقتربت منها بحرص، أقنعت نفسي أنني مسئول عن حل هذه العلاقة، كلمة أبي التي يقولها دائمًا إن علاقة الزواج «مسيحيين» لا طلاق فيه. اقتربتُ لأربت على قلبي قبل أن أربت عليها، وضعت يدي على كتفها وقلت:

- إحنا مالناش غير بعض، إن شاء الله هنحلّ كل حاجة.

لتنزع يدي من على كتفها وتدفعني بكلتا يديها، وتصرخ فيّ قائلة:

- شيل إيدك من عليّ.. أنت لو عندك نقطة دم كنت طلقتني، واحدة مش بتحترمك كدا..

ابتسمتُ، قلت لنفسي إن هذا هو الغضب يتحدث بالنيابة عنها، عندما ستهدأ ستعتذر عن كل هذا الكلام وتعود نسخةً من النسخة التي أحب

[illegible]

[illegible]

ـ والله ما هارحمك يا «عيسى» لحد ما تموت..

* * *

[illegible] قالت «سيرا» وهي [illegible] إلى [illegible]

ـ «عيسى» بيقولك إن [illegible] مافيهوش [illegible]

[illegible] لو افتكرته هتفتكري أحداث الكتير [illegible]

[illegible] وأنا لا أهتم بما تقول على الإطلاق

ـ «سيرا».. عاوز أقولك حاجة حصلت..

وحكيت كل شيء..

دمعت عينا «سيرا» وهي تنظر إليّ غير مصدقة.. بدا عليها الصدمة وعدم التصديق، عندما انتهيت وضعت يدها على رأسها وظلت تنظر حولها في قلق..

قلت بصوت خافت:

ـ هو انتِ فعلًا لسَّه متجوزة؟

نظرت إليَ في عدم استيعاب، ثم قالت بلا مبالاة:

ـ لأ طبعًا.. إحنا بس مخبيين عشان خبر طلاقنا ما يغَطّوش على فيلمه الجديد. هو منتج والناس نصحوه بكدا.. بس إحنا مطلقين طلاق رسمي من شهرين.. ومنفصلين من سنتين..

قالت «آن» لها باهتمام، وهي تسند جانبها إلى العربة:

ـ قولي كل حاجة متكتميش.. إحنا هنا في دايرة أمان.. ماحدش هيزعل..

على الرغم من دمعة عينيها، نظرت إليّ «سيرا» وقالت في محاولة للصمود:

ـ همّ عاوزين كام؟

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- [illegible]

[illegible] على

كتف «سيرا» وقالت بحنان:

- [illegible]

يهددونا تاني كل شوية؟

قلتُ بانفعال مُشيحًا بيدي:

- [illegible] اللي بيوصل للمستوى دا مش [illegible] كلمته

نظرت إليَّ «سيرا» وقالت بنظرة حاسمة:

- الموضوع مبقاش موضوعك يا «عيسى».. لو انت عارف تحله كنت حليته من زمن قبل ما يحصل كل دا.

شعرت بضيق من تلميحها بتقصيري، فقلت بانفعال:

- «أسماء» مش عاوزة تحل، «أسماء» عاوزة تنتقم.. لو هي اللي سرقت الحسابات.. الحاجة الوحيدة اللي موقفاها إنها تفضحني وتفضحت هي كمان.. عشان مفهمها إنه هيعرف يجيب فلوس منه. أول ما الفلوس هتيجي.. هيقولك مالبش دعوة، «أسماء» اتضايقت شوية وراحت مزلة الحاجة.

ثم أشرت بيدي في اتجاه الطريق كي أشير إليهم.

- روحي ادفعي الفلوس، عشان يحولك بعد أسبوع يقولك معنش عاوزين خمسين زيادة عشان «أسماء» عندها إمساك [illegible] حش.. وكل مرة هيطلبوا الفلوس هيسموه «حنيهم» [illegible] بيعملوه..

[illegible]

[illegible]

قلت [illegible]

- وانت عاوزني أعمل إيه؟

قلت محاولة أن أهدأ.

- ماتقلقيش.. أنا هاحاول أتصرف..

[illegible] أطمئن نفسي معها..

[illegible]

[illegible]

[illegible] أنها ستسعدان [illegible]

[illegible]

شعرت [illegible] نفرض سيطرتها عليّ حتى [illegible] [illegible] تتحكم في حياتي يشغلها دائمًا.. هل أنا [illegible]؟ حتى لو كنت [illegible].. حتى لو كنت أسوأ بشري في الحياة.. لماذا لا يبتعدون عن [illegible] الذي تزوجته ابنتهم ويحفظون ما تبقى لها من كرامة؟

أغمضت عينيّ

تنفست بعمق

[illegible] أن يطمئنني..

لكن بلا جدوى.

* * *

(١٢)

الأمر الخامس

كرباج سعادة وقلبي منه انجلد
رمح كأنه حصان ولفّ البلد
ورجعلي نص الليل وسألني: ليه
خجلان تقول إنك سعيد يا ولد؟
عجبي!

صلاح جاهين

ثلاثة أيام كاملة، لم أخرج من [illegible] الذي [illegible]
في شقتي، وشعرت أنه من الأفضل أن أظل أنا في شقتي [illegible]
تحدث هذه فقط.

وثلاثة أيام كاملة، لم أعرف ما الذي يريد «عيسى الصغير» أن أتذكره،
شعرت أنه أحمق لأنه ترك شيئًا لن يتذكره سوانا، وهو يعلم مسبقًا أن هناك
احتمالية كبيرة أننا لن نتذكر..

غبي..

لم أعد إلى البيت بالطبع، لم أستطع أن أنفذ الأمر المباشر لوالدي، اتسع
النهر بين شقتينا ليصبح حفرة عميقة في علاقتنا، تفصل بين عالمين مختلفين
تمامًا. شعرت أننا أصبحنا على ضفتين من الدنيا، يشق بيننا نهر عميق من
التدين والمفاهيم والقيم المختلفة، نهر يفصل عوالمنا ويمتد إلى ما لا نهاية، لا
يترك لنا أي فرصة نتلاقى إلا بذهاب أحدنا إلى الآخر من خلاله.. فيتحوّل
إلى شخص آخر عند الوصول إلى الضفة الأخرى.

وهذا لن يحدث أبدًا..

أراهم يلوّحون لي من الضفة الأخرى كي آتي ناحيتهم، ناحية أرض
قوانينهم وتقاليدهم وأمانهم، قلقين، وأبدو لهم من بعيد كأنني أغرق.. وأنا
لا أستطيع إلا أن أنظر إليهم من على ضفة عالمي، مبتسمًا وألوّح مودّعًا..

كبرتُ يا أبي حتى أصبحتُ أسبح في عالمي الخاص، أرفض كل ما تؤمن
به، وأخوض تجربتي في الحياة وحدي تمامًا، بعقلي المتآكل الذي يخطئ
كثيرًا.. وربما يموت من كثرة مصائبه..

[illegible]

لأنهم في سجنهم..

[illegible]

- [illegible]

توصلهم الرسالة واضحة وصريحة..

ضحكت من قلبي، [illegible]

- [illegible]

[illegible]

- انت [illegible]

ضربته "درية" على كتفه وهي تدخل قبله

- انت هتمشي؟ دون [illegible]!

[illegible] مرحّبة، [illegible]

- وحشتنا جدًا

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- فكرة مين دي؟

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- [illegible]

والبنات هيقعدوا تحت مع «سيرا»..

قلت [illegible]

- ودا هيفرق في إيه؟

نظرت إليهم «آن» نظرة «قلت لكم إنه سيقول هذا»، فابتسمت «[illegible]» وقالت بابتسامة:

- يفرق إن مع بعض أحسن من انت و«سيرا» لوحدك. لو ولاد [illegible] هددوهم و[illegible] اتفضحت هنبقى كلنا مع بعض. لو حد منهم بلغ إنكم عايشين مع بعض بقى والشغل د.. برضه يبقى كلنا مع بعض في أي تهمة.. عيلة قاعدة مع بعضها..

نظرت إليها في دهشة، لتقول «درية» لاوية فمها:

- انت سقطت إني أ... «شمس» ولاد خالته «آن»، صح؟

بالفعل لم أكن أتذكَّر تلك المعلومة، موضوع ذاكرتي أصبح حصرًا حقيقيًا لابد أن أعالجه. تجاهلت العرض كثيرًا لكنه يفرض نفسه عليّ الآن، قالت «آن» وهي تقترب مني وتضع يدها على كتفي:

- كده هنبقى هنا، أي حد بقى عاوز يصور يصور. مش هنمشي غير لما نخلص فيلمك.

قالت «شمس» شاردة وهي تنظر إلى النافذة الواسعة.

تراقبني من دون أن أدري؟

ـ سيبولي أنا الحوار دا..

سمعت ضحكة «سيرين»، لتلتفت بعدها إليها، لأجدها تقف متسندة على باب المطبخ، تنظر إليّ بنظرة افتقدتها، اقتربت مني بخطوات بطيئة، وهي تقول ناظرة إلى «آن»:

ـ كان نفسي ربنا يكرمني بصحاب زي صحابك..

في حركة لا إرادية فتحت ذراعيّ، لتقترب هي وتحتضنني كعادتنا، ف... «هيثم» ضاحكًا:

ـ يلّا يا عبيط عشان معانا ناس مبتفهمش تقريبًا..

ضحكنا جميعًا ونهضوا مسرعين، ليصبح عناقًا جماعيًّا، و«ياسين» يقول:

ـ يلّا خليهم يصوّروا بقى..

فلتت مني ضحكة على الرغم من حزني الدائم، وقلت في سخرية حقيقية نادرة:

ـ كده بقى group sex يا جماعة..

قالت «آن» ضاحكة:

ـ يلّا أهو أحسن من مافيش..

[illegible] الفلاشة

- "عيسى" [illegible] عشان

هو عارف إنها صعبة

نظرت إليه، [illegible]

أخذت منها الفلاشة، ووضعتها في [illegible]

«آن» محذرة:

- ثانية واحدة..

وأعطتني الـ«تي شيرت» قائلة لهم في صرامة:

- يلا كله يلبس التي شيرت ده.. مش هصورني من غيره بعد كده

ابتسمت، ذهبت الفتيات لارتدائه، في حين بدلنا ملابسنا نحن الرجال في الصالة، لنجتمع ثانيةً. وضعت «سيرا» الكاميرا الجديدة التي أحضرها من «غريب»، لتصبح الصور أكثر نقاءً بكثير، وليحتوي الكادر جميع أصدقائي خلفي يرتدون مثلي تمامًا..

كدر يجعلني أدرك أنني لم أعد وحيدًا على صفحتي منذ الآن..

هناك من هم مثلي يرفعون إصبعهم الوسطى للعالم كله..

* * *

صمت الجميع والفيديو يبدأ بنغمات رقيقة.. ما إن سمعتها حتى خفق قلبي في حنين..

كان هذا هو الكنز الذي يريدني «عيسى» العثور عليه..

تلك الأغنية..

أغنية «brother under the sun» للمطرب الشهير وقتها «bryan adams»..

بدأ الفيديو بتلك الموسيقى العذبة الخافتة، وتحرك جسمي معها راقصًا،

كان فيديو قديمًا قمت بالمونتاج الخاص به عندما كنت [illegible]،

كان فيديو مجمّع لصور كثيرة كالتي يعرضونها في كل حفلات زفاف أيامنا هذه. كان فيه مجموعة من الصور تم أخذها وقتها، صور لعرضي لقدامه، للكاميرا القديمة، جزء صغير من الأفلام القصيرة التي كنت أخرجها مع عم «عرب»، صور وفيديوهات لي مع أصدقائي القدامى الذين فقدنا اتصالنا ببعضنا البعض تمامًا، صور لحياتي وقتها، صور في المدرسة مع «سيرا» وبقية أصدقائي، «محمود» و«جمال»، مع معلمتي «سلوى» التي كنت أغيب عن كل الحصص في غرفة الرسم الخاصة بها، علمتني روحها الشابة وإخلاصها معنى كلمة فن حقيقي، حتى الآن في غرفة الرسم ما زالت تلك اللوحة التي رسمناها بالزجاج معلقة في منتصف الحائط..

كان هذا الفيديو يوثّق كل تلك الفترة بتفاصيلها.. كأنه تم تنفيذه فقط ليذكّرني بكل شيء..

شعرت بعواطف شتّى تجتاحني، أسمع همساتهم وضحكاتهم حولي عندما يظهر فيديو أول صورة لي ولـ«سيرا» ونحن في براءة ذلك العمر، نرقص ونمرح ناسيَين الدنيا..

انتهى الفيديو تاركًا داخل نفوسنا إحساسًا بالحنين والسكينة، ويظهر «عيسى الصغير» جالسًا على مقعده، ناظرًا إلى روحي كعادته:

ـ «عيسى».. لسّه شايفين أنا وانت فيلم دلوقتي في سينما «طيبة»، هيفضل معلّم معانا طول عمرنا.. والأغنية دي دوّرنا عليها كتير عشان ما كانتش موجودة في الفيلم غير كموسيقى تصويرية بس.. بس إحنا لما بنسمع حاجة بتلمسنا بنفضل وراها لحد ما نجيبها..

تذكرت الأغنية، تذكرت الموقف في السينما عندما سمعتها لأول مرة وظللت أبحث عن تلك الأغنية أسبوعًا كاملًا، لكني لم أتذكر الفيلم على الإطلاق، أكمل «عيسى الصغير» ليريح عقلي الحائر.

ـ فاكر أول فيلم شُفناه في السينما؟

أحببتُ وأنا أعلم أن الكاميرا تصوِّر ردودي:

ـ فيلم «anastasia»

لوحين «عيسى الصغير» [illegible]

أنا نتحدث معًا

[illegible] ١٩٩٨ [illegible]

[illegible]

[illegible]

ـ [illegible] قصة الفيلم [illegible]

[illegible] حاجة حركتنا [illegible]

[illegible] العالم دا وحبينا كل تفصيلة في إحساسه

ونظر إلي مشيرًا بإصبعه بشغف:

ـ وحسيت إن هنعمل حاجة تأثر في الناس قوي كدا.. هنعمل حاجة اللي يشوفها لازم يتغير.. لازم جواه حاجة تتحرك.

وتحرك بكرسيه يمينًا ويسارًا وتحدث بحماس:

ـ ساعتها عرفنا إني هابقى مخرج..

انسمتُ وأنا أراه يتحدَّث بهذا الحماس، حتى إنه نسي صيغة الجمع وبدأ يتحدث عنه هو، أكمل كلامه الذي يبدو أنه خرج من أي ترتيب كان يخطط له قبل أن يسجله:

ـ فضلت كتير أدوَّر على كلمة تناسب اللي أنا حاسه، أو اللي أنا عاوز أعمله، عشان أسمِّي بيه مشروع عمري..

ونظر إليَّ بابتسامة وتوقف عن الحركة:

ـ لحد ما شفت «spirit».. وعرفت كل حاجة أنا عاوز أعملها.. حتى عرفت اسم فيلمنا اللي بيتعمل دلوقتي..

كيف نسيت؟

قال «عيسى الصغير» مبتسمًا:

[illegible] وأنا دوري إني أفكرك [illegible]

[illegible]

واشار بسبابته إليّ قائلًا:

- [illegible] لأول مرة عندي ثبات [illegible] السلم له فوق ما [illegible] أعرف إن إيلي حتى صعب قوي.. هبدأ تنفيذ الفيلم فعلًا..

ولوّح بيده مودعًا بابتسامة مشرقة قائلًا:

- سلام يا «عيسى»..

* * *

حين انتبهوا لتصفيقي معهم، عندما نظرت إليهم في استنكار، قال «ياسين» مبتسمًا:

- لازم نجاملك شوية..

وقالت «درية» ضاحكة:

- وعشان كنت ضعيف في الكاميرا دلوقتي.. عشان بان نشجع بقى وكدا..

هبطت «آن» و«سيرا» إلى المطبخ، قالت شيئًا ما عن أنهما ستساعدان في عمل عشاء [illegible] نشاهد الفيلم معًا، ابتسمتُ لذلك الزحام الموجود حولي.. «هشام» يمزح «ياسين» و«درية» فأضحك معهم.. «آن» و«سيرا» تضحكان بصوت عالٍ في المطبخ.. تلك الحركة والأحاديث الجانبية جعلتني أشعر بالدفء في قلبي..

[illegible]

[illegible]

[illegible] "Spirit: Stallion of the Cimarron"

فيلم لم يشتهر في [illegible]

[illegible] لا

يحبه الأطفال ولا الناضجون.

[illegible] وأثر في بطريقة لا [illegible] أحد.

[illegible] حصان [illegible] وسط [illegible]

وأصبح [illegible] القوي حاديهم، يحب أن يركض بحريته [illegible]

[illegible] المشهد العبقري الذي سابق فيه سربًا محلقًا في السماء، [illegible]

[illegible] وهو يركض بفرح، يشده من معسكر جنود محتلين، يخطفه الجنود بعد مطاردة عنيفة لمعرفتهم نوع هذا الحصان وأصالته، في نية منهم أن يروّضوه ويخوضوا حروبهم وهم يمتطونه.. من اللحظات العبقرية وقت المطاردة.. كانت خيول المأسورة من قبل الجنود تبطئ من نفسها قليلًا حتى لا يستطيعوا الإمساك ببطله.. هم مغلوبون على أمرهم ولا بُدَّ أن يطيعوا الأوامر، لكنهم لا يستطيعون أن يشاهدوا أسر حصان جديد حر طليق..

تتم عملية الصيد بنجاح، يأخذون الحصان إلى معسكرهم ويقابل بطلنا القائد الشرير، الذي ما إن يرى الحصان حتى يدرك عناده وحريته؛ لذا يطلب من الجنود أن يمتطوه، ليحاول الجميع ولكنهم يفشلون.. بروح الحصان وحريته يرفض تمامًا أن يروِّضه أحد.. يأبى بإصرار غير طبيعي.. ليأمر الشرير بمنع الأكل والشرب لمدة ثلاثة أيام عنه..

لحظتها ابتسمت، كنت داخلي ألعب لعبة «عيسى الصغير» التي طلب مني أن ألعبها وأنا أشاهد، القطيع هم أهلي، من يخافون عليّ من الركض دائمًا ويحذرونني ألّا أبتعد، المحتلون كانوا يمثلون لي الدنيا بكل من فيها من بشر يحاولون ترويضي والسيطرة عليّ..

[illegible] الشاب والحصان، بعد أن أهلك هوى الحصان
عطشًا وجوعًا حاول امتطاءه [illegible] لحظة انتصار [illegible]
[illegible] إياه في حلبة كبيرة،
[illegible] فقط بالذكاء الكافي،
[illegible] وهو في نوال
[illegible]
[illegible]
[illegible]

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٨ - «يكون الشريك بالصبر الكافي ليغيِّر ما بداخلك لفترة تصل إلى أعوام. يزرع أفكاره وانتقاداته ببطء وتدريج كأعظم عملية غسل مخ في التاريخ. يضع تفصيلة بسيطة تؤرِّقه وتؤلمه في كل ما تحبه ويخصك أنت وحدك.. يعلِّق عليها كثيرًا، ثم يبدأ في الشجار.. وهكذا بالتدريج، ولفترة طويلة، حتى تصل إلى نتيجة أنك تدير الأمر بطريقة خاطئة.. ويتطوَّر الأمر إلى المساومة. لا بُدَّ أن تترك ما يخصك هذا تمامًا.. ويعرض، بخبثٍ، بديلًا يناسبك أنت وهو فقط.. فلا تشعر أنت أنك تتغير.. بل تشعر أنك تسير في الطريق الصحيح لإرضائه وإرضاء نفسك.. لا تدرك أنك تبتعد ببطء عن تفاصيلك أنت.. وتتوه أكثر في بحرٍ من تفاصيله هو»..

يأسر الجنود شابًّا من الهنود الحمر، يعذبون الشاب أيضًا ويمنعون عنه الطعام، تحدث ألفة بين الشاب والحصان لتشابه قيودهما، لذا، في قمة انتصار المحتل بترويض الحصان، ينتفض الحصان انتفاضة أخيرة مستهلكًا آخر قواه، يحارب الحصان حربًا أخيرة، يوقع الجندي الأجنبي، وينتصب هاربًا آخذًا الشاب معه، ويثير جلبة في المعسكر كله، ويحرر معه في طريق هروبه بعضًا من الأحصنة المأسورة..

[illegible]

لتعيش الحصان حبيبته في المكان نفسه

وبموازين لعبة «عيسى»، تعجبت أنني رأيت «[illegible]» و«[illegible]» في [illegible] تتمثلان في الشاب الصديق لا الحبيبة.

لم أعد أشعر أنني أستطيع أن أحب شيئًا بعد أن رأيت كل ما يحدث في الجهة الأخرى من الحب، السرح المنيع المسمى الزواج..

وشاهدت الفيلم، انعزلت عنهم تمامًا، توحّدتُ تمامًا مع الحصان، عندما ماتت حبيبته، عندما تم أسره وتعذيبه، عندما استسلم لكل شيء لحظات قصيرة، عندما ظل يحارب من دون أمل.. شعرت أخيرًا بما كان «عيسى» يريدني أن أشعر به، تلك الروح العنيدة التي تأبى الاستسلام، ذلك الإصرار غير الطبيعي في الاستمرارية، من دون كلل وملل.. تلك الروح التي لا تنكسر.. تضعف أحيانًا وتترك نفسها للحزن، لكن لا تنكسر أبدًا.. حتى نهاية الفيلم الذي انتهى بمشاعر داخلي لن أنساها أبدًا

شعرت بطاقة من العناد تحتل كياني كله..

بل شعرت للحظة أنني لا أعرفني..

من هذا السلبي الذي تحولت إليه؟ لا يفعل شيئًا إلا أن يكون رد فعل لحقارة كل من حوله.. متى تحولت إلى ذلك الكائن الرخو الذي يسير في هامش الحياة؟!

من أنا؟

كيف وصلت إلى هنا؟

وسط ظلام الغرفة، تركت دمعة تنساب على وجنتي..

[illegible] ذلك [illegible] والاستسلام، واللامبالاة

أغمضت عيني

نفس عميق

[illegible] خطة صعبة شعرت بها [illegible]

أنهي القديم، بعد [illegible] جميعًا [illegible] ينتظرون [illegible]

«عيسى»، استدرت وأنا أنهض وأقف في منتصف الصالة، وأقول [illegible]

حون، مبتسمًا ابتسامة واسعة:

- استعدوا اللي جاي عشان هيبقى صعب ومرهق جدًا.

ونظرتُ إلى «سيرا» مبتسمًا، وقفت ناظرًا إلى عينيها مباشرة

- أنا هاكمل للآخر.. وهاعمل أحلى فيلم اتعمل في تاريخ السينما المصرية.

ابتسموا جميعًا في ارتياح، ربما بالغت في جملة «في تاريخ السينما المصرية»، لكن من سيحاسبني على حلم حتى لو كان بعيدًا؟

تنفست في ارتياح وأنا أنظر إليهم، أشعر بروح جديدة تحتل كياني كله..

وداعًا لكل ذلك البؤس، والملل، والبطء..

سأبدأ صفحة جديدة تمامًا..

الخطوة السادسة عشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: لا تسخر من البدايات الجديدة وترفضها، زرع الشريك فيك يقينًا أنك مهما فعلت لتكون أفضل سيظل يحاسبك على أخطاء الماضي.. في الحقيقة، لا أحد يملك السلطة لمحاسبتك على أخطائك إلا الله.. تيقَّن أن البدايات الحقيقية موجودة.. آمن بها وانسَ كل آلامك.. وضع في عقلك شيئًا واحدًا فقط. «أنك تستحق أن تبدأ في خلق كل ما هو جديد»

بروح أقوى من روح ذلك الحصان المثابر الذي غزاني وأنا مراهق، وعاد بعد ثمانية عشر عامًا ليحركني ثانية..

بروحه التي غلبت الزمن ذاته..

نظرتُ إلى «سيرا» التي نظرت إليَّ بحماس، ومددت يدي فاردًا إياها، وأنا أتذكر الآن:

[illegible]

[illegible] الجوانب [illegible]

لتصحبك ضحكة واسعة [illegible] إلى [illegible]

واحداً في كل ما أفعل..

* * *



رحلة التنفيذ



(١٣)

وسادس الكنوز

فارس وحيد جوَّه الدروع الحديد
رفرف عليه عصفور وقال له نشيد
منين منين.. ولفين لفين يا جدع
قال من بعيد.. ولسَّه رايح بعيد
عجبي!

صلاح جاهين

ـ «عزيزي (عيسى) ذا الستة وثلاثين عامًا

إذا قررت أن تُكمل الطريق يا صديقي وتبدأ معي في تنفيذ الفيلم وذلك الحصان في الفيلم الذي توحدنا معه ذكرك ببعض الأشياء المهمة .. فتلك هي البداية الحقيقية..

هل أخذت كل شيء من (سبرا)؟

لو لاحظت.. هذه المرة، اللغز لن يوجد في بطاقة معايدة، بل من الآن سيصبح خطابًا طويلًا أتحدث فيه معك عن أشياء مهمة..

أأخبرك بسرٍّ لن يظهر أبدًا في تسجيل الفيديوهات؟

أنا تعيس يا (عيسى)..

ذلك المرض اللعين يطاردني.. يطارد أفكاري ويمنعني من التفكير حتى في المستقبل.. مأساته أنه مرض لن تظهر أعراضه إلا وأنا في عمرك أنت؛ لذا فالمعادلة أكثر صعوبة.. لو كنت قد أصبت بمرض الآن لكنت قد عرفت كيف أتعامل نفسيًّا وأعالجه أو أتعايش معه، لكن فكرة أن هناك من حدد لك مستقبلًا غير مضيء يجعل كل أفكارك وطموحاتك ميتة.. شيء قاتل يا (عيسى)..

لكني أدركت أننا نمتلك شيئًا خاصًّا للغاية سيجعلنا نحاول مهما ماتت داخلنا الحياة..

أنا وأنت نمتلك عينًا لا يمتلكها سوانا يا (عيسى)

عينًا تلاحظ أدق التفاصيل..

عينًا تراهم على حقيقتهم»..

* * *

[illegible]

[illegible] أمسك الكاميرا الحديثة،

[illegible]

[illegible]

تنتظر أن ترى الفيديو الخاص بها..

[illegible]

ليبدأ الفيديو..

[illegible] "رنا" [illegible]

"رنا" الصغيرة تنظر إليها بصورة [illegible]، تبتسم في إحراج، نظرت إلى "[illegible]" [illegible] خلف الكاميرا أصوّرها بنفسها [illegible]، فأشرت إليها أن تستمر من دون أن تنتبه للكاميرا، وقفت "رنا الصغيرة" في غرفتها القديمة [illegible] هي تنظر إلى الكاميرا:

ـ ازيك يا "رنا"؟

رفع حاجب "رنا" في شوق، قالت ضاحكة في مزيج من الحنان والفرحة:

ـ كنت صغيرة قوي يا "عيسى"..

ابتسمتُ ولم أرد، أنظر إلى الكاميرا على صورة العرض الصغيرة التي امتلأت بوجهها، بكل تعابيره الرائعة، أكملت "رنا" الصغيرة وهي تنظر إلى "عيسى الصغير" خلف كاميرته القديمة:

ـ طبعًا إحنا مش موافقين على الهبل دا.. بس أخوك الصغير مصرف ومش بيبطل زن..

وقالت بسخرية:

وكمان هو عيّل دلوقتي فكلنا واخدينه على قد عقله [illegible]

ضحكت "رنا" وضحكتُ أنا معها في هدوء، نظرت إليّ [illegible] ضحكة:

ـ عشان تعرف إنك قارفنا من زمان..

ابتسمت وأنا أرمقها بحنان، تأملت "رنا الصغيرة" [illegible] لحظات، ثم قالت:

نفروض إن هاماتك قام صوان ...

وأكملت الصورة بأمل حائر

- انت لسه بتعبي، صح؟

لتحتضر ابتسامة ...

حدثه

• • •

- عندنا يا عيسى أعرف ما بداخلهم، هناك ما شاب مختلف عن المعتاد. هذه حيوانات تشعر بقدوم الكوارث، أنا وأنت نرى ما بداخلهم نفهمه ببساطة ونترجمه ونراه شيئًا ملموسًا

نرى مشاعرهم تتجسد فوقهم بوضوح، نرى ألوان مشاعرهم، نشعر به داخلنا فنفهمه على الفور..

ونرى الجماد أيضًا والموجودات بطريقتنا الخاصة؛ لذا فإن لغز هذا الخطاب يعتمد على مكانٍ رأيناه معًا ولم يرَه سوانا بتلك العين، مكانٍ وصفنا فيه عما (صلاح جاهين) عندما قال:

(منين منين.. ولفين لفين يا جدع.. قال من بعيد.. ولسَّه رايح بعيد)..

هناك في ذلك المكان ذكريات.. في تلك الذكريات ستجد نفسك.. وتجد الكنز يا صديقي..

وفي نهاية اللغز الخامس والكنز السادس أقول: هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك،

إدم يتعاف.. تحدي »

ابتسمتُ وأنا أنهي الخطاب وأنظر إليهم، كنا في صباح اليوم التالي، أعطتني نسيم الخطاب الجديد، قلت وأنا أشعر بطاقة داخلي لا أدري مصدرها.

- قصده على شقتنا في مكرم عبيد.. شقة كنا مأجريها وقعدنا فيها ٨ سنين.

عقد «ياسين» حاجبيه وسأل سؤالًا منطقيًا:

- وانت ازاي سايب لنفسك حاجة في شقة كدا إنتا ؟

هززت كتفي بلا مبالاة، وقلت بإهمال لا أعرف مصدره:

- ماعرفش.. بس اللي أعرفه إن الواد دا بحسابه [illegible]

فهافضل ماشي وراه..

هزّ «ياسين» رأسه موافقًا، كان «هشام» قد ذهب إلى عمله مع «[illegible]»، لنتلقى في الشقة «شمس» و«[illegible]» و«سيرا» اللاتي صعدن للإفطار والحلاب،

قالت «[illegible]» بحماس وهي تدفعني في كتفي:

- طب يلّا عشان مافيش وقت.. من أكتوبر لمكرم عبيد مسافة كبيرة.

نهضت من مقعدي، نظرت إلى «سيرا» قائلًا:

- هاتي الكاميرا معاكِ، عشان هنبدأ نصور النهارده.

قالت «سيرا» بحماس:

- هتبدأ بمين؟

لأبتسم من دون أن أجيب، تاركًا إياهم في فضولهم.

* * *

«مشهد من فيلم (رحلة الـ١٨)»

ارتجف جفن «رنا» بعد سؤال «رنا الصغيرة»، سادت فترة من الصمت، ردت «رنا» السؤال بشرود كأنها تتذكر:

- بقالي سنين مش باغنّي..

سمعنا صوت «عيسى الصغير» يقول لـ«رنا الصغيرة» في [illegible]:

- اسأليها ليه بطلتي تغني..

لتنظر «رنا الصغيرة» خلف كادر الكاميرا، وتقول بحيرة:

- مش هاقول كدا أنا.. أنا متأكدة أني هافضل باغنّي عادي يعني.. حتى

[illegible]

[illegible]

[illegible]

دي في المونتاج..

تنظر «ربا الصغيرة» [illegible]

- «عيسى» [illegible]؟

نظرت إلى «ربا» نظرة مشتركة، عيناها تسألانني «دي عرفت؟»، لكي أحتفظ بابتسامة مصطنعة، وأن أشير إلى الشاشة كي تجيب عن السؤال، نظرت إلى الشاشة وقلت بارتباك

- عندي والله. بعد ما اتجوزت وخلفت ولد زي القمر وبنت أحلى حاجة في الدنيا.. اتشغلت.. مابقتش باغنّي كتير.

ثم استطردت في جدية وهي تكمل كأنها تحدث «ربا» الصغيرة بالفعل:

- «أحمد» دلوقتي عنده ١٣ سنة و«جنى» ١٠ سنين. انت قدامك ٥ سنين وتتجوزي وتعرفي اللي أنا فيه..

قالت «ربا الصغيرة» السؤال التالي:

- لسّه بتعزفي بيانو؟

صمتت «ربا الكبيرة» لحظات، ثم قالت باقتضاب:

- لأ..

تسأل الصغيرة بابتسامة واسعة.

- طبعًا بقيتي مذيعة زي ما بحلم؟

بدأت تلك الحالة من الشحن تنتهي، لم ترد أختي هذه المرة، وبدأت تهز قدمها في توتر، ليصعد صوت «عيسى الصغير» يقول للمرة الثانية:

- حاولي تظهري إنك زعلانة شوية، وقوليلها ليه مابقتيش مذيعة؟

تنظر إلى «رنا الكبيرة» نظرة مستنكرة، عقدت حاجبيها قبالة بعصبية حقيقية:

- انت كنت عارف ازاي؟

هربت كلماتي في نظرة هادئة، أحاول أن أمتص عصبيتها المكتومة، تسأل «رنا الصغيرة» سؤالها القاتل:

- بقيتي فين دلوقتي طيب؟ احكيلي..

* * *

وقفت أمام عمارتي القديمة في مكرم عبيد..

مكثنا في شقة في الدور الثالث في تلك العمارة لمدة ثمانية أعوام، وقفت «سيرا» خلفي نصوّر وصولنا إلى المكان. كان معنا «آن» و«ياسين» و«شمس».
كلمت في طريقي صاحب الشقة الذي كان صديقًا قريبًا لأبي، كان يحبني بطريقة لا أفهمها، قال لي إنه سيأخذ إذن المستأجر الحالي ليدخلنا الشقة والمكان الذي أتيت بسببه..

الشرفة..

ذلك المكان الذي رأيته بعيني أنا فقط..

كانت تلك الشقة لها ذكريات كثيرة، لكن شرفتها هي سر كل شيء، كانت تطل على حديقة واسعة ساحرة، مكان حافظ على اللون الأخضر وسط رمادية الكون حوله، صورتُ أفلامًا كثيرة من أعلى، أضع الكاميرا على سور شرفتي، وأنزل مع أصدقائي لنصوّر ما نريد..

سأصور المشهد الذي يريد «عيسى الصغير» تصويره ثانية، ليكون مشهد نهاية الفيلم منذ ثمانية عشر عامًا جلسنا أنا و«سيرا» على سور الشرفة العالي، خلفنا يمسك «محمود»، صديقي منذ أيام الدراسة، الكاميرا على أرض الشرفة ينام «جمال» ممسكًا إيانا من ظهرينا كي لا نقع. هدف المشهد

أن يتم تصويرنا من ظهرناه العالم كله [illegible]
من اعتراض أهلي وأهل «سبر» و[illegible] ذلك [illegible]
دعوه يفعل ما يريد حتى يبتسم قليلا..
[illegible] موسيقى «المهرجانات» [illegible] الشعبية [illegible]
ثم أفضيه ولا [illegible] لكن [illegible] الإيقاع [illegible] [illegible]
[illegible] لأكتشف أنها تصدر من الكشك [illegible] [illegible]
«فانت نعيش هشوف [illegible] الذل والخاسس وأنا شفت ناس [illegible]
يتلبسوا في الرجلين»..
[illegible] حبيبي وأن أسمع تلك الأغنية الشعبية، ابتسمت عندما [illegible] [illegible] حرجًا مما يحدث لي، بدأ «ياسين» يهز رأسه، فضحكت «آن» وهي تهز رأسها معه، التفتُّ لـ«آن» أسألها:
- إيه الأغنية دي؟
رفعت يديها في الهواء في رقص مازح وقالت ضاحكة:
- انت مابتعرفهش؟ دي في كل فديوهات الـ«تيك توك»..
امتعض وجهي رغمًا عني، ذلك التطبيق على الهواتف المحمولة، انتشر بسرعة الهشيم ككل شيء في هذا الزمن، تطبيق في الأساس يختبر مهارتك في المونتاج ويختبر إبداعك في أفكار مختلفة في زمن قصير، لكننا حولناه إلى منصة غريبة لتحريك الشفاه على أغانٍ أكثر إسفافًا من حياتي ذاتها، كنت أنتقد وجود هذا التطبيق فيما مضى، ثم اكتشفت أنه ككل شيء في الدنيا، هناك عباقرة يمنحون أفكارًا عبقرية، وهناك اللاهثون خلف الشهرة السريعة من دون مجهود حتى لو باعوا ملابسهم
استطردت «آن» مشيرة إليّ:
- دي لايقة عليك فشخ..
نظرت إليها بتعجب، وأنا أسمع..

«معدتها فش ودش مداها عدو وعش [illegible] الأموال [illegible]

من الصابرين»..

ضحكت من الكلمات المسفه، لكنها واقعية لدرجة مؤلمة، [illegible]

تلك الأمثلة الشعبية التي يقولها الجميع مهما كان فيها من [illegible]

على إيقاع صاخب يجعلك ترقص بسحره على كل ما تحدث [illegible] «[illegible]»

و«ياسين» الآن..

قالت «سيرا» ضاحكة من خلف الكاميرا:

ـ يلَّا ارقص.. «عيسى» أمر..

هززت رأسي رافضًا بقوة، أصبح الموضوع مكررًا ومملًا، لن أخرج قبلها أرقص فيه طول الوقت، لكن «ياسين» ما إن سمع كلمة «سيرا» حتى اقترب مني وأمسك يديّ ليرفعهما ويرقص معي.

في منتصف الشارع وقت الظهيرة..

«قالك خسيس بؤتمن.. باع الأصل بالمال.. صبرك شوية يا زمن»..

نظرتُ إلى «سيرا» التي تحمل الكاميرا، ضحكت وأنا لا أستجيب لرقص «ياسين»، تركت «ياسين» الذي يرقص على الأغنية بحماس، نظرت إلى الكاميرا وأشرت إلى الشرفة في الدور الرابع وقلت:

ـ إحنا هنصور فوق.. هنطلع كلنا عشان محتاجكم معايا..

أومؤوا برؤوسهم موافقين، تأملت المكان وأنا آخذ نفسًا عميقًا، أمسكت هاتفي المحمول، فتحت قائمة الأصدقاء، جمعت ما بين «محمود» و«جمال» في رسالة تأخرت أكثر من خمسة أعوام:

ـ أنا تحت.. في المنطقة، تحت بيتي القديم.. تعالوا حالًا

فقدت اتصالي بهما منذ وقت طويل، هما صديقا الدراسة [illegible] عالم كامل من الأصدقاء والأحباب، عرفنا بعضنا ونحن لا نريد أي نوع من أنواع المنافع، نحب بعضنا لأننا نحب بعضنا، تلك البساطة..

كنت [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

إلى «آن» وأنا أقول بابتسامة

- أن عرفت [illegible] «عيسى» [illegible]

* * *

[illegible] قدم «رنا» تهتز أكثر، قالت [illegible] [illegible]

وفشلت:

- [illegible] بقيت مدرسة، بدرّس في مدرسة إنترناشيونال. «أحمد» [illegible]

معي في نفس المدرسة.. [illegible] حدّ واكتشفت إني بحب التدريس [illegible]

كومبوند حلو قوي في التجمع الخامس.. كل حاجة كنا بنحلم بيها [illegible]

ورفعت رأسها في فخر قائلة لـ«رنا الصغيرة»

- إحنا مشينا طريق طويل قوي يا بنتي..

نظرت «رنا الصغيرة» لحظات إلى ورقة صغيرة في يدها، كان «عيسى الصغير» قد كتب فيها بعض الأسئلة، دوّى صوت دفت عاليه في الفيديو مع صوت طفولي يقول بفضول:

- بتعملوا إيه؟

ارتجف قلبي وسرت قشعريرة في جسدي شوقًا، وأنا أنظر إلى «رنا» التي ارتفع حاجباها في اشتياق.. في الفيديو قال «عيسى الصغير» بصوت عالٍ:

- استنى يا «علي»..

ليرد «علي»، أخي الأصغر مني بسبعة أعوام، في [illegible] اشتاقت أذناي إلى سماعه:

- عاوز ألعب معاكم شوية..

هبطت دموع «رنا» غزيرة، و«رنا الصغيرة» تقول [illegible] «علي».

[illegible]

ساد صمت في [illegible]

ينصرف، تبادلت أنا و"ر[illegible]

الذي احتفى من حياتنا تمامًا [illegible]

الأ[illegible]

- إيه أكتر حاجة بتخاف منها؟

ثم رفعت رأسها ونظرت إلى [illegible]

أن يمكن دلوقتي مش [illegible] حياها عشان

مجموع [illegible]

معينة مشهورة [illegible]

سنة كدا أن ورثت صوت [illegible] حلو و"[illegible]"

يخرج..

قالتها "ريا الصغيرة" وضحكت وهي تنظر إلى "[illegible]" نظرة مشاكسة، ثم أكملت:

- مش بخاف من حاجة لا، بس ممكن دايمًا باحس إن بابا وماما عملوا طول عمرهم عشان يربونا صح وفي مستوى كويس بس ما سابوش أي حاجة ليها علينا نعرف نعيش بعدهم فبخاف شوية من المستقبل. عشان كدا باحاول أعمل كل حاجة صح فوق.. زي ما قال الكتاب.

ضحكت "ريا" الكبيرة في [illegible]، في حين أكملت الصغيرة وقد رفعت إصبعها وقالت فجأة:

- وآه [illegible] حد مابحبوش

ثم ترددت لحظات، وأكملت:

- بلاش حب.. حد يكون مش مناسب. أنا مش [illegible] الحب اللي في الأفلام دا، عارفة بي هعشق ولادي بس أن [illegible]

أحب الحب الفظيع دا

ثم تضرب إلى اشاشه وقد بسبب وجود «عيسى العسعه» كل سبب وجودي بجانبها الآن:

- في الآخر مش خايفة من حاجة قوي عارفة إن واحدة بصوتي وعرفي هتعرف تسمح وتحميني عن كل الناس اللي حواليها، أنا حتى في خدعه مسميني «أنعام» عارفة إني هاوصل لكل حاجة أنا عاوزاها فمش حتخدعه

بدأت ملامح «رب» الكبيرة في التبدل، بدأت تشرد قليلا كأنها تذكرت السؤال لمقبل، فقالت الصغيرة مشيرة إلى الكاميرا:

- انتِ بقى خايفة من إيه؟

* * *

أتى «محمود» و«جمال» بعد عشر دقائق، لم نتعاتب، لم تصدر بادرة لوم، عانقنا بعضنا بقوة، لم أرهما منذ خمسة أعوام، لكنهما لم يسألا، فقط قال «محمود» ضاحكًا:

- خسيت يابن الكئيبة..

لأضحك معه، وضحكت أكثر عندما نظر «جمال» إلى أصدقائي وإلى «سيرا» التي تحمل الكاميرا، وقال:

- يخرب بيتك.. انت لسَّه بتمشِّي الناس وراك في جنانك دا؟

أومأت برأسي أن نعم، وقلت بابتسامة:

- لأ وجاي النهارده عشان نعمل نفس اللقطة اللي عملناها في البلكونة.. فاكرها؟

لينتفض جسده ويقول بغضب:

- أنا مش هنام على الأرض وأمسككم تاني

[illegible]

وانسحبت إلى راحة..

[illegible]

ضرب جرس هاتفي لأرد عليه..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ممكنك أن تشغله كما تريد العكس فحدث [illegible]

[illegible] تلك الشقة كانت مختفية تمامًا وقتي كنت [illegible] منها، لكن [illegible] أصبحت [illegible] ذكريات عائلة أخرى لا أعرف عنها شيئًا [illegible]

[illegible] لا يخاف من التغيير مثلي.. بل يتقبله ويتأقلم عليه من دون شكوى

ضحكت من خواطري السخيفة، لو أخبرت «سيرا» أن هذا هو سر شرودي الذي كانت تعلق عليه ستسخر مني، جلسنا جميعًا على السور، جعلتهم كلهم يجلسون بجانبي على السور العريض للشرفة، «آن» هي الوحيدة التي كانت تصرخ فينا لأنها تخاف من المرتفعات، جلسنا بجانب بعضنا، جعلت «[illegible]» تحمل الكاميرا هذه المرة، وجلست بجانب «سيرا» و«آن» و«شمس» و«محمود» و«جمال» على سور الشرفة..

قال «محمود» ساخرًا وهو ينظر إلى كل شيء من أعلى:

- هنضحي التضحية دي عشان تتصور من فوق؟ إيه بقى اللقطة العظيمة اللي كنت هتموت فيها بسببك دي؟

قلت له وأنا أغمز:

- هتشوف دلوقتي

ثم بصوت عالٍ:

[illegible]

في دراعي وماتخافيش..

[illegible]

- عارفة إيه الكنز اللي «عيسى» سايبه؟

نظرت لي متعجبة، لكن خوفها [illegible]

- الكمبيوتر القديم في الشقة دي حتى أول كمبيوتر «PC» في [illegible]

وكان عليه كل الأفلام والأفكار اللي كتب عنها [illegible]

قالت بحيرة وهي تنظر إلى «سير» التي تجلس شاردة تحتسي في الناحية الأخرى:

- وانت هتلاقيه فين دا؟

قلتُ بابتسامة حنون:

- سيبه لأختي عشان «أحمد» ابنها.. وشرطت عليها متمسحش منه حاجة.

وأكملت بقية الخطة:

- عشان كدا هنخلّص اللقطة دي ونروح على أختي على طول، آخد «الهارد» وأصوّر معاها أول مشاهد الفيلم..

ابتسمت «آن» في فرحة، كان المنظر مخيفًا قليلًا وأقدامنا متدلية للخارج، من شرفة في الدور الرابع، للحظة فكرت أن وزننا هذه المرة أثقل من المعتاد وأن السور لن يحتمل كثيرًا، لكني ابتلعت ريقي وانتظرت..

لنسمع صوت «ياسين» يقول بصوت عالٍ:

- يلّا..

شيء من أحلى..

* * *

أما تقاوم البكاء:

قالت «رنا» آخر سؤال، بابتسامة واسعة
- آخر سؤال لازم أسأله عشان «عيسى» يرتاح. شايفاه إزاي قبل ما تحسي
دلوقتي؟
بعدها جلجلت «رنا» لحظات، ثم صمتت تمامًا.
تلك هي اللحظة التي أنتظرها..
لحظة الإدراك..
نظرت «رنا» إلى الأرض لحظات، ثم قالت بهدوء بعد فترة صمت
- أنا ممكن أسيب كل اللي أنا فيه دا عشان مابقاش خايفة كدا
ونظرت إلى «رنا الصغيرة»، وقالت ودمعة تهبط من عينها.
- عشان كدا انتِ تكسبي.. انتِ أحسن مني كتير..
سرت قشعريرة في جسدي، سادت لحظة صمت، ثم قال «عيسى الصغير» بصوت حنون:
- هنغنّي مع بعض شوية..
ليحدث قطع واضح جدًّا، لتظهر «رنا» جالسةً خلف «الأورج» الشرقي القديم، وتبدأ في عزفها الاحترافي، كانت تعزف أغنية لتتر مسلسل عشقناه معًا في ذلك الوقت، مسلسل «حديث الصباح والمساء»، وكانت أغنية التتر من أصعب الأغاني التي لحّنها «عمار الشريعي»، لكنها أصرت أن تغنيها حتى أتقنتها..
بدأت نغمات عزفها الرقيقة تدوي، لتدمع عينا «رنا الكبيرة» وهي ترى مهارة عزفها فيما مضى، ونسمع معًا صوتها العذب يتسلل إلى قلوبنا..
«زي النهار الطفل لما يتفلت.. من بين أيادي الضلمة ويشقشق..
أنا شفت روح الحق لما جلجلت.. صرخت في وش الحرس أنطق»..

[illegible] معها [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] صوت [illegible] احسه [illegible] وجهها تماما

[illegible]

* * *

(١٤)

الأمر السادس

يا اللي انت بيتك قش.. مفروش بريش
تقوى عليه الريح.. يصبح مافيش
عجبي عليك حواليك مخالب كبار
وما لكش غير منقار.. وقادر تعيش
عجبي!

صلاح جاهين

حسب طول الليل نشاهد أفلامي القديمة

أثارت فضولهما تلك

وقصر زاد عيب «محمود» و«جمال»، صديقا الدراسة،

النقطة التي صوّرتها في الشرفة، فسطراب مع نفسه أصدقائي، وأنا ذهبت إلى

«رنا» مع «آن» و«سيرا»، صوّرتها وأحدث منها ما أريد، وعدنا إلى العلا

حيفا كي نشاهد الأفلام القديمة..

ما بين ضحك وسخرية على أفكار بعض الأفلام الساحرة، وما بين أفلام حرّكت مشاعري وجعلت بعض أعين الفتيات تدمع، مزيج غريب جعلني أشعر بقيمة ما كنت أفعله..

كان هناك شغف وروح في كل التفاصيل، تبث المحاولة المستميتة للاختلاف في الأفكار وفي زوايا الكاميرا، حتى في محاولات التمثيل الفاشلة مني ومن أصدقائي، هناك حالة من الصفاء والحب والعطاء بلا مقابل..

من المسؤول الحقيقي عن هذا التحول الغريب؟

لا أحد يرد بالإجابة السهلة وهي «النضج» و«الزمن».. هناك شيء ما أعمق بكثير لهذا التحول..

أراني أنا وأصدقائي في ذلك الزمن، وأرى بعيني كأننا مجموعة من الأشجار الحرة، العالية المبعثرة أوراقها تضرب بفروعها السماء، تسكن عقولنا الطيور بحريتها وانطلاقها، ونضرب الأرض بجذور عميقة صافية.

أنظر حولي لأرانا جميعًا أصبحنا أشجارًا مشذبة، جميعها بالطول والشكل والروح الميتة نفسها.. كتلك الأشجار القصيرة التي تزين الطرق، وبلا أي شخصية أو تميُّز..

[illegible]

كتبت أمي

[illegible] عصب أبوك ومار حعش السب وباباك زعلان منك جدًا.
وحال طبعك مهدد ومش عاوز توصل لأي حل غير إنك تدفع.. كلما
[illegible] عشان ماسمعش أبوك يشيل الهم لوحده.
لتصل الرسالة كل ما بداخلي من استمتاع بأي حالة .

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٩ - «تدرك أن العلاقة السامة ليست بين المحبين فقط.. هناك علاقات سامة في الصداقة وفي الأهل وفي العمل.. فقط في الحب يحدث الاقتراب الكافي ليحدث لك كل هذا التغيير»..

والخطوة السابعة عشرة للتعافي من علاقة سامة: أن تتجاهل أي مصدر للطاقة السلبية وتبتعد عنه تمامًا.. كُن أنانيًا قدر استطاعتك.. أنت واهن بما فيه الكفاية ولن تحتمل الطاقة السلبية من الآخرين الآن..

أردت أن أقول لها أن تُخبرهم أن يذهبوا إلى الجحيم.. أن تلك المحاولة المستميتة من «أسماء» أن تظل مسيطرة على كل تفاصيل حياتي محاولة فاشلة.. لكني نظرت إلى «سيرا» التي تشاهد الأفلام وتضحك من قلبها.. لن أستطيع أن أفعل هذا بها..

عندما حكيت ما حدث لأصدقائي، سألوا جميعًا عن الإجراءات القانونية لما فعلته طليقتي المصون، ليأتيني «هيثم» بالخبر اليقين من وكيل نيابة صديقه، لو أن «أسماء» من قامت بالاختراق، ستكون هناك إجراءات طويلة من الذهاب إلى مباحث الإنترنت وإثبات هذا الاختراق، ومن ثَمَّ تحريات،

لتذهب هذا المحضر إلى وكيل نيابة يحفظه بسبب «أن المحترق هي الزوجة، وتلك مشكلات أسرية لا علاقة لنا بها».. هذا بالطبع إن لم يتحايلوا بأساليب غير قانونية مثل «المعارف» ليحولوا الموضوع كله إلى شيء لا فائدة منه..

الشيء الوحيد الحقيقي هو الابتزاز، كنت أتجاهل تلك الكلمة، لكن «أسماء» وحدها لم تترك لي تعريفًا آخر.

تعريف الابتزاز في القانون هو: «القيام بالتهديد بكشف معلومات معينة عن شخص، أو فعل شيء لتدمير الشخص المهدَّد، إن لم يقُم الشخص المهدَّد بالاستجابة لبعض الطلبات. هذه المعلومات تكون عادة محرجة أو ذات طبيعة مدمرة اجتماعيًّا»..

المثير للسخرية أنني عندما أحكي ما يحدث لي لمن حولي، أكتشف أننا في زمن الابتزاز..

ذلك الأمر انتشر بطريقة تثير الدهشة، في زمن الهواتف المحمولة وسهولة التصوير والملافات الحسية الإلكترونية، أصبح معظم الناس يبتزون بعضهم ويهددون بالفضيحة؛ لأن الكلام أصبح مكتوبًا، والصور والفيديوهات تُسجَّل للأبد.. أعطاني هذا خلفية عن أي مصدر قوة خفية جديد يُوضع بين يدي الناس.. كيف سيستخدمونه. وكيف ستُظهر تلك القوة أقبح ما فيهم..

بتلك الرسائل التي بعثها خالها برقم هاتفه الشخصي باسمه لوالدي، يطلب فيها مقابلًا ماديًّا لما تحت يديه، تلك قضية سهلة الإثبات، لكنها ستسجنه وتسجن «أسماء» من سبعة أعوام إلى خمسة عشرة عامًا..

وأنا لو كان لي مبدأ في حياتي، فهو مبدأ واحد فقط..

لا تؤذِ أحدًا مهما آذاك..

حافظ على ما تبقَّى من إنسانيتك، عندما تؤذي أحدًا مهما كان السبب أنت تخسر جزءًا منك أنت. قاوِم مهما أغروك أن تصبح مثلهم.

أغمضت عينيّ..

نفس عميق.. وزفير طويل لا يعرف طعم الحرية..

نظرت إلى الرسالة في صمت حقيقي، وكأنما تسرب «السم» الأسى في داخلي

نظرت بي في تساؤل. ابتسمت ابتسامة مرتعشة نوعًا ولا أظن أنها أقنعتها فتشبث

فنظرت إليّ بقلق..

مضى آخر صديق، فنهضت «سيرا» وهي تنظر إليّ متسائلة، فجمعت الثلاثة الجديدة بالأمر الجديد، ابتسمت ونظرت إلى الجميع قائلة

- دلوقتي الأمر السادس..

صفقوا جميعًا في حماس، ووضعت «سيرا» الكاميرا في مكان مناسب، وبدأت التسجيل، لأقف أنا كعادتنا وأنظر إلى الـما

متجاهلًا تلك الرسالة تمامًا..

* * *

قال «عيسى الصغير»، وهو جالس على الكرسي، باستمتاع كعادتنا كلما تحدثنا عنه:

- عمك «جاهين» قال: عجبي عليك حواليك مخالب كبار.. وما لكش غير منقار.. وقادر تعيش..

ثم ابتسم وهو يشرد قليلًا، وقال:

- أنا وانت يا «عيسى» حوالينا حاجات كتير بتحبطنا قوي.. مخالب كبيرة من الإحباط والقرف. بس منقارنا أنا وانت اللي مخلّينا نعيش هو حلمنا.. الموهبة اللي ربنا كرمنا بيها.. لو سبته أو نسيتها صدقني..

وصمت لحظات ناظرًا إلى سقف الحجرة:

- عمرنا ما هنعرف نعيش..

سرت قشعريرة في جسدي، كأن سنوات الموت الطويلة السابقة تتسرب من مسامي، لم أستطع أن أعيش بالفعل يا «عيسى»، لكنك لا تعرف مدى سهولة الموت وراحته. يسحبك ببطء حتى تتقوقع وتترك نفسك لأسنانه القاتل..

ما أسهل أن تعيش محبطًا بلا حلم يقودك ولا شغف.. فكل شيء يتساوى فلا تستطيع أن تحزن ثانية أبدًا..

[illegible]

- صوّرت إيه لحد دلوقتي؟

[illegible]

- صوّرت الحوار مع «رنا».

[illegible] الآن، قال بعد أن هز رأسه موافقًا:

- [illegible]، إن شاء الله هنكمل حاجة حلوة قوي

والتفت ليأخذ شيئًا من على المكتب، ويريني إياه من خلال الكاميرا، كانت صورة مطبوعة لي أنا و«محمود» و«جمال» و«سيرا» في عيد ميلادي الثامن عشر. قال «عيسى» بصوت صريح:

- دول صحابك اللي بحد.. لما قلتلهم على فكرة الفيلم دا عجبتهم قوي وبعتولي الموضوع بفيديو.. حلفنا كلنا إننا هنصوره تاني بعد ١٨ سنة.

سمعت صوت ضحكة «سيرا» العالية مع «محمود»، وسمعت صوت «جمال» يقول كمن تذكر كارثة:

- يا دين أمـــــي...

لم أتذكر شيئًا، لم أستطع أن أظهر هذا، فتظاهرت بالتركيز مع «عيسى الصغير» الذي أكمل بحماس:

- ولو فعلًا عملناها هتبقى حلوة قوي، هاوريك الكليب دلوقتي، عشان الأمر إنك هتصوره معاهم تاني وتعملهم ميكس مع بعض..

قال «محمود» بصوت عالٍ:

- اقفل ياني بسرعة..

كيف لا أتذكر؟! تم إظلام الشاشة تمامًا.. وتبدأ موسيقى رنّت في ذاكرتي. لتحمل عني تسعان وأنا أتذكر..

وأضحك..

كتب على الشاشة [illegible]

اللي وعدنا نرقصها»..

ضحكت من قلبي، حتى ضحك «محمود» و«جمال» [illegible]

حين لم يفهم الباقي أي شيء».

كانت لعبة نضرب اسمه [illegible]

قال «جمال» بجدية:

- يعني فعلًا منتظر رقصة هبل وخيبة أبوك

لم نسمع كلامه ووقفت أشاهد مشتتًا، حتى ظهر [illegible]

«محمود الصغير» [illegible]

«سيرا» [illegible] فيبدأ «محمود» في معاكستها، [illegible]

وأبي أن و«حمل» لنعنفه.. كي تنقضي كلمات اللعبة التي شهد التاريخ أنها

أكثر الألعاب إسفافًا في التاريخ..

ثم ضحكنا بشدة..

كان أول فيديو يناسب تطبيق «التيك توك» منذ ثمانية عشر عامًا.

رأينا الفيديو لآخره، سخر الجميع من كل ما نفعل من بلاهة حقيقية، سخر الباقي منه من أداء «سيرا» المفتعل، وتحرش «محمود» الذي أجاده بشدة، واستغلالي أنا و«جمال» للموقف لنضرب «محمود» أكثر من مرة في الفيديو..

انتهى الفيديو، خفتت الضحكات عندما وجدوني أنظر إليهم نظرة خبيثة.

نظر إليّ «محمود» وقد فهمني:

- ولا.. بلاش جنان. انت فاهم إن دا فيلم وممكن يتعرض وناس تانية تشوفه، صح؟

قلت مشيرًا إلى السطح بثقة:

- يلّا عشان هنصوّر..

ونظرتُ إلى «سيرا» نظرة طويلة، ثم غمزتُ لها قائلًا جملتها:

- «عيسى» أمر..

[illegible]

[illegible]

قلت وأنا أبصر [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

قال «ياسين» بنبرة ساخرة:

- [illegible]

ضحكوا جميعًا فقلت بنبرة آمرة:

- يلا عشان نلحق الشمس..

سمعت اعتراضات كثيرة [illegible] لم أعرهم التفاتًا وذهبت لأحمل الكاميرا [illegible]

سأنفذ أمر «عيسى» حتى لو كان [illegible]

سأسير خلف عقل من كان شجرة [illegible]

لن أسير خلف كل هؤلاء [illegible]

* * *

لم نفكر كثيرًا..

وضعت الكاميرا بزاوية تُظهر السماء [illegible] أن [illegible] بالساعة الـ«[illegible]». ومن دون حسابات أو اتفاق انطلقنا نرقص ونمازح بعضنا على [illegible]

لأول مرة، أتذكر نية «عيسى الصغير» في أمره هذا، وأدركت [illegible] تمامًا..

[illegible]

أن نترك أنفسنا لبراءتنا الطفولية

[illegible]

عن شيء من حريته فليهم ذلك الطفل داخلهم

ابتسمت وأنا أرقص وأراقبهم حول كعادة «عيسى» الغامضة، وحريته الحبيبة قد بدأت تستيقظ داخلي أخيرًا

«هشام»، الذي يهز رأسه كي يعطينا انطباعًا أنه يرقص لكنه لا يرقص في الحقيقة، على الفور تعرف أنه شخصية تحارب طفلها، يخاف من نظرة الناس، لكنه يحاول إرضاءهم دائمًا، هزمه الخوف والألم فيحاول أن يتغلب على انطلاقه، لكن هناك حبًّا فيه يجعله يتظاهر بالمرح..

«درية»، التي ترقص بشكل رائع، لكنه رقص محترف يدل على أن الطفل لم يعد هناك، مجرد ذكرى قديمة لشخص أتقن أن يمثل كيف يبدو مرحًا مطلقًا، رقصُ «درية» رقصُ من يبحث عن اهتمام، مَن يبحث عن إعجاب من الآخرين..

«ياسين»، الذي ترك نفسه للطفل تمامًا ويرقص باندفاع بكامل طاقته، يقفز ويدور حول نفسه من دون أن يبالي بأي شيء ولا بضحك من حوله..

«شمس» ترقص رقصًا هادئًا ساحرًا، تسخر من رقص من حولها ومن نفسها، تراقبهم وتحللهم مثلي تمامًا، ذلك الرقص المتخفي لم يقتل الطفل، لكنه تخجل منه، افتقدت كثيرًا في طفولتها فصارت تسخر من الأطفال الآخرين..

«عيسى» و«حرب» يتقاسمان في إعادة تمثيل [illegible] «عيسى»
لا يرقص، لكن يجعل من أصدقائه يرقصون، [illegible]
[illegible] أصبح يسعى إلى أن [illegible]. إنه مسؤول
عن سعادة الجميع، وصار [illegible]. «حرب»
يرقص بحركة الدمج في تمثيل شخصية المتحرش، خوفًا من حقيقته لا يشعر
[illegible] أن يمثل شخصية أخرى أكثر حرية من شخصيته

«[illegible]» كانت تنظر إلينا وتضحك، تترك نفسها للطفل أحيانًا ثم تسحب
جانبًا حزينًا، تمثل شخصية أخرى، ذلك النقب المعروف لدى برج الجوزاء
الذي تنتمي إليه «آن» بجدارة، لكن غلب على رقصها الحزن والحيرة، هناك
شيء كبير يدور في حياتها لا أعرف عنه شيئًا، لكنها الآن في حالة من ترك
نفسها للطفل تمامًا، وهذا الطفل حائر لا يعرف أي شيء عن نفسه.. لكنه
مبدع وعبقري ككل طفل داخلنا..

«سيرا» عادت لتمثل دور الفتاة التي تتم معاكستها، لكن استمتاعها
بكل ما يحدث استمتاع صادق، «سيرا» من القلائل الذين تركوا الطفل
يتصرف وحده، أخذت عفويته وبراءته وموهبته وهذبت جنونه وسذاجته
ككل العباقرة..

انتهت الأغنية، صفقوا جميعًا لأنفسهم مع صرخة حماسية، تأملتُ الحالة
التي كان يرغب فيها «عيسى» وقتها، تلك اللحظة التي يتركون طفلهم
يسيطر عليهم من دون قيد.. ضحكات صافية من قلوبهم..

«عيسى» لم يكُن يفعل كل هذا من أجلي فقط..

بل من أجلهم أيضًا..

وصل بهم الحماس إلى أنهم ضغطوا على «آن» كي تحاول أغنية أخرى
راقصة تدوي من السماعة، ليكملوا رقصهم، توقفتُ عن الرقص من التعب

[illegible]

كل تلك الأمواج

[illegible]

... على ملامحها ...

اقتربت منها، أراقب مع أنها ان تبدل درجات وجهها من حمرة الغضب إلى
شحوب الصدمة، زدت من سرعتي، لأصل إليها فنظرت إليّ بعين دامعة،
وبصوت مرتعش هتفت نحوي في مشهد ذكّرني بما فعلته أمي عندما، لكن مع
خلاف النظرة اللائمة لنظرة مستحدثة، فقدت كل أراضي الأمان الممكنة،
ولم يتبقَّ سواي..

نظرة قتلتني..

نظرت إلى الشاشة وقلبي يفوّت دقة..

ورأيت ما توقعته..

رسالة على تطبيق «واتساب» من طليقها، بنص عدد الفيديوهات والصور
التي تم إرسالها لوالديَّ..

لقطتين أنا و«سيرا» على السطح..

تحته رسالة أخرى: «يرضيك اللي بتعمله مراتك يا راجل يا محترم؟ تحب
شكلك ولا تحب ناخد رأي الناس كلها؟»..

أدركت أن ذلك الكلام مرسل من المنزل الصامت بقوة لا تقهر، خال
«أسماء»

(١٥)

وسابع الكنوز

سمعت نقطة ميّه جوّه المحيط
بتقول لنقطة ماتنزليش في الغويط
أخاف عليكِ من الغرق.. أنا قلت
دا اللي يخاف م الوعد.. يبقى عبيط!
عجبي!

صلاح جاهين

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
في المهمة هي لعبة طمع في النقود [illegible] كل أفعالهم على أنهم يهددون
فقط تلك العائلة التي انتمت إليها عندما تزوجت ابنتهم، ولكن كل
واحد في أوقات الفرح والحزن. لن يصلوا أبدًا إلى [illegible] لا يعرفه [illegible]
ويفضحوها بهذا الشكل أمام طليقها

لكن خال «أسماء» نفّذ التهديد..

على الرغم من أنني أعلم أنه، في منطق عقله الملتوي، يضرب ضربتين في الوقت نفسه، هو يثبت أنه قادر على الإيذاء كي ندفع النقود، وفي الوقت نفسه يرتدي ثوب الملاك ويفعل خيرًا، بأن يكشف لزوج «أسماء» - كما يعتقد - أن زوجته خائنة لعوب..

بل إنه يفخر بنفسه أنه اكتفى بإرسال كل شيء لطليقها فقط وليس للعالم أجمع؛ لأنه في نظر نفسه رجل فاضل، يحمي فتاة يتيمة الأب صارت مسئولة منه..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢٠ - «في وقت الهجر لا يصدق الشريك أنك تركته.. فينفجر فيك من دون قيد أو ردع.. يختلف هنا نوع الانفجار وقوته.. هناك من يظل يطاردك محاولًا استعطافك.. هناك من يتصرف ويتحدث عنك بالسوء مع كل مَن

تعرفه. هناك من تركك وهو يعلم أنك لن تنساه أبدًا فلا تسمح... أسوأهم
من يتفجر فيك بالأذى المباشر. يؤذيك ويؤذي من حولك بلا رحمة»
والخطوة الثامنة عشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أيًا
ما كان نوع الانفجار، عليك أن تحتويه وتتقبّله ولا تجعله يؤثر عليك. لا
تسمح لدفاعاتك العصبية أن تنهار. قوة انفجار الشريك تدل على مدى ألمه
من ابتعاد مشاعرك الصادقة عنه»

البارحة، وجدت «هيثم» يقلّب في هاتفه ويمسح كل الصور والفيديوهات
سواء له أو لصديقاته، «دريه» أيضًا بدا عليها القلق، وأخذت تبحث عن
شيء قد يُمسك ضدها فيما بعد، «شمس» هي التي أثبتت ذكاءها، لم تمسح
أي صورة، اكتفت بأنها غيرت كلمات السر لكل حساباتها على الإنترنت

كلهم شعروا بالتهديد..

أن يخترق أحد حساباتك الإلكترونية وهاتفك، لا يفرق عن اللص
الذي يتسلل إلى بيتك وأنت نائم، تشعر أنك عارٍ فجأة وأن كلمة «أمان»
غير موجودة في قاموس المشاعر. انتهاك قذر لكل ما يتعلق بإنسانيتك

إحساس لعين..

نهضت من الفراش بتثاقل، خرجت من غرفتي، ولدهشتي وجدت
«سيرا» مشرقة كعدتها في الصباح، تتحدث معهم وتضحك، كل شيء
مجهّز للتصوير، الكاميرات والإضاءة، جلستهم المرحة التي تتصاعد منها
الضحكات، ما إن خرجت حتى نظروا إليّ بابتسامة مرحّبة، ما هذا الهراء؟
هل نسوا كل شيء عن البارحة؟

لوّحت لي «سيرا» بالخطاب في يده، عقدت حاجبيّ وقلت وأنا أشير
لها بإصبعي:

ـ لأ. لو سمحتي يا «سيرا» تعالي ثواني..

نظرت إليّ نظرة تمنعني ممّا أريد أن أفعله، نظرة فهمتها تمامًا وبسهولة،
لأدرك أنه مرّ زمن منذ أن كنت أقرأ الأعين وأفهم نظراتها. طوال الفترة السابقة

كنت أشتغل على عمل [illegible] الآن من أجل [illegible]

أومأت برأسي أن نعم في تفهّم [illegible] الخطاب

ـ أنا اتفقت مع «مصطفى» [illegible]

محاول نعرفه بسرعة عشان ميتأخرش

أمسكتُ منها الخطاب، لتذهب هي [illegible]

الكاميرا، نظرت إليها عبر مسموع [illegible]

هذا المشروع، لكن وقعت عيناي على أول سطور الخطاب

وقررت أن أقرأ كتمًا كل أسئلتي بداخلي

* * *

ـ «(عيسى) يا (عيسى)..

أنا غاضب يا (عيسى)؛ لهذا ستجد هذا الخطاب طويلًا قليلًا. لا تمل مني

أنا وأنت نعرف جيدًا أن عدونا الأوحد هو الخوف.. الكبار يضحكون علينا يا (عيسى).. ويستمتعون بفعل ذلك جدًّا.. ويخدعونك بالحرية دائمًا على الرغم من أنهم لا يفهمون معناها على الإطلاق..

تلك المتعة الخفية وهم يخبرونك أن كل مشكلاتك ستنتهي بعد المدرسة وستصبح حرًّا تفعل ما تشاء، ثم يكملون كذبهم ويخبرونك أن كل مشكلاتك ستنتهي بعد الجامعة، ثم تتسع الكذبة بأن حريتك في العمل والاستقلال، ثم الزواج، ثم الإنجاب..

وعندما تصل إلى تلك المرحلة الأخيرة وتنظر إليهم متسائلًا: أين الحرية؟ يهزون أكتافهم في خبث ويقولون: لا توجد حرية إلا في الجنة يا بني..

يخفون عنك، قاصدين، كل العوائق والبديهيات التي ستمنعك من أن تكون أنت.. لا أدري هل هذا بسبب الحب أم الخوف علينا . لكن في النهاية هم مجموعة من الكاذبين.. وحتى لا أظلم ولأكون دقيقًا يا (عيسى)..

هم مجموعة من الحمقى التائهين مثلنا تمامًا..

كلهم أطفال مثلنا، في التاسعة عشرة، يحاولون أن يفهموا تلك الفكرة التي وصلت إليها الآن وجعلتني أتسامح معهم كثيرًا. تخيل أباك وأمك وأخواتك وعماتك وخالاتك وكل من تعرفه، تخيّل أنهم ما زالوا أطفالًا مثلي الآن في التاسعة عشرة. مطلوب منهم أن يكونوا مسؤولين عن أطفال أنجبوهم، وعمل لو فشل سيهدد حياتهم. تخيلهم حتمًا أطفالًا يا «عيسى».. لأن هذه هي الحقيقة القاسية التي لن يعترفوا بها أبدًا.

في الحقيقة لا يوجد شيء اسمه (نضج).

النضج هو الاسم غير المهين من (الخوف). تخيل طفلًا رأى موت أحد أبويه.. يصبح أكثر إدراكًا ممّن في عمره؛ لأنه أصبح (يخاف). يخاف من الفقد.. فأصبح في نظر مَن حوله (ناضجًا)..

لو تأملتَ فيما يطلقون عليه النضج وتحمُّل المسؤولية، ستجد يا (عيسى) أنهم يقصدون تراكمات من الخوف.. هل كبرت وأصبحت تخاف من الفشل فتنجح؟ هل أصبحت تخاف من الفقر فتعمل؟ هل تخاف من الوحدة فتتزوج وتنجب؟ حتى في علاقتنا يا (عيسى) نحن لا نكبر. كثيرون يتألمون من قذارة مَن حولهم.. فيحسون قلوبهم خوفًا ولا يثقون بسهولة أبدًا. هل هذا بسبب (النضج)؟ لا يا عزيزي. هذا بسبب خوفهم من ألم في قلوبهم لن يذهب بسهولة..

النضج بالنسبة لهم تعريفه هو الرعب من شر الآخرين وقبحهم.

كلما نكبر يا (عيسى) يثقل كاهلَنا الخوفُ من الخسارة. فنبتعد وننعزل ونتقوقع في فقاعة من الأمان حتى يبتعد الأذى عن أرواحنا. وعندما ننجب نعلِّم أولادنا هذا الخوف.

وحقيقة الأمر أننا كلنا أطفال، نريد فقط من يشاركنا تجربة من دون أن نخاف من كل شيء، وعندما نجده، نخاف من أن نخسره.

دائرةُ الخوفِ لعينٌ يا (عيسى)..

وأنا واثق من نصحي لهم

لذلك سأواجه هذا الخوف، أنا واثق أن من سمح لي بالاحتمال ...

ومن ولو انتصح؛ لأن النصح الحقيقي بالعيش أهم أن يأتي ... فقط

عند امتلاكه للرغبة من الآخرين

ثم قال (حازم) مستلطفه (أحمد) ... قلت أنا ...

... موعد منفرد فقط)

سنتقل مقاتلا (عيسى) إلى أرض الحرية إلى دنيا أخرى لن ... إلا

عندما نهزمهم من أجل دنيا أخرة فقط

في انتظار أعظم مشهد في فيلما السحلي ... أنك ستفقدها من

دون تأجيل

وفي نهاية الثغر السادس والكنز السابع أقول هذا اختبار لـ(عيسى

الكبير) داخلك،

إذمّا يتحرر.. يجدني.».

* * *

أنهتْ قراءة لينظروا إليّ جميعًا نظرةً مدهشة، قالت «آن» بإعجاب.

- عجبني كلامه . ماسمعتش حد قبل كدا قال على النضج إنه خوف

نظرتُ نظرًا إليهم، لا أعرف أنني في هذا الوقت رأيتُ كلّ من حولي

يتخبط كطفلٍ صغير، هبط عليهم خبر مرضي لأرى حيرتهم في كل شيء..

الإنسان لا يشعر بضعفه إلا عند مواجهة الموت أو المرض الذي لا شفاء

منه ... رأيت كل من حولي يتخبط كمراهق في ... لذلك ...

أسامحهم كثيرًا على كل ما ضغطوا به عليّ نفسيًّا..

لكني لا أستطيع إلا أن أشعر بخوف منهم وبفشي ...

فبت هو الحال هدوء خارجي، ورعب داخلي:

- «عيسى» عاوز أروح النادي
[illegible]
[illegible]
- أنا و«عيسى» كنا...
[illegible]
- [illegible]
[illegible]
[illegible]
متحاملا كل هذا
- [illegible] لازم ألعب رياضه كتير عشان أبقى [illegible]
شركوني في كذا نشاط.. تدريب سباحة وتنس وحاجات كدا
وأكملت هي القصة.. ليبهصوا مرة واحدة ويجدبوني رغمًا عني
لكني أريد أن أذهب على الإطلاق..

* * *

مدرب السباحة في النادي الرياضي، كان «عيسى الصغير» يكره الرياضة بكل أنواعها، ويكره أيضًا أن مرضه يُجبره أن يذهب إليها.. لذلك فبعد شهرين متواصلين من التدريب، أتاه المدرب وأخبره هو وزملاءه أن اليوم هو يوم «القفز»..

وأشار إلى لوح القفز، طول فترة تدريبهم كانوا يقفزون من ارتفاع بسيط، لكن اليوم هو قفزة الأمتار العشرة..

ضرب قلب «عيسى» خوف مبهم، أخذ المدرب جانبًا وحاول أن يقنعه أنه مريض وأنه قد لا يستطيع أن يقفز تلك القفزة أبدًا... لكن المدرب ربت على كتفه وقال مبتسمًا:

- النطة دي نطة شجاعة يابني.. إحساسها عمره مايتنسي..

[illegible]

* * *

[illegible]

لكنهما تناسبان وسامته أكثر..

[illegible]

- [illegible] في المشكلة التي [illegible]؟

قالت «سيرا» بجدية.

- [illegible] الذي حصل بالضبط؟

[illegible]

[illegible] الاحترام [illegible] واسمه [illegible] [illegible] معي [illegible]
كي دمرت حياتها، و[illegible] [illegible]
الحرية، سحري «مصطفى» [illegible] مصطفى [illegible]
عن [illegible] [illegible]
تحب [illegible] «مصطفى» [illegible] من [illegible]
بك نفضح لن تنتشر لو حدث نوع من [illegible]
قلت وأنا أشعر أنني قد أفقد أعصابي
- وأنت فاهم طبعًا إن التراضي دا معناه فلوس
هز «مصطفى» كتفه بلا مبالاة وبكل بساطة
- آه.. اداك كلمة شرف إنه مو حد الفلوس مش هيعمل حاجة.. هو مش عاوز غير حق «أسماء» اللي انت ظلمتها ودمرت حياتها

نظرتُ إلى «مصطفى» نظرةً أحاول أن أكتم فيها عصبي، أعرف أنه لا يعلم شيئًا عن تفاصيل الموضوع ويقول ما يقوله الرجل من شتمٍ في أذنه، فأنت «سيرا» يتوتر:

- إيه البجاحة اللي بيتكلم بيها دي؟

هز «مصطفى» كتفه في بساطة ولا مبالاة بدأت تستفزني وقال:

- انتو وقعتوا تحت ضرسهم، هم لقوا فرصة من دهب لازم يمسكوا فيها.. ماحدش قالكم ناموا مع بعض في السطح..

وضحك قائلًا وهو ينظر إليَّ:

- دانا كنت باتحايل عليها نعمل كدا وكانت بترفض دايمًا.. يوم ما تعملها تبقى متراقبة؟

ونظر إليَّ بابتسامة مكملًا:

- ما اعرفش اراي انت أقنعتها.. برافو عليك

قلتُ مبررًا ما لن يصدقه:

ـ إحنا ماتعاشش مع بعض.. لو دا عملنا كدا كنت هنشوف صور تانية خالص..

[illegible]

هو انت مش مضايق مني أو [illegible] ده؟

مصري عرفته [illegible] في حرب. كنت أعرف أنه [illegible]

حكي [illegible] نتعامل مع [illegible] فترة طويلة، نتعامل فقط مع [illegible] فقدت كل [illegible] الحوارات التقليدية وسهولتها، لم أعد أعرف ما يصح أن يقال وما لا يصح، أقول ما في عقلي من دون أن أبالي. ابتسم «مصطفى» وضيَّق عينيه قائلًا:

ـ أنا ماليش دعوة بحياتها من ساعة الطلاق، تعمل اللي هي عاوزاه، هي حرة طبعًا.. أنا و«سيرا» سايبين بعض وكل واحد فينا بيحترم التاني..

قلت متسائلًا بحيرة صادقة تمامًا:

ـ يعني فيه حاجة اسمها ناس نضيفة بعد الطلاق، ولا دي إشاعة؟

نظر «مصطفى» إلى «سيرا» نظرةً حنونًا، في حين نظرَتْ «سيرا» إلى الأرض نظرة متوترة لم تخفَ على عينيَّ، قال:

ـ أكيد طبعًا.. يمكن الحاجة الوحيدة اللي كانت ممكن تعمل مشكله هي «آسر»، بس الحمد لله المشكلة دي اتحلت..

نظرت «سيرا» بعيدًا لتداري شيئًا ما عني، عقدتُ حاجبيّ ونظرت إليها، ثم التفتُّ إليه قائلًا:

ـ «آسر»!

نظر إلينا نظرة حائرة، ثم قال مبتسمًا لـ«سيرا»:

ـ انتِ ماقولتيلوش ليه؟

[illegible]

[illegible]

ـ [illegible]

[illegible]

[illegible] أكثر..

* * *

ـ أنا باكره أهلي..

قالها «عيسى» لصغيرا، وهو ينظر إلى لوح القفز العالي، اضحكت «سيرا» قائلة:

ـ يابني بطَّل اللي بتقوله دا..

كانت «سيرا» تذهب معه إلى النادي، لم تكن تُدرِّب تدريب السباحة، لكنها عندما عرفت كراهيته الذهاب قررت أن تشجعه بذهابها معه، على اتفاق أن يذهب إلى تدريب الأسكواش معها أيضًا، بدا اتفاقًا عادلًا فوافقا عليه..

قال «عيسى» بقلق وعيناه لا تفارقان لوح القفز:

ـ ماحدش يرمي عياله الرمية الزبالة دي.. مش ممكن الواحد يقع ياخد كرباج ويموت؟

قالت «سيرا» ناظرة إلى ما ينظر إليه، وابتسمت باستهزاء قائلة:

ـ النطة دي سهلة.. ماتخافش..

نظر إليها «عيسى» بعصبية وقال:

ـ يعني ترضي ابنك يتعمل فيه كدا؟

أشارت بإصبعها أن لا وقالت بجدية:

ـ أنا مش هاخلف..

نجحت أن تسرق انتباهه، فقال متسائلًا:

ـ ليه صحيح؟

نظرت إلى السماء لحظات، ثم عادت بابتسامة [illegible] وهي ترفع إصبعها

ـ [illegible] حاجتين.. أول حاجة إني باعشق التمثيل [illegible]

الفن زي ما بيقولوا.. [illegible]

ورفعت إصبعها الثانية قائلة، وقد بدأت إشراقة ابتسامتها في [illegible]

ـ التانية إني رافضة من فكرة إن الست لازم تخلف.. [illegible]

ولا [illegible] إنها ست وأم ولازم تدي حياتها لعيالها.. الفكرة دي [illegible]

كلنا في داهية..

وأكملت وهي تحرك خصلة شردت لتهبط على عينيها:

ـ تقدر تقول إني عارفة إني أنانية جدًا.. عاوزة أنجح وأثبت نفسي في كل حاجة غير إني أتجوز وأخلف وأطفي.. أنا عمري ما هاعمل زي ماما

أدرك «عيسى» حساسية الأمر عندما ذكرت أمها، فقال بلا مبالاة وهو يعيد نظره إلى اللوح العالي:

ـ كل البنات بيقولوا كدا، وبعدها بيتجوزوا ويخلفوا ويتجننوا..

قالت «سيرا» ضاحكة:

ـ يا سي أنا برج القوس.. أنا مستحيل أبقى زيهم كلهم.. أمال أنا وانت صحاب ليه؟

لينظر إليها «عيسى» مبتسمًا ابتسامةً حنونة، سرعان ما انطفأت عندما أتى المدرب قائلًا لكل المتدربين:

ـ يلّا يا ولاد.. هنطلع المطّ دلوقتي..

* * *

لم أستطع أن أنطق بحرف، نظرتُ إلى «سيرا» فترةً طالت، لكنها تجاهلت نظرتي، قال «مصطفى» بارتباك:

ـ أنا ماكنتش قصدي أقول حاجة ما تعرفهاش.. بس حسيت إن إنكم في علاقة فأكيد يعني هي حكت لك عن أمها..

[illegible]

- هنعمل إيه برضه؟

قال «مصطفى» بهدوء:

- أنا معرفش «سيرا» حتكلمك ولا لا.. بس هي متعاقدة معانا على الفيلم الجديد اللي بننتجه.. فممكن لو مفيش إمكانيات مادية أديها المبلغ وندفعوه ونبقى كده أجرها على العقد بتاعها..

عقدت «سيرا» حاجبيها وقالت بجدية:

- بس أنا أجري أكتر بكتير من اللي الراحل طالبه..

رد «مصطفى» بسرعة تاجر ذكّرتني بخال «أسماء» كثيرًا:

- بس دلوقتي إحنا بننقذ موقف.. كمان انتِ ممثلة مشهورة، ولو الحاجات دي اتسربت الفيلم هيتضرب ويسقط.. فأنا باخاطر قوي إني بعد ما عرفت اللي عرفته لسّه مكمل معاك..

همت «سيرا» بالرد في حدة، لكني أوقفتها بإشارة من يدي وأنا أقول ناظرًا إلى عينيه:

- الموضوع مش موضوع فلوس.. الموضوع إنك تضمن منين إنه مايطلبش أكتر، أو حتى إننا بعد ما ندفع له ينشر الحاجة كده كده؟!

قال «مصطفى» بجدية:

- هو اداني كلمة راجل.. والناس اللي زيه دول أنا عارفهم وبتعامل معاهم.. دا حقهم اللي انت كلته عليهم وهو مش هامه غير الفلوس.. انت عارف

[illegible]

[illegible]

قلت مكملًا ما قاله:

- [illegible]

[illegible]

- [illegible]

[illegible]..

- [illegible]

- [illegible] عريانين..

قلت بحدة:

- وهنفرق إيه عنهم لو عملنا كدا؟

قال وقد بدأ صبره ينفد:

- ضد تجوزوا بسرعة واعلنوا عن الموضوع.. ساعتها أي حد هينشر أي حاجة الناس هتشمه هو..

تحجبت قليلًا وبطرت إلى «سيرا»، ضربت كلمة أبي الصارمة صدري، قلت بتوتُّر:

- مش هينفع عشان انتو لسه ما أعلنتوش عن طلاقكم أصلًا..

قال بنفس حدتي، لكن بصوت أهدأ قليلًا:

- ما هو أنا مش شايف حضرتك عامل حاجة برضه.. لا انت مبلّغ عنهم وعاوز تحبسهم.. ولا عاوز بلطجية ولا عاوز تدفع..

وأشار إلى «سيرا» قائلًا بنبرة عصبية:

- ومشكلاتك هتئذي أم ابني في شغلها وفي حياتها كلها. ممكن أعرف انت ليه بارد كدا؟ ولّا انت مش فارق معاك أي حد غير نفسك واللي يتفضح يتفضح؟

قلت سيرة صغيرة كرهتُ خروجها مني:
- أنا بابا بيتماوص مع المراحل، وإن شاء الله كل حاجة هتتحل..
ليضحك ضحكة ساخرة:
- بابا؟! انت كام سنة يا حبيبي معلش؟
نهضتُ من مقعدي بغضب، لتقول «سيرا» فجأة بصوت عالٍ:
- «مصطفى».. لو سمحت!
نهض «مصطفى» أيضًا ونظر إليها قائلًا بغضب:
- انتِ معينة يا ماما؟ الحاجات دي لو طلعت انتِ فاهمة إيه اللي هيحصل؟ مافيش منتج هارضى يعمل فيلم معاكِ غير الناس الرخيصة اللي عاوزة تتاجر بلحمك.. غير إنك مش هتشوفي ابنك تاني.. مش عشان أنا هامنعك.. عشان هو مش هيطيق يبص في وشك..
بدأت عينا «سيرا» تدمعان، شعرت بفوران يجتاح كياني كله، لماذا أشعر بهذا العجز؟ قالت «سيرا» بقوة على الرغم من عينيها الدامعتين:
- «مصطفى».. سيبني أهدا وهاكلمك آخد منك الفلوس..
هل ستقبل تلك الصفقة؟ هل ستدفع النقود كي تحمي نفسها؟ نظرت إليها باستنكار في حين ابتسم «مصطفى» في انتصار، قال مشيرًا إليَّ بالابتسامة نفسها:
- وعامة ريباوند زي ما انتِ عاوزة.. بس انتِ محتاجة حد يعرف ياخد باله منك أكتر من كدا..
وقال ناظرًا إليَّ مباشرة:
- محتاجة راجل..
ضربتني كلمته في صدري، وقفت ناظرًا إليه وأنا أدرك تمامًا أن ما قاله صحيح، لا يوجد رجل بهذا العجز أبدًا..

لكنه الخوف اللعين..

الخوف الذي يصبح حاجزًا على صدري يجعلني أقف عاجزًا أمام كل شيء.

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢١ - «الشريك يجعلك تؤمن أنه مسؤول منك.. أنه جزء كبير من أي قرار تأخذه.. ويشكك في تلك القرارات ذاتها ويدَّعي أنها آلمته وهزت ثقته بك أنك فشلت في تحمل مسؤولية روحه.. فيصيبك خوف رهيب من قراراتك في الحياة.. تشعر بمسؤولية أنك المُلام على كل أوجاعه وآلامه التي جاءت بسببك.. تيأس.. تخاف.. تترك حياتك تسير من دون أن تأخذ قرارًا واحدًا حتى لا تؤذيه.. فيأخذ هو الراية. ويقرر كل شيء»..

والخطوة التاسعة عشرة في التعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تستعيد راية حياتك وتحكُّمك فيها.. ولا تسمح لأحد أن يقرر لك أي شيء مهما كان بسيطًا..

صاحت «سيرا» بعصبية:

- «مصطفى» لو سمحت!

ابتسم في سخرية وانصرف بخطوات سريعة غاضبة..

* * *

صعد «عيسى الصغير» مع المتدربين ذلك السلم العالي، وقلبه يخفق في خوف..

تعمّد أن يكون آخر الصف، حتى يقفز آخر واحد فيهم، لكنه أدرك أن هذا يزيد خوفه أكثر..

لم يكُن يخاف المرتفعات، لكن منظر حمام السباحة من أعلى يبدو صغيرًا للغاية، شيء ما من عدم السيطرة في الموقف كله يجعله يرتجف..

وقفز الجميع.. ولم يتبقَّ سواه..

صرخ فيه المدرب بحماس أن يقفز، لكنه وقف على طرف اللوح بعد
أن استعد وشعر بجسده كله يرتعد

شعر أنه يريد أن يبكي..

لم يكن يخاف من أمر بعينه، لكنه خاف من الإحباط، من أن يعتمد أحد على أي شيء مهما كان.. شعر أن أعصابه بدأت تنهار، ورأى «سيد» [illegible] يقف على حافة حمام السباحة وينظر إليه متحمسًا، لكنه شعر بعدم [illegible] مشلولة، قال المدرب بحماس ضاحكًا:

ـ هتنطّ يا «شواف» ولا أزقك؟

هزت الكلمات «عيسى» أكثر، شعر أنه يريد أن يبكي، لكنه يخاف على مظهره أمام زملائه، بدأ ارتجافه يزيد وشعر أنه يريد أن يتقيأ، ابتسم المدرب في طيبة، ثم تحرك ليدفعه وهو يقول:

ـ خلاص هازقك، بس ماتزعلش من الكرباج..

ليفعل «عيسى» آخر شيء يتوقعه..

انهار باكيًا وسجد على اللوح العريض، وقال باكيًا:

ـ عشان خاطري مش عاوز أنط.. وحياة أبوك ما تخليني أنط غصب عني.

انتفض الرجل من الحركة المفاجئة، ربت على كتف «عيسى» بهدوء، لكن «عيسى» تشبث باللوح غير مبالٍ بمنظره، قال المدرب:

ـ ياسي الخوف دا في دماغك انت بس.. صحابك كلهم نطوا وماحصلهمش حاجة..

قال «عيسى» باكيًا:

ـ أنا عارف إن مش هيحصلي حاجة.. أنا مش خايف.. أنا مش عاوز أنط غصب عني بس.. انت ليه مش فاهمني؟!

قال المدرب بإحباط كي يُنهي ذلك الموقف السخيف:

ـ خلاص طيب.. انزل..

رفع «عيسى» رأسه بأمل، ثم [illegible]
تمتمة المدرب الساخطة
- الله يفضحك، كسفتنا!
ليدرك، عند مروره، مع نظرات الجميع الساخرة التي [illegible]
معنى كلمة الشعور بالخزي.
وضع عينيه في الأرض، واستمر راكضًا

* * *

ساد صمت ثم بعد انصراف «مصطفى» صمت ثقيل. لا يقطعه إلا نسمة الهواء الباردة في ليل أبريل..

قالت «سيرا» ناظرة إليَّ بنبرة معتذرة:

- سيبك من اللي قاله.. أنا مش محتاجاك تحميني.. أنا مش عشان سب يبقى كل الناس لازم تقذفني. أنا وانت عملنا الموضوع دا يا «عيسى» مش انت بس..

نظرت إليها نظرة تائهة، لم أستطع أن أسمع معظم ما قالته، كنت في عالم آخر تمامًا..

أخرجت سماعات الرأس وأوصلتها في هاتفي، ووضعتها في أذني، وقلت وأنا أنظر إلى الهاتف:

- أنا هاقولك حاجة، بس مش عاوزك تردي..

نظرت إليَّ دامعة، لم أنظر إليها وأنا أقول مقاومًا كل ما أشعر به:

- «مصطفى» عنده حق.. المفروض إني أعرف أحل أحسن من كدا.

ثم ابتسمتُ وأنا أقول بحزن طغى على تفاصيلي:

- أنا يمكن بس عشان مش باعرف أتعامل مع الوساخة. أنا باعرف أشوف أحسن حاجة في كل اللي حواليا.. مابعرفش أصدَّق إن في ناس

[illegible]

[illegible]

[illegible] Sohbet Hislerimize

[illegible]

الأغنية تدوي في أذني:

- [illegible] أوعدك إني هانتظر [illegible]

وهمست وقلبي ينتفض:

- أوعدك إني مش هانسى [illegible]

عرفت إن نظرة غير [illegible]، لأتحرك أنا بخطوات سريعة ناحية [illegible]

وكانت الأغنية تدوي في أذني..

* * *

My soul is reborn,

But everything seems to be lost/ gone,

So deep.. my feelings..

* * *

رأيت «آن» و«ياسين»، لمحتهما بطرف عيني وهما يتحركان ناحية الكاميرا، في حين لم أعبأ وأنا أركض صاعدًا السلم الطويل.. تتصاعد دقات قلبي وكلمات «مصطفى» تخترق رأسي كسهم يصر أن يسحق ما تبقى من كرامتي..

ما هذا الذي أصحته؟

من هذا الشخص؟

* * *

My shoulder heavy with burdens.

But I was not giving up.

It's not over, it's not over, I'm not finished

• • •

صعدت أعلى سطح المنشأة عقب نهاية [illegible]

يبدو حجم المساحة أصغر بكثير الآن

أم أنني من كبرت فصدقت في عيني كل المساحات؟

نسمة باردة جعلت أوصالي ترتجف.. شعرت بموجة حقيقية من هذا الارتفاع.. [illegible] لأمر سهل على معظم الناس، لكنه [illegible] علي [illegible]

تأملت كل شيء من أعلى.. لمحت بشرًا حقيقيين من كل التخصصات حيث يمشون على الحافة ولا يستطيعون القفز أبدًا.. قد يقتربون مثلي من حافة جزءًا بسيطًا من الأمان.. حتى لو بكوا.. حتى لو ركعوا.. لن يقفزوا ما دام إحساسهم المؤقت بخوف الشيء سيزول.. يفكرون في فكرة ذاتهم من الابتعاد عن ذواتهم..

رأيت فيهم أكثر ما أكرهه الآن..

رأيت فيهم نفسي..

نظرت إلى السير، التي وقفت على حافة حمام السباحة تتصرف هذه المرة بخوف، شعرت بالدموع تغمر عيني.. شعرت بغضب يجتاح كياني من كل شيء يشعرني بالعجز.. من الأسماء.. من خوف.. من أبي وأمي.. من الوعي الصغير الذي يجعلني أواجه كل هذا من الخوف لدرجة تمنعني لا إراديًا.

كرهت كل شيء.. لم أستطع أن أتحمل أكثر من هذا.

فصرخت..

تأوهت بصرخة أم بأعلى صوتي ليدوي صداها عاليًا في المكان كله

صرخة صوتها حزين، انطلقت في السماء، عسى أن تجد نجمة على
قلب أملكه الألم
ولم تجد..
سهت صرختي، لأشعر بثقل غريب يزاح عن كاهلي.. فنظرت إلى
الأسفل، عدت ثلاث خطوات للخلف
أغمضت عيني..
نفس عميق
وزفير يخرج حرًّا لا يقيده شيء.

* * *

I am not special or something like that,

But when you were here I was always felt like this,

I felt that way..

* * *

الخطوة العشرون لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: اقفز.. قفزة إيمان كاملٍ أنك لن تقع.. لن يصيبك مكروه.. قفزة حرية تُفيقك من كل ما فات.. وتُحضِّرك لكل ما هو آتٍ..
ركضتُ بسرعة وقفزت..
رافضًا كل شيء حولي قفزت..
تاركًا كل ألم شعرت به في حياتي خلفي قفزت..
وللحظة شعرت بحرية لم أشعر بها منذ سنين طويلة..
منذ أن وُلدت..
أنا لم أعُد خائفًا..
ارتطم الماء البارد بظهري، وشعرت بألم بشع في ظهري وقدمي وأنا

أغوص في الماء أكثر. تركتُ نفسي تماماً حتى يغمرني الماء. أغمضت عيني،
وبدأ يغسل كل ملاذي ولا مبالاتي ومللي وهواني
صاخبا..

وعلى الرغم من الألم الذي ضرب جسدي بسبب الهبوط الخاطئ في الماء
فإني ابتسمت لأول مرة ابتسامة صافية..
حرة..

* * *

(١٦)

الأمر السابع

حقرا وفوق كوكب حقير محتقر
في الكون تكون دنياكو إيه يا بقر؟
رملاية من صحرا؟ لكن إيش تقول
والكون بحاله جوّه عقل البشر
عجبي!

صلاح جاهين

أخذت من النادي منديلًا كتذكار لي أنني انتصرت على خوفي، حمدت الله أن هاتفي المحمول كان ضد الماء وأنني لن أضطر لشراء هاتف ثالث، لكن بالطبع سماعات الأذن فسدت تمامًا..

غُدنا بعد قفزتي إلى فيلا «سيرا» بروح صافية، لأقول لـ«سيرا» إنني أريد أن أعرف الأمر السابع على الفور، لتبتسم في هدوء وتعطيني البطاقة الخاصة بالأمر السابع، قالت «سيرا» بابتسامة هادئة:

ـ مابقاش فيه الفيديو التاني بتاع «عيسى» اللي حقق حلمه.. كل اللي جاي فيديو واحد..

ونظرت إليَّ نظرة ذات معنى وقالت بحنان:

ـ عشان خلاص انتو بقيتوا واحد..

ابتسمت في تأثُّر، وضغطت على زر تحميل الفيديو، وبطرف عيني تأملت «ياسين» و«آن»، «آن» أصبحت صامتة في الفترة الأخيرة.. لا بُدَّ أن أتذكر أن أسألها ما بها..

ليبدأ الفيديو ويسأل «عيسى الصغير» بحماس:

ـ قولِّي إنك نطيت!

أومأتُ برأسي أن نعم بابتسامة حرة، وأنا ما زلت أرتجف من التجربة ومن برودة الماء، على الرغم من تبديلي ملابسي، لكني أشعر بالبرودة في عظامي..

صفَّق بيديه في ثقة أدهشتني، ورقص رقصة انتصار وهو يصيح:

ـ أيوه كدا..

كيف عرف أنني سأقفز؟ لو كنت [illegible] ولم أقفز [illegible]

[illegible] تماما عند عرض الفيلم، فكيف كان [illegible]

سأقفز؟

لأدرك غباء ما فكرت فيه..

أنا هو..

هذا المراهق كان يثق بنفسه..

بل كان يراهن بكل شيء لديه على بعض الصفات التي [illegible]..

قال «عيسى الصغير»، وهو ينظر من خلال الكاميرا [illegible] إلي أنا

ـ مين معاك دلوقتي؟

ابتسمت لذكائه وتصميمه على خلق تلك الحالة من التواصل بيننا، قلت بصوت عالٍ:

ـ «سيرا» و«آن» و«ياسين»..

قال ملوحًا بيده في بلاهة تمثيلية:

ـ ازيكم كلكم..

ثم غيَّر أسلوبه وقال ممازحًا:

ـ وازيك يا بت يا «سيرا».. لسَّه مسح ولا عملتي عملية تجميل زي ما وعدتيني؟

اتسعت عينا «سيرا» في دهشة، وقالت ضاحكةً بخجل:

ـ اخرس يا حيوان..

ثم أدركت ما فعلته والتفتت إلينا قائلة:

ـ أنا بارُدُّ عليه ليه؟

وضربتني في كتفي قائلة:

ـ انت اللي حيوان عشان تسجل حاجة زي كدا..

ابتسمتُ وأنا مرتاح لتلك الحالة التي خلقها «عيسى الصغير»، لم يكُن يعرف من معي لكنه كان متأكدًا أن «سيرا» ستكون موجودة فمازحها ليجعل

الأمر أكثر واقعية.. ابتسمتُ وأنا أنظر إلى «عيسى [illegible]

الصغير» وأقول بحنان:

ـ كان نفسي يبقى لك مستقبل وحياة [illegible] ومش [illegible]

ابتسمتْ ابتسامة حانية وهو ينظر في عيني [illegible] بعدها [illegible]

أن هناك حاجزًا سيوضع بيني وبينها، ذلك الإحساس بالعجز والعقد [illegible]

تجاهه سيجعل «سبرا» سعيدة، لكن نظرتها إليّ الآن جعلتني أدرك أنها لن

تذهب أبدًا..

وقف «عيسى الصغير» لحظات عن الكلام، وارتسمت الجدية على وجهه

قليلًا وهو يقول:

ـ إحنا دخلنا في الجد.. معنى إن حواليك صحابك دلوقتي مسئولين

علياء يبقى انت بتثق فيهم قوي..

نظرت إليه لحظة، ثم انقبض قلبي وأنا أتذكَّر هذا الفيديو بالذات..

ولأول مرة منذ أن بدأت رحلتي معه، أتذكر المشهد بعين «عيسى الصغير»،

أراني وأنا أقف أمام الكاميرا في غرفتي القديمة أنظر إلى الكاميرا القديمة،

الغرفة التي أصبحت قاسية، مؤلمة بالنسبة لي وقتها..

لذلك كان «عيسى الصغير» مرحًا ويمازح «سبرا»، كان قد بدأ أن يتحوّل

إليّ ويسخر قليلًا حتى ينسى ما به..

بدأت شفتاي تتحركان معه، وهو واقف في الشاشة ينظر إلينا قائلًا

بابتسامة حزينة:

ـ عمك «جاهين» قال: «حقرا وفوق كوكب حقير محتقر.. في الكون

نكون دنياكو إيه يا بقر؟».. الرباعية دي كانت قاسية قوي ويمكن ماحدش

صدق إن «جاهين» قايلها.. بس أنا أكتر واحد فاهمه.. يمكن أكتر واحد

حاسس إنه شبهي في الدنيا دي..

ثم تهدَّج صوته قليلًا مع آخر الجملة، كان يقاوم البكاء، أتذكَّر الآن،

ربما لأن تلك الذكرى بقي ألمها معي حتى الآن..

كنت أوصي أبي أنا و«صلاح جاهين» متشابهان، في مدة حياة، ظننت أنه عندما مات في الحادي والعشرين من أبريل، وميلادي أنا في الثامن والعشرين من الشهر نفسه، أن روحه تسللت إليّ بوجه ما. شاهدت لقاء للفنان «شريف منير» وهو يحكي عن «صلاح جاهين» الذي تنبأ له أنه ممثل، حكى «شريف» أن «صلاح جاهين» استضافه يومًا وقال له ستصبح ممثلًا عظيمًا، ليرد عليه «شريف» ويقول إنه يرغب أن يكون موسيقيًا، لكن «صلاح جاهين» كان يمسك قلمه الرصاص وينظر إليه قائلًا:

ـ أنا بشوف النجوم قبل ما تنور..

مرت تلك الجملة على الجميع لكنها لم تمر عليّ بسهولة؛ لأنها لمستني.. بحثت وراءها لأكتشف أنه كان يستضيف أصدقاءه في البيت دائمًا ويسعى دائمًا في اكتشاف المواهب، اكتشف الشاعر «سيد حجاب» و«عبد الرحمن الأبنودي» وعظماء كثيرين..

تلك الجملة جعلتني أشعر أن هناك مَن يفهم ما أراه في كل مَن حولي.. أنا أرى ضياءهم . أرى ما يستطيعون أن يكونوا لا ما هم عليه.. أنا من قلت لـ«سيرا» وهي صغيرة إنها ممثلة حساسة وبارعة.. أنا من رأيت في «آن» كاتبة صحفية يعشق قلمها الكثير الآن.. قلت لـ«جمال» إنه ممثل بارع.. لكن الأخير لم يصدق وبقي في دائرته..

وأنا من رأيت في «أسماء» عبقرية لم يرَها غيري.. بداية الخلاف بيني وبين أهلي هي تلك الأحكام المستمرة عليها لأنهم يرون حقيقة ما هي عليه.. وكنت أريدهم أن يروا نورها الذي أراه وسأجعله يسطع في وجوههم..

لكني أحرقت نفسي حتى أنير ظلامها ولو قليلًا..

ليبتلعني ظلامُها بدلًا من أن أنيره..

قال «عيسى الصغير» منتزعًا إياي من أفكاري، بالصوت المتهدج نفسه:

ـ أنا مريض مرض مزمن، اسمه «MS»..

نظروا إليّ جميعًا في قلق، شهقت «آن» شهقة خافتة، في حين نظرت إليّ

«سيرا» بعينين خائفتين متسعتين..

تلك النظرة التي هي سبب كتابي تلك القصة اللعين..

قصة مرض لا شفاء منه..

الـ«MS»، أو «التصلب اللويحي»، هو مرض مناعي، عندما حاول الطبيب أن يجعلني أفهم ما هو، أمسك سلك سماعة جهاز الـ«MP۳» - جهاز قديم كنا نسمع عليه الموسيقى لعدم وجود تلك الخاصية في الهواتف المحمولة - وقال لي إن أعصاب مثل سلك تلك السماعات، هذا المرض يأكل الغلاف الخارجي للأعصاب، فيؤثر على كل شيء في أعصاب الإنسان: ساسي الحركة، والبصر، والسمع.. والأهم من كل هذا:

الذاكرة..

كل ما يتعلق بالأعصاب في العموم..

ولعنة ذلك المرض أنه في حالات كثيرة طويل الأمد..

يعيش داخلك ويأتيك في شكل أعراض بسيطة.. ثم يهجم مرة واحدة.. مرة واحدة فقط.. ثم تختلف الحالات هنا.. حالات يؤثر عليها المرض بشكل قوي حتى العجز التام، وحالات أخرى - مثلي - لا تظهر الهجمات إلا على فترات متباعدة تصل إلى سنين طويلة..

كنت في الثامنة عشرة، عندما استيقظتُ من النوم لأغسل وجهي ولا أشعر بالماء البارد على نصف وجهي الأيسر كله، لمسته بيدي واكتشفتُ أنني لا أشعر بشيء.. قلت لأبي ليفزع ويذهب بي إلى المستشفى ظنًّا منه أنها جلطة.. لكن الطبيب أوصى برنين مغناطيسي على الرأس.. لتظهر نتيجة التحاليل..

ساد وقتها جو عام من الكآبة.. المرض بالفعل لا شفاء منه.. لكن هناك كثيرًا من أنواع الأدوية لتأجيل تأثيره وتخفيفه.. العلاج الطبيعي والرياضة - لذلك أجبروني على السباحة - والأدوية ستجعل كل شيء أقل ألمًا.. ظللت آخذها فترة طويلة ثم يئست في وقتٍ ما فتركتها كلها..

كيف لطفل مراهق، يحلم أن يصبح مخرجًا، أن يجد أي نوع من أنواع الأمل

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لأن بيرموت..

قال «عيسى الصغير» [illegible]

كمتها وأنا أصوّر معي وقتها:

[illegible]

[illegible] (عيسى) [illegible]

[illegible] ولا [illegible]

[illegible] هتمشي وانت [illegible] للناس [illegible]

[illegible] (عيسى).. أخر الناس كلهم تشوف [illegible]»

مرت قشعريرة في جسدي مع وقع الكلمة، لتتسم «عيسى الصغير» مكملًا:

- وأني [illegible] معك دلوقتي بـ «عيسى» هو الحاجة الوحيدة اللي هتخلي [illegible] تشوف [illegible].. هتخليهم يفهموا همّ بيعملوا إيه في نفسهم. [illegible] حقيقي فيه حوار بيني وبينك وبين كل الناس [illegible] لو انت في أي وقت مقدرتش تكمل.. افتكر إنك بتعمل دا عشاني أنا.. مش [illegible].. عشان تشوف مين فينا اللي صح..

وابتسم بصدق وهو يكمل:

- إحنا.. ولا انتم؟

وصمت فترة طويلة، سرى في جسدي حماس غريب، في حين قال هو مستعيدًا شخصية لعبة البحث عن كنز.

- الأمر المرة دي صعب قوي.. زي ما أنا اعترفتلك واعترفت لكل اللي معاك بمرضي.. انت هتعترف لكل اللي حواليك [illegible] حاجة جواك.. مفيش حاجة هتسيبها غير وتعترف بيها.. لو بتكره حد هتقوله.. لو بتحب

واحده وهي لسه مبتعرفش هتقولها .. لو عملت بلاوي الدنيا والآخرة
هتعترف بيها..

وحرّك يديه في حركة استعراضية قائلًا:

- و«سبيرا» هتدّيك الجواب لما نشوفك معاه قدام الناس كلها.

وتألّق عينه كعادته وهو يقلد «عرفة الشواف»

- وأقول يمكن لو فتحت عينيك أشوف عين اللي اسمه شبيهه أو مش كده يمكن
معه.

ومال على الكاميرا وقال مكملًا تقليده:

- أقولك على سر ومتضحكيش علي؟

كان في ذلك المشهد «عرفة الشواف» يحدّث «بطيرة» ويخبرها بسرّ حميمي، ابتسمتُ أنا وأنا أعرف ما سيقوله، ليقول هو بابتسامة غلّفها شجن غريب مخالفًا توقعاتي:

- إحنا بنخاف من الضلمة يا «عيسى»..

لم أكن أعرف أنه سيعتبر الجملة ليجمعنا فيها، لوّح بيده بابتسامه واسعه قائلًا كعادته:

- سلام يا مستقبلي الاسود..

لتظلم الشاشة تمامًا..

* * *

وقفتُ في منتصف الصاله، رمقتُ الكاميرا بجانبي، وأمر «عيسى» يدوي في صدري..

هل يريدني حقًا أن أعترف بكل شيء؟

عندما نكبر ندرك أن أسرارنا لا تخص أحدًا، أن أخطاءنا ونواقصنا ملكنا نحن فقط، ليس من حق أي شخص أن يعرف أدق أسرارك وأن

[illegible]

[illegible]

[illegible]

حدثنا فيما بعد..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لقد رأيت أرواحهم..

كمادتي القديمة..

رأيتهم حيث مراهقين، تحولوا داخل عيني إلى أطفال [illegible]

يتصرفون في حيرة [illegible] رأيت «[illegible]» في عيني [illegible]

حتى لا يعرف كيف يتصرف، لكنه يريد أن [illegible] على [illegible]

تحتويني نظرة بريئة لم أر أجمل منها في حياتي

كنهم يحبونني حبًّا صافيًا ويخافون عليَّ لدرجة لم أصدقها

أرواحهم نقية..

جلستُ على الكنبة الوثيرة، داخلي أشعر أن هناك روحًا من الإصرار

تجتاح كياني..

الخطوة الحادية والعشرون للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: لا يوجد في الحياة ما هو أكثر شجاعة من أن تعترف بكل ما بداخلك.. قُل ما في قلبك. تكلم. صمتّ كثيرًا بضغط من الشريك.. هناك من يحبونك بصدق ويريدون سماعك.. يريدون أن تتواصل معهم كي يعرفوا كيف يساعدونك؛ لذا تكلم وقل أسوأ ما في قلبك لهم.. خفف من الحمل ودعهم يسمعوا لأول مرة كل ما تحمله من ألم..

همست وأنا أنظر على الأرض، أعلم أنهم يسمعونني، أعلم أن الكاميرا تسجل كل ما سأقول:

- أنا أوسخ واحد في الدنيا..

لم أسمع ردًا ولم أتوقع واحدًا، قلت وعيناي تائهتان على تفاصيل السجادة المفروشة:

- لما الواحد بيعرف إنه فيه حاجة غلط بيتغير.. الحاجة دي ممكن تبقى دمعه أو مرضه أو حتى شهوته.. مش مهم.. المهم إنها تغيره

قالت «آن» بقوة، وبصوت يحاول أن يبدو حياديًا

- انت مش لازم تقول حاجة انت مش عاوزها..

ابتسمت في لا مبالاة، لم يعُد هناك ما أخاف أن أخسره، لا يوجد ما هو أسوأ من أن تخسر احترامك لنفسك.. وأنا خسرته منذ زمن بعيد..

قلتُ مبتسمًا:

- أنا أناني جدًا.. متدلع جدًا ومش باعرف أشيل مسؤولية.. دماغي بشت في كل حاجة باحلم بيها.. مابعرفش أفهم غير اللي في دماغي واللي أنا عاوزه.. حتى معرفتي بيكم ومساعدتي ليكم دايمًا، عشان بس أحس إني عملت حاجة حلوة في الدنيا.. مش عشانكم زي ما انتم متخيلين..

وابتسمتُ ساخرًا وأنا أكمل:

- ولحد دلوقتي مش عارف مين فينا اللي وجع التاني أكتر.. أنا ولا «أسماء»..

نظروا إليَّ مستنكرين، فأكملت ما كرهتُ الاعتراف به طول الوقت السابق:

- حاسس إني عاوز أكلم «أسماء».. حاسس إني مديون لها بتفسير.. هي موجوعة عشان حاجات في دماغي ماتعرفهاش.. أنا بقيت في أرض وهي في أرض تانية خالص.. من حقها تعرف اللي جوايا وإيه اللي خلى كل دا يحصل

ساد صمتٌ ثقيل، تجاهلتُ أفكاري ونظرت إلى «آن»، التي دمعت عيناها، نظرة طويلة، عيناها حزينتان تعترفان أن ما قلته يدور بداخلها. ابتسمتُ وقلت:

ـ انت الصاحبة اللي كنت باحلم بيها طول عمري، أنا عمري ما صدقت بالصداقة بين الولاد وبعضها، وبين البنات وبعضها.. بحس إن الصداقة [illegible] الصداقة [illegible] عريان [illegible] المصير اللي بيوصل موجود حتى لو انت عريان [illegible]

وابتسمت مكملًا بسخريتي الدفاعية:

ـ حتى لو فيه «benefits» مش مشكلة، بس مايبقاش أكتر من كدا

ضحكوا ضحكة خافتة، كعادتنا رفعت «ان» لي إصبعها الوسطى؛ لأني أفسدت اللحظة بمزاحي، أخذت نفسًا عميقًا، نظرت إليها نظرة طويلة.

* * *

أعرف «ان» منذ عشرة أعوام، عندما أتت إلى البنك يومًا. فتاة في العشرين من العمر دامعة العينين وبأنف أحمر من البكاء، كنت موظف شباك في البنك، الوظيفة التي حافظت على وجودي فيها طول تلك الأعوام، حتى استقلتُ..

جاءت في حالة يُرثى لها، ترتدي ملابس سوداء، تقول لي بنبرة تائهة:

ـ همّ بيعملوا إيه عشان يفتحوا حساب في البنك بعد إذنك؟

شعرت أنني أعرفها، شيء ما بداخلي جعلني أقول مباشرة وأن أنظر إليها من خلف الشباك الزجاجي:

ـ مالك؟

نظرت إليّ نظرة مفاجئة، لم تتوقّع هذا السؤال، حاولت أن تبتسم وهي تزيح خصلة من شعرها القصير، وتقول في لهجة تمثيلية لم تقنعني:

ـ لا مافيش حاجة..

ثم بلهجة رسمية كي توقفني عند حدي:

ـ حضرتك أنا عاوزة أفتح حساب في البنك..

[illegible] عقدة [illegible] لدى معظم [illegible] أن أي شخص يحاول الاقتراب
هو متحرش [illegible]، بينما العكس [illegible] عقلي أن أصمت ولا أتدخل،
لكني قلت بإصرار:

- مش [illegible] [illegible] [illegible] أعرف [illegible]

[illegible] في [illegible] نفسه [illegible]، شخص غريب [illegible] في أن أرسم حدودي،
قد تذهب [illegible] مسيرتي، لكن ذلك الإحساس الصادق بتآلف الأرواح
جعلني أراهن على ما أشعر به..

وكان رهاني رابحًا..

بعد عشرة أعوام [illegible] صديقة في [illegible]
[illegible] في [illegible] نظرة حذرة، ثم [illegible] بي، وتضع حوائط أمامها
جانبًا، وتقول بعينين باكيتين:

- [illegible] من [illegible] شهور [illegible] في [illegible] للراحل
[illegible] و[illegible] [illegible] وأحاول أعيش بعيد عن الناس
دي كلها..

[illegible] إليها [illegible] ضربة، تركت مقعدي و[illegible] في الناحية
الأخرى، [illegible] منها و[illegible] أمامها

- [illegible] [illegible] [illegible] عن كده

• • •

[illegible] [illegible] [illegible] وهي تنظر [illegible] كأنها تتذكر معي
وقت [illegible]، [illegible] أكثر وقت مكملًا اعترافي

- [illegible] محدش هيفهمك [illegible] حصلت [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] في قصته [illegible] [illegible]
[illegible] من حد [illegible] [illegible] في قرب حد [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ميعرفش يثق في [illegible]

ثم ابتسمتْ مكملة:

- مبروك عشان [illegible]

قاطعتني مكملة بحنان:

- عشان [illegible]

نظرت إليه نظرة [illegible] أن [illegible]

- [illegible] إنت [illegible]

[illegible]

[illegible] عشان [illegible]

طول الوقت كده..

ابتسمت [illegible] إلى [illegible]

[illegible]

يسلّم ابنته للزواج:

- وعلى فكرة [illegible]

فيه عشان يقولك..

انتفض [illegible]

نظرت [illegible] إليّ في ارتباك [illegible] في دهشة، التفتُّ أنا إلى

«صبرا» وقلت:

- أنا لسه ما اعرفش عنك حاجة [illegible]

من [illegible] كل حاجة [illegible]

أن [illegible] كل يوم بتفصيلة جديدة [illegible] كل حاجة مهما كانت

وأكملتُ بقوة:

- عشان [illegible] وأنا [illegible]

فيه من غير [illegible] من غير [illegible] الناس

و[illegible] فيه [illegible]

ونظرت «صبرا» [illegible] في [illegible]

ـ وعد هاقولك كل حاجة..

لأنني أدري ضعفت، أشعر أن حرارة [illegible]

[illegible] دمي تتبخر من الأطراف

لأنك تنتهي من كل مراحل [illegible]

أمسكتُ هاتفي المحمول، نظرت إليه لحظات، كانت [illegible]

صوري، وبعثت رسالة لآخر شخص توقعت أن أراسله في هذا الوقت

إلى «أسماء»..

صديقتي.

* * *

(١٧)

وثامن الكنوز

غمض عينيك وارقص بخفة ودلع

الدنيا هي الشابة وانت الجدع

تشوف رشاقة خطوتك تعبدك..

لكن انت لو بصيت لرجليك.. تقع

وعجبي!

صلاح جاهين

..(عيسى) [illegible] حقًا.. والمرات.. وبسهولة الرحلة

وربما كل شيء من البهجة

هل حدث أي فرق في حياتك؟ هل تحارب مثلي أم أنك مستسلم الآن

مثلي تمامًا؟

لقد سمعت بـ (عيسى) من تلك اللمسة التي نلمسها

شعرت أن الفكرة ساحرة، لكني لن أرى نتيجتها الآن.. ذلك الشغف بدأ يخبو، لأنني أريد أن أنقر في الزمن وأصبح في سنك حتى آخذ الفيلم.. لا أريد أن أعيش كل تلك الفترة منتظرًا

ثمانية عشر عامًا إضافية قد يحدث فيها كثير..

هل تزوجت؟ هل أنجبت؟ هل سميت أولادك كما كنا نحلم؟ «رفعت» على اسم «رفعت إسماعيل»، أم «سارة» لأننا نعشق هذا الاسم، أم صدقت توقعات الأطباء ولم تستطِع أن تُنجب؟

أنا متعب يا (عيسى).. أثر المرض في أطرافنا، فلم أعُد أعرف أن أرقص بتناسق إلا ويصيبني ارتعاش خفيف في قدمي أو يدي.. بدأت أشعر بالتعب المزمن والمستمر.. ولا أعرف إذا كان مشروع مثل هذا سينجح أم لا، وهو يعتمد على الزمن..

الشيء الوحيد الذي لا أملكه..

لا أعرف هل سأستمر فيما أفعل الآن أم لا..

اللغز ستعرف حله بسهولة.. يتعلق بما حدث منذ أسبوعين فقط.. وأصابني بإحباط شديد..

قال عمك (حاهس) أنسوف رشاقة خطوتك تمدك لكن أنت لم
مصب لرحلتك بعد)
وأنا أمي يا (عيسى) لأنني لا أستطيع إلا أن أنظر إلى قدمي العاجزتين
عن مقاومة المستقبل المحتوم..
وفي نهاية العمر السابع والكبر النامي أقول هذا الحنان لـ(عيسى الكبير)
داخلك،
إذنًا يتق.. بجدل،؟..

* * *

قرأت الخطاب القصير، كما في اليوم التالي، ولم ترد «أسماء» على الرسالة، بكي استيقظتُ مصرًا على أن أصل إليها.. قرأت الخطاب الذي سنمسي إبه «سيرا» أمام الكميرا، وعُدت بإحساسي إلى كل ذلك الألم الذي كتب به «عيسى الصغير» خطابه..

لم يظهر شيء من ألمه فيما كتبه، لكني كنت أعرف معنى ذلك الحبر السائح في بعض الكلمات المكتوبة..

كان يبكي..

التفتُّ لـ«سيرا» التي كانت تعرف الإجابة وقلت:

- قصده «بيت التانجو»..

ابتسمَتْ في موافقة أن الإجابة صحيحة، قلتُ محذرًا:

- مفتوح ولا هنضرب المشوار على الفاضي؟

ضحكت وقالت مبتسمة:

- لا مفتوح، ماتقلقش..

ضرب جرس هاتفي فشعرت بثقل غريب على صدري، رأيت اسم أبي على الهاتف، نظرت إلى «سيرا» ونظرت إليَّ، كنا قد نسيناه أو تناسيناه، كل

ما يحدث هناك، في العالم الغدر البعيد عن «عيسى» ورسائله العالم الذي كرحم أم حنون رحبة ترغب أن تعطيه أفضل ما فيها، لكن ما أبشع ما فيه.

والمثير للسخرية أن أبشع ما فيه هو نحن

كل من وطئت قدمه الأرض ويمتلك عقلًا

كل الكائنات الأخرى تعيش في تناغم، منظومة كاملة من الكائنات تتعايش بقوانين الغابة، وحوش وضحايا، الوحوش تتعلم منذ نشأتها أن تقتل، والضحايا تتعلم أن تنجو قواعد بسيطة مباشرة عبقرية.

حتى أتى الإنسان ليمتلك العقل، الذي جعله يعرف كيف «يخدع»..

وحش يقتل كل شيء أمامه في ثوب ضحية بائسة، وضحية تحاول أن تنجو وتجد قطيعًا تنتمي إليه كي تستكين، فتكتشف أنها وسط أقذر الوحوش المتنكرين..

وضعتُ هاتفي على أذني، قلت بصوت هادئ:

ـ ألو..

أجابني صوته الهادئ، الذي لا يُظهر غضبه ولا حزنه من جرَّاء عصياني إياه، صوت عملي واقعي هادئ:

ـ إحنا بنتفاوض مع خالها.. المحامي بتاعنا عرف الهاكينج حصل منين..

انعقد حاجباي من كل تلك التطورات، ليكمل أبي بصوت أكثر هدوءًا:

ـ وكده معانا خيط نمشي وراه ونعرف مين سرق حساباتك..

زفرتُ ولم أعرف ماذا أقول، صمتَ هو تمامًا، قلت السؤال الذي تأخر وقد بدأت قدمي ترتجف قليلًا من توتري:

ـ حضرتك زعلان مني؟

لأسمع صوته الهادئ الحيادي، ذلك الصوت الذي يتحكم فيه عندما يكون منفعلًا، الهدوء الذي يسبق العاصفة:

ـ أنا مابزعلش يا «عيسى».. انت كبرت.. كل واحد حر يختار طريقه..

وأكمل بهدوء به لمحة سحرية:

- انت راجل [illegible] ٣٦ [illegible]

صمت وأنا في عقلي سؤال واحد فقط: هل [illegible]

بكل شيء [illegible] الآن أم [illegible] ٣٨ [illegible]

- وأنا أبوك [illegible] في ضهرك [illegible]

كلمته لمست وترًا بداخلي، نظرت إلى [illegible]

أغمضت عيني، ثم قلت فجأة:

- ممكن أقول لحضرتك حاجة بس ماتتضايقش؟

لم أسمع ردًا، لكني قلت من دون أن أفكر معبرًا بكل ما بداخلي:

- انت أب عظيم. يمكن أصعب حاجة عملتها إنك خليت المعيار ده قوي.. خليت صعب قوي إن الواحد يبقى زيك.. ماشي الحياه كلها بالمسطرة

وبدأت ألوّح بيدي شارحًا على الرغم من أنه لا يراني:

- كأنك عندك في الحياة شوية مربعات عمال بتملا عليها صح. كنت ابن مثالي وفعلًا من أوائل المدرسة.. صفات الأب المثالي.. صح.. الزوج المثالي.. صح.. المدير المثالي.. صح.. كل حاجة صح.. طبعًا فيه حاجات بتفلت بس ماحدش بيعرف يمسك عليك حاجة كبيرة..

وقلت بانفعال:

- ودي حاجة ماباعرفش أصدّقها.. كلنا فينا عيوب.. وأعتقد إنك أكتر واحد بيعرف يخبّي عيوبه.. عامل على المربع دا صح هو كمان. ودا مخليني عارف إني على قد ما بحبك وبعشقك.. إلا إني لما بشوف الدنيا بعينيك باحسّ إن الدنيا وحشة قوي.. بالاقيها عبارة عن مربعات. بتقيم كل اللي حواليك بمربعاتك انت.. كل حاجة حواليك ليها معايير تقييم ودرجة من صح وغلط.. البني آدم اللي قدامك بيتقيم بكام صح هو عملها وكام غلط..

وأكملت بنبرة أهدأ:

[illegible]

[illegible]

[illegible]

إني أفهمه أو أعذره.. أنا بشوف الدنيا والناس إنهم كلهم غلطانين بس فيهم

حد واحد صح خلاني أقدر أرحمهم. أقدر أحارب عشانها.. ماباعرفش

أبص قدامي وأقول على حد كويس ولا وحش.. باحس إنه مش من حقي

إني أحكم على حد أصلًا..

وشعرت بالخجل يسري في أوصالي كلها.

- قول يابني فيه إيه؟

فتحت عينيّ،

لأدرك أنني كنت صامتًا تمامًا..

لم أقل كلمة واحدة..

شعرت بالاختناق؛ لأنني لا أستطيع أن أكسر ذلك الحاجز وأخبره بكل ما بداخلي. هناك حاجز هائل من الاحترام يجعلني عاجزًا عن التفوُّه بكلمة، ثم أدركت سخافة ما أريد أن أقوله، مَن أنا لأخبر رجلًا حارب عمره كله من أجل أن يكون مثاليًّا أن هذا شيء جعله من دون أن يدري قاضيًا وجلادًا؟

لن يفهم أحد..

ابتسمتُ وقلت ما أومن به من قلبي:

- أنا آسف.. أنا عارف إني مش الحاجة اللي اتمنيتها في الدنيا.. ولا عمري هابقاها..

وارتجف صوتي وأنا أقول:

- بس أنا بحبك جدًّا.. حتى وانا في عينك دلوقتي مش أعظم ابن في الدنيا..

صمت هو لحظات، ثم شعرتُ بغصة في صوته لأول مرة منذ بداية المكالمة:

- يا حمار انت ابني.. لو كل الناس جم قالولي إنك أوحش واحد في الدنيا، مش هاشوفك كدا وهاديهم بالجزمة..

ابتسمت بحزن في حين أغلق هو المكالمة

نظر إلى «سبرا» ونظرتها القلقة، فالتفت لها مبتسمًا

- مافيش حاجة.. الموضوع قرب يتحل إن شاء الله

ابتسمت في راحة، ثم قالت مبتسمة

- طب يلّا بينا نروح، «أن» والباقي مستنيينا هناك.

نظر إليها لحظات، ثم نهض من دون حماس حقيقي

* * *

ارتجفت يد «عيسى» ذي الثمانية عشر عامًا وهو ينظر من وراء الستارة على لجنة التحكيم الجالسة في آخر قاعة الرقص، في المكان الذي يتدرّب فيه على الرقص (بيت التانجو)..

ابتسمت «ستانا» وهي تربت على كتفه قائلة:

- ماتقلقش..

كانت «ستانا» في السابعة والثلاثين من العمر، لكنها بجسدها العبقري في التناسق والرشاقة تبدو فتاة عشرينية، أمها إسبانية وأبوها مصري، تزوجها في إسبانيا وأنجبا «ستانا»، ثم عادا إلى مصر وبدآ مشروع عمرهما..

«بيت التانجو»..

مكان للتدريب على كل أنواع الرقص العالمي بكل أنواعه، لكن بسبب شغف ابنتهما «ستانا» بالتانجو سموه هذا الاسم.. مكان راقٍ تم تصميمه وقتها بأحدث الإمكانات الممكنة.. لتكبر «ستانا» عاشقة للرقص وتصبح مدربة رقص التانجو الأولى في المكان، وتقابل «عيسى» الذي رأى بالصدفة لافتة كبيرة مكتوبًا عليها «بيت التانجو» فدخل من دون تأخير مسحورًا بفضوله، ويقابلها..

ويشترك في تدريب رقص التانجو..

ويتميز فيه وسط كل زملائه..

[illegible]
«الأصل»..

رد «عيسى» متوترًا وهو يلاحظ [illegible]

- [illegible] كنت أحس بالنسبة لي

زفرت بحنق ورفعت عينيها في السقف دليلًا على الملل

- يا بني بقى عند مرح النور دا. مايصحش تروح ترقصلهم على أغنية هم مش عارفينها..

«ستانا» علّمته أن يعشق الأغاني الإسبانية والفرنسية، علّمته جزءًا جديدًا من العالم لم يكن يعرفه، علّمته ذائقة مختلفة للفن جعلته يعشق الجمال في كل الأماكن..

التفت إليها وقال بعصبية أكثر:

- ما هو دا اللي مضايقني.. مستنيين حركات معينة في وقت معين.. والرقص حر.. أعمل اللي أنا عاوزه وحاسه في أي وقت..

نظرت «ستانا» في المرآة الطويلة إلى زيها، وقالت وهي تحرّك يديها لتفردها عليه:

- شكلك هتندّمني على إني اشتركت معاك..

نظر إليها متوترًا، لا تعلم أن ما تقوله هو ما يوتّره، لم تكن فتاة في مستواه من زملائه، ففاجأته «ستانا» أنها قدمت معه كشريكته في الرقص، وعندما سألها «عيسى» مفاجئًا كيف هذا وهي ابنة صاحب المكان، قالت له إن والدها هو المستضيف للحدث فقط، وإن الحكام يأتون من خارج البلد

وحلمها الذي من رقصت أن تدخل تلك المسابقات طول عمرها السابقة،
على الرغم من إصرار والدها أن تتقدم حتى تثبت لكل الناس أن ابنته هي من حازت الكأس..

أنها الأفضل..

وعدلت خصلة من شعرها كمن تعترف بسر مثل ده.. قالت أمام عيني «عيسى» المحتويتين:

ـ فيه حاجة جوايا بتخليني حابه إني أتقدم. فكرة التقييم دي مش عشان حابة ما افتش قد أكتر حاجة بحبها في الدنيا..

لم تكن تعرف أن هذا ما يعيشه كل يوم؛ لذا فعندما بدآ التدريب معًا، بقامته الطويلة وجسده المتناسق وشغفه في الرقص، تحمَّست «ستانا».. اختارت أغنية صعبة وسريعة لـ«شاكيرا».. لمست الأغنية الذوق الإسباني الأصيل وعاشق التانجو في الوقت ذاته.. تدربا قبل المسابقة فترات طويلة وشاقة.. عندما شاهد «عيسى» أفلامًا عن التانجو فيما بعدُ أدرك صعوبة كل الحركات الثنائية التي علَّمته إياها «ستانا».

وعرف «عيسى» بمرضه..

عندما عرف الطبيب برقص «عيسى» شجَّعه على الاستمرار فيه، لكن تناسق «عيسى» وسرعة استجابته بدآ يتأثران مع مرور الوقت.. ليختلف هو و«ستانا» في الأغنية، اقترح «عيسى» أغنية «querer» التي يعشق كلماتها وروحها الحزينة، هدوءها الذي سيجعل عدم تناسق حركاته أقل بكثير، لكنها كانت واثقة بمهاراته فقاومته وأصرت على أغنية «objrction» لـ«شاكيرا»..

فاستسلم «عيسى» لشغف عينيها وحماسها الشديد.. وأدرك أنه أصبح جزءًا من إثباتها لنفسها وحلمها..

قال «عيسى» وهو يزيح أفكاره جانبًا، ناظرًا إلى لجنة التحكيم:

ـ لو حصل أي حاجة واحنا بنرقص.. هتزعلي؟

برقت عيناه بالضوء، ونظرت إليه، شعرها الأسود الفاحم، عينيها
السعيدتين، وسمرتها التي تثير الصبابات الإحساسات، نظرتها كست قلقه
رمق «عيسى» وارتجفت يده

- متأكد إنك هتفضلي سعيدة؟ انت ليه بتحب تخاف كدا؟

وقربت منه وربتت على كتفه، قائلة بابتسامة حنون:

- انت صغير مش بتكبر أه. بس لما شغلك تعمل أفلامك وبتشتغل ومش فارق معاك اللي بيقولك وحش وحلو.. روحك دي حلمي أسأل نفسي ليه بتحسسني حابة؟ مايحصل اللي يحصل..

وطبعت قبلة على خده قائلة:

- ولو خسرنا مش هنزعل.. هنزعل بس لو ماعملناش اللي علينا للآخر..

وغمزت ضاحكة لوجهه المتوتر:

- مش دا كلامك؟

نصر إليها «عيسى» مترددًا.. وارتجاف قدمه غير الملحوظ يزيد ارتباكه أكثر.

* * *

صعدت السلم وأنا أشعر بالتوتر يتصاعد داخلي، لم أحدِّثها منذ يوم المسابقة.. لا أعرف أي شيء عنها.. نسيت أشياء كثيرة لكني لم أنسَ «سنتانا» أبدًا.. بدأت نغمات الأغاني التانجو تدوي من خلف الباب المغلق، ضربت الجرس ويدي ترتعش، نظرت إلى «آن» و«سيرا» و«درية» الذين أتوا معي لتوتري، فابتسمن مشجعين، «آن» هي مَن ابتسمت نصف ابتسامة لإرهاقها من حمل الكاميرا والحقيبة الكبيرة، لا بُدَّ أن أعرف قصة «درية» ولماذا هي بهذا الإخلاص معي.. إحساس أنهن حولي يُشعرني بدفء غريب.. لكني لم أسأل أحدًا منهن لماذا تفعل ما تفعله؟

وقد أنسى فلا أعرف أبدًا..

[illegible] فتاة شابة لا أعرفها تنظر [illegible]

[illegible] لم يتغير المكان

[illegible]

[illegible]

بابتسامة للفتاة:

- عاوز أقابل «ستانا»..

أومأت برأسها في [illegible]، وقالت [illegible]

- حضرتك مين؟

لم أجبها، نظرت إلى قاعة الرقص المكشوفة عن الصالة الخارجية من خلال زجاج يحتل مكان الحائط كله.. ابتسمتُ وأنا أنظر إلى العدد الكبير الذي يدربه مدرب لا أعرفه.. في وقتي كنا سبعة على أقصى تقدير، الآن العدد يزيد على العشرين..

ثمانية عشر عامًا مرت على قوم لم يعترفوا فيه بقيمة الرقص حتى الآن..

تأملت المدرب بنظرته الصارمة الجادة، قارنتها بابتسامة «ستانا» العاشقة وهي تدربنا، عرفتُ من دون مجهود أن المتدربين لن يصلوا إلى نصف ما وصلنا إليه من تدريب..

من يعشق يسمو بكيانك كله، ومن يؤدي يجعلك معتادًا بلا معنى..

دخلت من دون أن أهتم بعاملة الاستقبال، أعرف أن «درية» ستشرح لها كل شيء، وستأتي خلفي «آن» و«سيرا»، أصبحنا نعرف بعضنا البعض لهذه الدرجة، هناك قاعة مكشوفة وقاعة أخرى داخلية للمحترفين، اعتبرتها بيتي طول عامين كاملين منذ أن كنت في السادسة عشرة، واربت الباب الكبير كي أراقب ما يحدث بالداخل، لأجد «ستانا» جالسة تنظر إلى أربعة مدربين، رجلين وأنثيين، يتدربون معًا..

ارتجف قلبي عندما رأيت تجاعيد عينيها وشحوب وجهها الأسمر الرائع، شعرها الذي أصبح رماديًّا، بدا منطقيًّا ألَّا تصبغه مثل باقي النساء، «ستانا»

طبيعية كالطبيعة ذاتها، لا تفتعل شيئًا ولا تؤمن بالافتعال. بحسبة بسيطة عرفتُ أنها الآن في الخامسة والخمسين من العمر؛ لهذا تجلس على المقعد توبّخهم، لا ترقص معهم كما اعتادت معنا..

قلت لـ«آن» والفكرة تخطر في عقلي لحظتها، وأنا أشير إلى مكان معين:

ـ شغّلي الكاميرا.. واقفي هناك بالظبط

ثم أشرت إلى «سيرا» وأنا أشعر أنني أتحدث كمخرج محترف

ـ «سيرا»، انتِ شُفتي الفيلم القديم.. هاتقفي مع «آن» وتحاولي تظبطي الكادر يبقى بالظبط زي القديم.. فاهماني؟

أومأت برؤوسهم أنْ نعم في حماس، في حين فتحتُ أنا الباب متبسمًا.

دخلت إلى القاعة، وذهبت إلى مشغل الموسيقى الموصول بسماعات القاعة كلها، اخترتُ أغنيةً جعلتني أدرك أنني فعلًا من أكثر خلق الله عنادًا في التاريخ، سمعت صوتها يقول معترضًا بصوت عالٍ:

ـ مين حضرتك؟ وبتعمل إيه؟

ما إن سمعت بداية أغنية «quere» لهادئة، الرتيبة، حتى عقدت حاجبيها ونظرت إليّ لألتفت إليها مبتسمًا..

راقبني المتدربون في تعجُّب، اقتربتُ منها بخطوات بطيئة مادًّا يدي، لتنفرج ملامحها شيئًا فشيئًا مع اقترابي.. تتذكّرني وتبتسم وألمح دمعة في عينها.. لم أقُل كلمة.. كانت لحظة أكبر من الكلام، اقتربتُ وانحنيتُ نصف انحناءة في احترام كعادة الراقصين، مادًّا يدي إليها، ناظرًا إلى عينيها مباشرة..

هزت رأسها وقالت بابتسامة مازحة:

ـ يخرب بيت عِند التور..

قُلت بابتسامة واسعة وأنا أثبت على وقفتي:

ـ دلوقتي أنا وانتِ ممكن نرقص زي بعض..

* * *

Querer

أن ترغب،

Dentro del corazón

بنهم داخل قلبك

Sin pudor, sin razón

بلا خجل، بلا سبب

Con el fuego de la passion

وتحترق بنيران الشغف..

* * *

ابتسمت ابتسامة واسعة، مدت يدها إليَّ في أناقة، ونهضت برشاقة جسد عاش عمره كله يرقص..

ونظرت إلى المتدربين وقالت بابتسامة واثقة:

- انتو اول مرة تشوفوني بارقص بحد.. حاولوا تتعلموا..

ضحكتْ رغمًا عني وأنا أقول مبتسمًا:

- النمرة دي اللي ودتنا في داهية قبل كدا..

أحاطت رقبتي بذراعها، وضعتْ ركبتها على وسطي فتراجعتُ خطوة جعلت جسدها يتكئ على ركبتي، وتفرد هي قدمها الأخرى في ثبات، ووضعت رأسها على كتفي، ذلك الوضع معروف أنه من الأوضاع المستخدمة في نهايات رقصات التانجو، لكن «ستانا» علّمتني أن أبدأ دائمًا بالنهاية..

عندما تبدأ بنهاية ما وصل إليه الآخرون، تفتح في خيالك كل البدايات المستحيلة التي لم تخلق بعدُ..

سمعت صوتها في عقلي يأتيني منذ ثمانية عشر عامًا وهي تقول بصرامة وشغف:

ومن دون أن تدق مسبقًا بدأنا نرقص.

• • •

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مرة واحدة ثم يكمن تمامًا فترات صوت... [illegible]

عندما عرف العيسى المرض... [illegible]

يأتي المرض الحقيقي..

بدأت موسيقى الأغنية، فتحركت بسرعة ثم تدربت، دارت «مسعد» حول نفسها كسمكة متزحلقة، تحت عيني العيسى الذي على الرغم من حركته المقصودة، لكنه كان متحجبًا، متعرقًا، يحاول أن يبدو مرتاحًا سعيدًا..

كانت روحه ثقيلة..

عكسي تمامًا الآن..

أشعر الآن أنني تحركت كسمكة كعادتها، على نغمات الأغنية هذه التي تعبّر عن مفهوم العشق بالنسبة لي.. وأشعر أن روحي أخف من ثقل كل الآلام التي شعرت بها يومًا.

كنت أشعر أنني قطعت كل الحبال التي تربطني بواقع لا أفهمه..

بدأ ذلك على جسدي وأنا أتحرك حركة صعبة مائلًا بجسدي عليها، وأحسست ببعض حديث يعبر نحوي، فتتحرك برشاقة وتدور هي رأسه [illegible] ويتمايل جسدانا معًا.. برفق.. بشغف.. بهدوء..

عكس العيسى الصغير الذي جذبها إليه بقوة متوترة، جعلت رأسه

[illegible]

تنظر إليها نظرة تائهة

[illegible]

قليلًا وهو يفقد تركيزه..

[illegible]

[illegible]

[illegible] «عيسى» [illegible]

هي [illegible] كي [illegible] في حركة فعلاها مئات المرات

لكن «عيسى» شعر بأنه لا يستطيع أن يتحكم في ساقيه في تلك اللحظة

أبدًا، فعندما ركضت وقفزت تجاهه، تهاوت يده عنه، [illegible]

ابتعد عنها، حماها من الوقوع بجسده تمامًا، لكن ارتطام جسده بالأرض كان

بصوت مدوٍّ، مؤلم

نهضت «ستيلا» في ارتباك وهي تنظر إليه، نظر إليها «عيسى» بألم حقيقي، نظرة معتذرة خائفة، ثم نهض وخرج من القاعة راكضًا.. سمع صوتها ينادي عليه.. لكنه أكمل ركضه خجلًا من دموعه

ولم ينظر خلفه أبدًا..

لكني كنت أنظر خلفي الآن..

التصق ظهرانا ونحن نرقص معًا، أنظر خلفي لأجد شعرها الرمادي يستند إلى ظهري، في نعومة ورقة..

حسنة وحسون عادا وما زالا أفضل من يرقص في نظري.. على كلمات الأغنية التي أحفظها:

«أن تحب..

أن تستطيع [illegible]

لتكتشف جمال البحر..

أن ترغب.. أن تستطيع مشاركة..

عطشنا للحظة من الحياة..

الهدية التي تعطيها للحب.. هي الحب»

تبتعد بضع خطوات بخفة راقصة، وتعود لتقفز لأحضاني، مددت يدي إليها، نظرت في عينيها بثقة، ضحكت وقالت بصوت عال:

- المرة دي هيبقى فيها مستشفى..

لم أجب وأنا أجبر كل أطرافي على الثبات، وابتسمتُ ابتسامة واثقة، لتعود هي خطوات قليلة للخلف، وتركض نحوي

«أن ترغب.. أن تطير بين السماء والبحر..

من دون أدنى قوة من الجاذبية..

أن تشعر بالحرية..

أن تحب.. من دون أن تتوقع..

تعطي لمجرد أنك تعطي»..

ابتسمتُ وأنا أتأملها تركض وشعرها يطير حولها، وهي تقفز نحوي ملقيةً بأمانها كله بين ذراعي..

وهذه المرة أقسمت أن أتحمّل أي شيء تلقيه الحياة على ذراعي..

التقطتُها في بساطة على ذراعي، وحملتُ جسدها الخفيف بين يديّ، رافعًا إياها إلى السماء، ودُرت حول نفسي أكثر من مرة..

لتبتسم هي ابتسامة مشرقة وتغمض عينيها في استمتاع، ثم تميل بجسدها كله كي تحيطني بقدميها وتهبط بهدوء كأمهر راقصة في العشرين..

[illegible]

نلتقط أنفاسنا من سرعة الحركة..

واسمع نفسه [illegible]

* * *

كم مر من الوقت؟ ساعة أو ساعتان وأنا «[illegible]» [illegible]

اعترفت لها بكل شيء، ثم طلبت مني «[illegible]»، قالت [illegible]

افتقدت وجود هالتها في حياتي، أحدثها عن المرض، [illegible]

النفسية التي جعلت تتدهور حتى وقت هذا، أخبرتها عن [illegible]

وكل ما حدث بعده. لكن نبرتي اختلفت وأنا أحدثها عن العمل [illegible]

حماس مفاجئ وأخذت أشرح لها الفكرة بحماس شديد

واستمعت هي ناسية كل شيء آخر حتى مواعيد [illegible]..

استمعت بابتسامة حنون، مترقبة، هادئة..

وأنا أنتهي من كلامي، حتى نظرت إليّ بعين حيرة، ثم قالت متبسمة

ـ طول عمري بتخانق معاك يا «عيسى»، انت شايف دايمًا إن الحياة أحسن في المقاوحة والحرب والاختلاف، وأنا شايفة إن الأصعب إن الواحد يحاول يفضل «صح» ومايعملش حاجة غلط أصعب بكتير. إن البطل الحقيقي في الأفلام مش اللي بيحارب عشان يختلف.. بس اللي بيحارب عشان يبقى «عادي»..

كان شجار دائم بيننا، نقاش طويل استمر فترة طويلة، كنت أخبرها دائمًا أن الأسهل أن تكون عاديًّا تقليديًّا، والأصعب هو أن تحارب من أجل أن تعثر على نفسك، في حين ترى هي أن الأصعب هو [illegible] إغراءات التمرُّد الدائمة.. وأن الشجاعة الحقيقية في الرفض الكامل.

ابتسمتُ وأنا أنظر إليها غير فاهم، فابتسمت هي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ونظرت إلى عينيَّ مباشرة قائلة.

- وانت تموّت نفسك من رقص فوق

[illegible]

- أكيد في حد شفته بيهرب في جنبي، ساعة ما وقعت في المسابقة [illegible]

بكمل عادي. بس انت جريت ومشيت وماجيتش تاني.

وذهبت إلى دولاب زجاجي وفتحته، وأخرجت منه شيئًا لم أره

- بس أنا كملت لوحدي. بعد ما مشيت شغلت المزيكا ورقصت أحلى رقص في حياتي..

والتفتت إليَّ حاملة الكأس الصغيرة، المكتوب عليها «أفضل راقص»، وابتسمت بحنان مكملة:

- وخدت الكاس..

سرت قشعريرة في جسدي، حملت هي الكأس بين يديها كمن تحمل طفلها، واقتربت وهي تكمل:

- عشان انت دايمًا بتنسى اللي يشدك.. اللي يبقى في ضهرك عشان تنجح. اللي يخليك عاوز تقاوم مرضك. دايمًا عاوز شريك للنجاح. حد تنسبله الفضل في نجاحك، مش عشان انت حلو، عشان لو فشلت.. تنسب له الفشل برضه..

ووقفت أمامي وعيناي معلقتان بعينيها الواسعتين، وقالت بصوت حنون.

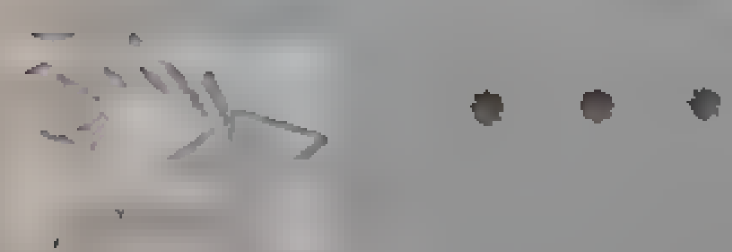
- بس أنا بقى عارفة قد إيه صعب إن الواحد يقوم بعد اكتشاف مرض زي اللي عندك..

[illegible]

من أي مرة رقصت بها زمان..

وأكملت بفخر:

[illegible]



* * *

(١٨)

ما بعد الكأس

عندما عدت إلى شقة السطح في فيلا «سيرا»، كنت متعبًا من [illegible]

وقررت أن أنام وأشاهد الأمر الشمس في صباح الغد، ثم [illegible] على الفرش. حتى ذهبت في نوم عميق

كل ما أذكره أنني نمتُ محتضنًا الكأس في صدري

لأستيقظ على صوت صراخ «سيرا» في الخارج

نهضت مفزوعًا، ضوء الشمس أخبرني أننا في الصباح، نهضت مفزوعًا وأنا لا أستطيع تمييز ما تقول. فتحت باب غرفتي وأنا أدعك عيني وقلبي ينقبض..

لأجدهم جميعًا في الخارج، يجلسون في الصالة الواسعة، معهم «مصطفى»، طليق «سيرا»، أمامه «سيرا» تقف ولغة جسدها كلها تدل على عصبية مفرطة، «هيثم» يقف وسطهما كأنه يحول بينهما بجسده، «آن» و«درية» و«ياسين» و«شمس» يجلسون ويبدو عليهم الهم، كانت «سيرا» تصرخ في طليقها:

- انت مالكش دعوة أصلًا..

قلت متسائلًا بصوت قلق:

- فيه إيه؟

التفتوا إليّ كلهم، ساد صمت مشحون لحظات، ثم رفع «مصطفى» يده مشيرًا نحوي وقال بانتصار:

- أهو سيادة الملك صحي.. تعالوا نخد رأيه [illegible] حاسس إن أنا راجل متخلف..

قالت «سيرا» بصوت عاجز:

- أفهم طيب إيه اللي حاصل؟

قلت «آن» بسرعة:

- نزل خبر في السوشيال ميديا إن «سيرا» على علاقة بشخص مش معروف..

توقف قلبي ونظرتُ إليها غير مصدق، لتكمل هي بسرعة كأن المصيبة ليست فيما قالته:

- الخبر دا لما وصل لـ«مصطفى» استغل علاقاته وخلاه يتمسح بسرعة، وكلم خال «أسماء»، واتقابلوا الصبح النهارده..

حاولتُ أن أستوعب كم المعلومات، نظرتُ إلى «مصطفى» أريد أن أسأله عما حدث، لكن «آن» أكملت:

- «مصطفى» قعد مع خال «أسماء»، قاله إنه مش عاوز فلوس من «مصطفى»، بس مش عاوزك تعيش مع «سيرا» في الفيلا، عشان الموضوع خرج برة..

قلت محاولًا أن أمسك أعصابي:

- وهو ماله؟

قال «مصطفى» هذه المرة بحدة:

- هو جاهلي على بلاطة.. قالي إنه ابن بلد وجدع ومش هيفضح حد..

بس الوضع دا مضايقهم.. قالي إنه كتب سؤال بعض.. [illegible] قايل عليه في القرآن وإنه مشكلته معاك مش مع «سيرا».

وأكمل وهو يشير إلى «آن» بسخرية:

- وعاوز ترضيه «آن» بعد عنك عشان [illegible] [illegible]؟ كذا حتة..

ونظر إليّ نظرة أفهمها جيدًا:

- بيقول إن «آن» هي السبب في الطلاق.. فبقت واضح إنك مش عامل أي حرمة بتيجي جنبك..

انعقد حاجباي في غضب، «آن» هي السبب في طلاقي؟! ما هذا الهراء؟! هل جُن الجميع؟! وإن كانت «أسماء» مريضة، هل جاها مريض أيضًا؟ كيف يعيش حياته بهذا المنطق الملتوي؟ ابن أي بلد من يفعل كل هذا تحت اسم «حق الانتقام»؟!

قال «مصطفى» بلهجته العملية:

- همَ حاطينك في دماغهم.. انت في عينهم راجل لا مؤاخذة.. حل كل المشكلات يابن الناس إنك تبعد عن كل اللي حواليك.. وتدفع لهم الفلوس اللي همَّ عاوزينها.. واكفي الناس الشر اللي جاي من وراك..

قالت «سيرا» بوجوم وعيناها تدمعان:

- ما تخرس يا «مصطفى»..

قال «مصطفى» ناظرًا إليَّ ومكملًا بواقعيته القاتلة:

- مش ذنب لا أبوك ولا «سيرا» ولا «آن» ولا حد من اللي حواليك إنك ناسبت ناس زيهم.. دا قرفك وانت اللي تشيله.. همَّ مش عاوزين غير إنهم يئذوك.. همَّ قضيين لك.. وشايفينك واحد زبالة مايساعدش بعض أصلًا..

صمتُّ وأنا أشعر أن في نبرته شيئًا آمرًا، يجعل صدري يضيق لأول مرة منذ فترة طويلة، شعرت أن هناك حالة من عدم التصديق لكل ما يحدث،

لكن في كلامه حقيقة لا أستطيع أن أقر منها أكثر من هذا، حقيقة [illegible] على الرغم من قسوتها صحيحة تمامًا..

لا ذنب لكل هؤلاء أن يدوروا في فلك قصة انتقام تقليدية [illegible]

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢٢ - «تجد الشريك في البداية يحكي لك عن قصص انتقامه . عن استمتاعه بأخذ حقه، سواء بالخبث أو بالقوة . أنه عرف كيف كان يعذّب من هم قبلك ويندمون على خسارته تيقَّنْ أنك بالتدريج ستصبح واحدًا منهم بالنسبة له الدنيا هي حرب عنيفة من كل الناس ضده؛ لذا لديه مبدأ واحد يكرره دائمًا: اقتلهم قبل أن يقتلوك»..

قلت بنبرة هادئة:

- «مصطفى» عنده حق.. أنا لازم أمشي..

ابتسم في ارتياح ونظر إلى «سيرا» الدامعة نظرة شامتة، في حين نظروا إلي جميعًا نظرة حزينة، قال «مصطفى» بنبرة هادئة وقد شعر بانتصار معركته:

- لما سألني انت بتعمل إيه عند «سيرا»، قلتله على حوار فيلمك.. مش عارف «سيرا» كانت قايلالك ولا لأ، بس كنا متفقين إني أنتجه ليك مقابل إنها توافق تعمل الدور في الفيلم بتاعي..

نظرتُ إلى «سيرا» باستنكار، نظرت هي في الأرض وتركت دموعها تهبط من دون مانع، اقتربَتْ منها «آن» واحتضنتها وهي تنظر إليَّ نظرة آسفة، و«مصطفى» يكمل وهو يهز كتفه:

- لما قلتله قالي أبعد نفسي أنا و«سيرا» عن الموضوع [illegible] عاهم طبعًا.. لا أنا ولا «سيرا» لينا دعوة بالفيلم بتاعك دا..

أغمضت عينيَّ مستقبلًا الخبر بابتسامة راضية..

لقد ضرب الرجل ضربته بذكاء..

أومأت برأسي إيجابًا، موافقًا إياه، نظرتُ إلى الأرض شاردًا [illegible]

[illegible]

[illegible]

من بغيكم.. ذلك البغي [illegible]

[illegible] وأنا أقذر من أنجبته البشرية في خيالهم..

[illegible] لا [illegible] حكمة ولا غرض، لكن في أن لا نخطئ إلا ظلامًا [illegible] هاربين من حقيقته لو اتضحت لكل الناس سوانا

أنا وحدنا تمامًا في هذا الظلام..

أخرجت حقيبتي من أسفل السرير، وبدأت ألقي ملابسي فيها، حتى انتهيت..

«سمر» تعرف جيدًا أن أبشع مخاوفي هي الوحدة..

أن تنتابني هجمة المرض فجأة فأموت وحيدًا..

لذا جعلت هدفها الوحيد في الحياة أن يبتعد كل من يقترب مني بعدها.. حتى أشعر بقيمة وجودها..

لا يدرون أنها هي من فقدت قيمتها لدي تمامًا بكل ما كانت تفعله..

لكني أعرف قناعتها..

هي من وطئت أرضي ودنستها، ولا يصح لأي أحد بعدها أن يجلس مكانها، ولا حتى من يقترب لتصليح بوار تلك الأرض..

تنهدت وأنا أمسك القلم وأضعه في جيبي، نظرت للعلب المعدنية التي وضعت فيها الكنوز، ملف التحاليل، الكاميرا القديمة، الهارد، الكمبيوتر القديم، تلك الثلاثة التي وضعت عليها فيلم «SPITI»، مدخل النادي الرياضي الذي قضيت فيه في حمام السباحة..

وأخيرًا الكأس التي أعطتني إياها «سنانا» البارحة..

صدري بقسوة [illegible]
[illegible] شعرت بأني [illegible] ابتسمت [illegible]
[illegible] في حضني [illegible]
نفس عميق..
وزفير بجرح محملًا بقيد جديد..
خرجتُ من غرفة [illegible] في صمت، [illegible] مسحت [illegible] المشاعر
المتقصفة. [illegible] أردت أن أذهب
[illegible] قبل أن تحدث، اقتربت مني [illegible]
واحتضنتني، شعرت بها تضع شيئًا في جيبي الخلفي، لم أسأل واحتضنتها
وربتُّ على كتفيها.. تركتني ومسحت دمعتها وخرجت إلى السطح..
نظرت إليهم، أعين لا تعرف ماذا تفعل، أعين حزينة، ابتسمت محاولًا
أن أجعل كل شيء كما كان:
- [illegible] نرجع البيت. وكدا كدا خلاص الفيلم مش هيكمل.. فرجع
بحيث تصبحي [illegible] ولا كأن حصل حاجة.. كله يلم حاجته وفضوا المكان
قبل الليل ما ييجي..
نظروا إليّ بإحباط. فابتسمت مشجعًا، وخرجتُ مسرعًا من الشقة قبل
أن يضيق صدري أكثر..

* * *

[illegible] صعدت سلم بيتي القديم، ووقفت أمام باب شقتي [illegible]
لا أريد أن أدخل الآن..
ذهبت إلى الناحية المقابلة وفتحت باب شقة أهلي [illegible]
[illegible] ذهبت مسرعًا إلى غرفة المعيشة لأجد [illegible]
نفسه

[illegible] وأنتم [illegible] أمي حتى انتفضت واقفة [illegible]

ومعه [illegible]

بجانبها..

[illegible] قال عندما جلست

[illegible]

-إيه اللي حصل؟

حكيت لهما كل شيء، لم تعد [illegible]

غير موجودة في حياتي بالنسبة له [illegible] صدر القرار [illegible] شخص لا

يستحق الاهتمام، أصدر الأمر لي أنني لن يكون لي علاقة عاطفية بها [illegible]

الأمر، بالنسبة لي هي لم تعد إنسانًا من لحم ودم موجودة في حياتي من الأساس،

مجرد شخص أخطأ ابنه معها..

وأنا أتفهم هذا..

أومأ برأسه متفهمًا بعد أن سمع كل شيء، قال بنبرة هادئة:

- كويس إنك سبت المكان هناك.. القعدة هناك ما كانتش تصح أصلًا

لم أعلق، ولن أعلق، انتهى وقت الإقناع، في عالمها لا يجتمع أنثى وذكر إلا ومارسا الجنس معًا، في عالمي أن يختلف الأمر عن تلك الفكرة الساذجة. لديها ما يثبت أن هناك شيئًا ما حدث، ولن يصدق أنه بالفعل لا يوجد شيء بيني وبين «سيرا»..

قالت أمي بتوتر:

- هي «آن» ليه سبب طلاقكم؟

فكرت بعد صمت وأن صدري يضيق ولا أريدهم [illegible] تلك الفكرة التي جاءتني طول طريق عودتي:

- لازم نتفهم زي ما بيعملوا فينا.. ليه ماد

أشار لي أبي أن أصمت، إشارة صامتة واضحة [illegible] نظرة غاضبة، قال بهدوء يتناقض مع نظرته:

- [illegible] بالمعرف دا [illegible]

ثم صمت قليلا وقال:

- [illegible] إنك بعت لـ«أسماء» [illegible]

[illegible]

أعرف أنه فهم نظري، لماذا نظل محافظين على هذا الخط الأخلاقي؟

قال أبي مبتسمًا:

- الموضوع هيتحلّ يا «عيسى».. شوف انت شغلك وماالكش دعوة بحاجة..

حركت قدمي بعصبية قليلًا، كلمت «مصطفى»، طلبو «سرا»، تضرب عقلي، قلت من دون تفكير:

- أنا متضايق إني متجنب كدا.. حاسس إني عيل صغير.. يعني إيه أنا في السن دا ومستني بابا يحل الموضوع؟

اتسعت عينا أمي محذرة، دائمًا ما تخاف من شجارٍ يحدث بيني وبين أبي، نظر أبي لي وابتسم بحنان، قال كمن يفهم طفلًا صغيرًا:

- العادات والتقاليد، اللي انت ماتحبهاش، بتقول إن لو فيه كبير اتدخل ميبقاش حد تاني يتدخل.. الموضوع بيني وبين كبيرها.. مايفعش أي حد تاني يتدخل..

وقال باقتضاب:

- لما أبقى أموت.. ابقى أعمل اللي أنت عاوزه..

صمتُّ تمامًا وشعوري بالعجز يقتلني.

متى سأخرج من كل هذا الهراء؟

نهضت من دون أن أنطق، وخرجت من الشقة كلها..

* * *

دونها وحدي .

ظهر في شخصياتنا معًا..

هل يوجد انتقام أسوأ من هذا؟

لم تترك داخلي ذكرى واحدة طيبة..

و... لأكون عدلًا، ... من الذكريات السيئة في حياتي ما يجعل تذكُّر ... صعب مستحيلًا..

وقفت في الصالة، أنظر إلى جهاز التلفاز المغلق، لاحظت أن الشقة نظيفة، فهمت أن أمي كانت تنظفها طول الفترة السابقة حتى عندما أعود أجد كل شيء كما أحبه.

هل أذهب إلى أمي وأعترف بكل شيء، كما أوصاني ... أم أصبح الأمر لا داعي له؟

شعرت بجسدي يرتجف. ولم أقاوم.

بكيت

أريد أن أستسلم.

أن تحيا دائمًا من تحاول [illegible]

نحمل هذا الألم، إحساس مرهق.

[illegible] جانبي.. وظللت أرتجف..

ستموت وحدك يا «عيسى».

[illegible] أستطيع أن

[illegible] صدري [illegible]

صدري [illegible] لأرجاء الغرفة، ذلك

[illegible] «أسماء»، عندما كشفت الأمر عن كل

[illegible] وحدي ثم محاولة استحضار روحي أمام عيني، الدمع

على [illegible] «عيسى»، جلوسي بجانبها يومين متصلين

[illegible] أكثر فيه من حياتي ذاتها، جلوسي تحت قدمها

[illegible] لدي أراه داخلها..

[illegible] تحمله نفسي المريضة، فعبّر عنه جسدي بتلك الآلام

المستمرة في صدري..

أنا أعاني الآن نوبة ذعر..

غمضت عيني

عقلي يصرخ بي: ستموت وحدك يا «عيسى»، سيعثرون على جثتك غدًا،

[illegible] وحيد من دونها يا «عيسى» كما كانت تخبرك.. زادت

[illegible] صدري وأسمع دقات قلبي في أذني عالية..

[illegible]

شعرت بالدموع [illegible] من عينيّ المغلقتين، جسدي يرتجف [illegible]

نوبة صرع، لا أستطيع أن أتحكم فيه..

جزء من عقلي يخبرني أن أستعين بأحد، بأبي أو أمي، وجزء آخر يخبرني

[illegible] في أي وقت، [illegible] أن أقوم

 يودّ لو تدعو الشمس أكثر من ربع

هكذا قال الطبيب النفسي..

بدأ جسدي يرتجف أكثر، بدأت الأفكار السوداء تسيطر على عقلي، تخبرني أن هذه النوبة لن تمر، لكنها أزمة قلبية حقيقية، وأنني لست مفكرة في أنني أتوهم ومتوهمة، وأنه لا خطر، أن ما بي أزمة حقيقية وليست من صنع عقلي، شخص جسدي، أردت أن أمسك شيئًا لأؤكد لعقلي قصر ما حدث أن جسدي يعصف أنني أريد أن أمسك الأمر الأقوى منه.

«أن يفهمك أحد، إنما هي هجمة ثانية للـ MS، تستغرق وقت ما (عشرين)، تمكنين من عدّ تصفيقه؟ أصفقه بين ذراعي التي سكتها شمال»..

بدأت أضرب الأرض بيدي بقوة حتى أخرس الأفكار السلبية

لن أخاف ثانية..

لن أدع الخوف يسيطر عليّ ثانية

سيمر كل شيء..

بدأت أسيطر قليلًا على رجفتي، لذلك أشعر على أي شيء حتى لا أموت وحدي كما كنت أتوهم الساعة، ثم نهضت من على الأرض وأنا أرتجف، دموعي تنساب من دون إذن، نظرت حولي وأمسكت هاتفي المحمول، أصابعي مرتعشة فتحت تطبيق اليوتيوب، بحثت عن الأغنية التي دائمًا ما كانت تساعدني في السيطرة على نوبة الذعر ‹Laura shigihara - EVERYTHING'S ALRIGHT›، وضعت السماعة وعشت الدقائق التي تليها في عدم انضباط، ضغطت على الأغنية التي لا توجد منها نسخة أخرى إلا في تطبيق اليوتيوب، ولكن لذلك الحظ أصبت بقدمي على شيء ما على الأرض، نظرت إليه في ذعر، الأحمر الذي يخصني، وقع من جيبي الخلفي..

مكتوبًا عليه رقم «٨»..

بدأت نغمات البيانو الهادئة لأغنية تصعد من الهاتف.

فكرة أنني سأرى «عيسى» جعلت عقلي يُشتت والا

انحنيت والتقطت «الفلاش ميموري» من على الأرض، ووضعتها في

التلفاز بصعوبة بسبب رجفتي. أدرت التلفاز وضغطت على تشغيل الفيديو

ووقفت أمام الشاشة أنظر إليه..

إلى «عيسى»!..

* * *

(١٩)

الأمر الثامن

يأسك وصبرك بين إيديك وانت حر

تيأس ما تيأس.. الحياة راح تمر

أنا دقت من دا ومن دا وعجبي لقيت

الصبر مر وبرضه اليأس مر

عجبي!

صلاح جاهين

[illegible]

وكان وجهه حزينًا.. مكتئبًا..

[illegible]

والضغط النفسي..

ابتسم يا «عيسى»..

كيف يبدو حزن ملامح [illegible]؟

Short steps and deep breath

Everything is alright.

[illegible] تخرج بهدوء [illegible] كلمات الأغنية الدافئة إلى روحي، وأجد «عيسى» [illegible] بدلت الصمت والحزن الذي على وجهه..

[illegible] «عيسى» [illegible] كأنه يحدث نفسه لا يحدثني:

- قولي حاجة تخليني أنسى فكرة إني هاموت..

[illegible] في تأثر، لينظر هو إليَّ من خلال الكاميرا، ويقول [illegible] حزينة:

- [illegible] أكتر.. وأكيد بقيت فاهم حاجات أنا مش فاهمها.. قولي [illegible] حاجة تخليني أعرف أكمل..

مسح [illegible] أدرك أنه كان يبكي مثل الآن، [illegible] بيديه [illegible]

- في الأول، أنا كنت بقاوم [illegible] مش مصدق [illegible]
مسموعش إن الـ«MS» مالوش علاج [illegible]
ولا عشرة ولا عشرين [illegible] رايح جاي

ونظر إليّ لأول مرة في حياته بحيرة حقيقية، وقال:

- قولّي حاجة تخليني أكمل..

شعرت بالعجز؛ لأنه صمت ينتظر ردي، فهممت [illegible] تجاه الكاميرا كعادتي، ثم أدركت أنني لا أصوّر، لا توجد كاميرا ولا [illegible] حولي «سيرا» و«[illegible]» وباقي الأصدقاء، وعلى الرغم من أنني لا أصور، إلا أنني شعرت أنني لا بُدَّ أن أرد..

لكنني لم أجد إجابة..

طال صمته، نظر إلى الأرض لحظات، ثم قال بابتسامة حزينة:

- «سيرا» دخلت معهد تمثيل، «محمود» و«جمال» دخلوا هندسة، أنا دخلت أول يوم في تجارة، مكان جديد، ماحدش عارف عنك حاجة.. والجو غريب قوي..

ثم ابتسم قائلًا كأنما يتذكر:

- كنت تايه في الجامعة، مش عارف أي حاجة، سألت واحدة كانت قاعدة لوحدها خالص عن مكان المحاضرة، طلعت في سنة تانية وأكبر مني بسنة.. فقعدنا طول اليوم تايهين مع بعض.. أو تقدر تقول توّهنا بعض أكتر..

انعقد حاجباي وأنا أتذكّر لأول مرة، وارتجف قلبي وهو يكمل بابتسامة:

- اسمها «أسماء».. أول ما شفتها واتكلمنا قلبي انقبض كدا وحسيتها خنيقة..

ثم قال وهو يتذكر:

- بس لما اتكلمنا كتير عرفت إني ظلمتها.. البت شكلها مع محمود زيي.. بتفكّرني بـ«سيرا» كدا.. روحها حلوة قوي وضحكتها زي العسل.. بس

[illegible]

من حواليها فيه حاجة حلوة..

[illegible]

قال فجأة

وهبطت دمعته وهو يقول:

- إن أنا الشخص ذا..

وطأطأ وقال بصوت مرتجف:

[illegible]

«عيسى»:

- [illegible] كل حاجة باعملها وأحب [illegible]

ارجع عادي..

[illegible] قلبي و[illegible]، أشعر أنني أرى جزءًا مني

[illegible] «عيسى» بألم:

- [illegible] الأمر [illegible] تختار دلوقتي.. أول اختيار إنك تكمل

[illegible] حواك ونعيش حياتك زي ما انت عاوز وترمي كل

[illegible]

- [illegible] مكملًا

الاختيار [illegible] إنك تخيبي حواك. [illegible] حاجة واحدة بس صح فيّا.

[illegible] حواك تاني.

[illegible] في الأرض، أراه وهو يدهس [illegible]

الذي [illegible] في وجهه، رأيت الخوف يسيطر عليه، [illegible]

[illegible] غير مرئية ومحسوسة على [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الجزء الذي تأذّ أضعافًا مضاعفة..

[illegible]

[illegible]

وترك دموعه تهبط بغزارة وهو يقول:

ـ ومش معايا «عيسى» تاني يشدني..

[illegible]

ـ ماعملوش آلة زمن طيب؟

[illegible] يبحث عن الأمان [illegible]

حقيقي جعلني أدمع:

ـ [illegible] نقول إن كل حاجة [illegible]

كويسة وتمشي تاني؟

وبكى كما لم يبك من قبل..

Why do my words

Alwa[illegible] eaning?

What I feel [illegible] ay

There's such [illegible] etween them.

[illegible]

I just stood there..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] علاقة [illegible]

[illegible] كل شيء [illegible]

[illegible]

فتحت عينيّ لأجد أنه عاد معي..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ذلك الاطمئنان، تلك اللحظة التي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الصمت مدة طويلة.

[illegible] ابتسامة هادئة وقال [illegible]

[illegible]

واطمأنت [illegible] تماما.

لكني [illegible] حقيقة.

[illegible]

[illegible] أصبحت معه صوت [illegible]

[illegible]

. . .

(٢٠)

وتاسع الكنوز.. وآخرها

نوح راح لحاله والطوفان استمر
مركبنا تايهة لسه مش لاقية بر
آه م الطوفان وآهين يا بر الأمان
ازاي تبان والدنيا غرقانة شر؟
عجبي!

صلاح جاهين

ـ كربت فوق باب الكنيسة .

[illegible]

- أنا عاوزة أقولك حاجة يا «عيسى»..

[illegible]

- أنا آسفة..

[illegible] لأفهم [illegible]

[illegible]

- على إيه؟

[illegible] إلى «هيثم»، ابتسمت بحسرة وهي [illegible]

[illegible] مهمة ثقيلة على قلبه:

[illegible] ورا حوار الصور [illegible]

[illegible] شككت أن يكون أحدٌ من وسطنا هو [illegible] فقد فعلت شيئًا ذكيًّا وبسيطًا، سربت معلومة [illegible] واحد فيهم معلومة مختلفة، قالت لـ«درية» [illegible] قلت لـ«ياسين» إنني أخطط للانضمام [illegible] وقلت لـ«هيثم» إنني استعنت بـ«هاكر» محترف [illegible] واخترق حسابات «أسماء»، [illegible] الإلكترونية، لنكتشف أن «أسماء» كتبت على [illegible] من المحترفين [illegible] لديها ما تخفيه.

[illegible] بعد يوم واحد من إخبار «هيثم».. واليوم [illegible]

حسابها جدا

أكملت «آن» بنبرة آسفة.

كلما..

[illegible]

و«هيثم» مش قريب مني أصلاً

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فجأة بحدة كأنما ينفجر:

- أنا بس حبيت أقولك إني مش راجل خاين ولا بابيع صحابي

أومأت برأسي أن نعم في تفهم، أعلم أن ما سيأتي من كلامه سيكون [illegible]، حبست نظراتي عن «آن» ونظرت إليه، ليكمل هو قائلاً بالحدة نفسها

- إنت صاحب الست دي جدًا. وكل اللي بيعملوه فيك ماكانش ربع اللي عملته فيهم

كما توقعت، سيحكي قصة طويلة من تأليف «أسماء» عن نفسها وعن حقوقها، سيتحدث عن خيانات لم تحدث، قال «هيثم» أمام عيني النادرتين وهو يشير إلى «آن»:

- أنا و«حسام» صاحبك اللي عملنا «هاك» على حساباتك. وأحب أقولك إني أنا اللي صورتك مع «سرا»..

لم أتوقع هذا، هذا كان «حسام» مرتبكًا حينما [illegible] أني كشفته، أومأت برأسي وحالة البرود مستمرة، ليكمل هو بحدة.

«آن» وفيها خدعة بسيطة معروفة هي الشيب.. فكانت تضع الكاميرا على نفس «snapchat» مع هذا الفلتر الذي يغير في الشكل والصوت؛ لذا كنا نصوب الكاميرا علينا ونمرح.. ساخرين مني ومن «أسماء» ومن «آن» ومن كل شيء حولنا.. كنا نلتقط [illegible] و«أسماء» ونعرضها على وسائل التواصل الاجتماعي.

ونجح هذا الأمر في تشتيتي تماما.

لكن «هيثم» و«حسام» و«أسماء» وحدها، والعالم أجمع، لن يصدقوا أن ما يرونه هو مجرد اثنين من الأصدقاء يمرحان معًا..

أكمل «هيثم» بحدة أكثر:

- والأستاذ «عيسى» نسي أصلًا إن «أسماء» لما سابت البيت كنت بتحش حساباته كلها.. فكل القرف اللي كان بيعمله كنت بتلقى فاتحة وشايفاه قدامها..

ضحكت باستهزاء، فنظر «هيثم» لي بدهشة، قلت متسائلا بسخرية:

- يعني أنا كنت بحب «آن» وفي علاقة معاها؟.. ولا كنت بعط قدامها مع الناس التانية أونلاين؟..

هز كتفه بلا مبالاة، ومال في جلسته أكثر وقال بغضب:

- عارف يعني إيه واحدة لسه سايبة البيت مبقالهاش يومين تلاتة، مستنية جوزها يرجع يصالحها، تلاقيه بيعمل القرف دا قدام عينيها؟ تخيل إنها أختك وشوف هنعمل إيه عشان نجيبلها حقها وكرامتها اللي دُستهم برجلك..

ثم صمت «هيثم» تمامًا..

نظرت إليه لحظات، أتأمل ملامحه الغاضبة، وإيمانه العميق بما يقول، ذكرني بنفسي منذ ثلاث سنوات، وطليقتي يحذرني ولا أسمعه، خوفي خالة من المعيب، قلت «شمس» بهدوء:

- وأنت حسبت إنك لازم تاخد حقها.. رحت خنت صحابك كلهم..

[illegible] إلى الشمس [illegible]

[illegible]

[illegible] كل يوم [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

قلتُ في هدوء وصفاء غريبين:

- [illegible]

وللمرة [illegible] أحرق به [illegible]

الصغيرة [illegible] وقتها..

[illegible] للمرة [illegible] وقوة

- [illegible]

[illegible] في دهشة، لكنهم لم يروا أبدًا ما أراه..

خطوة ثمانية وعشرون لتتعافى من علاقة سامة. أن تسامح نفسك وتسامحهم لتتخلى عن رغبة أنك كنت ضحية لـ الآخرين.. المسامحة الحقيقية ليست في العودة إليهم، بل تصالح نفسك على ما فعلوه فيك.. وتتركهم تمامًا..

وعشت، وتعافيت، وأخيرًا صرت مثلهم.

صرت مثل كل شخص عاش حياته يبث [illegible] في نفوس من حوله..

[illegible] أن أحب نفسي [illegible] أن أسامحهم [illegible]
سيحاسبهم حسابًا عادلًا.
البشر نوعان، الأول [illegible]
[illegible] أن يكون من أهل الشر [illegible]
يؤذ ولو بعد حين..
ومن نحن [illegible] جميعًا [illegible] على [illegible]

* * *

مكاننا السحري..
محطة الوقود..
جلست أنا و«آن» على حقيبة عربتنا وصمتنا قليلًا، يتسلل الهدوء [illegible] في أطرافنا، وهدوء المكان يلقي السكينة على قلوبنا، قالت [illegible] من دون أن تنظر إليّ:
- متضايق؟
ابتسمت وأنا أقول برضا تعجبت منه داخلي:
- خالص.. مش متضايق أصلًا..
نظرت إليّ بتعجُّب، لم تتوقع هذا الرد، نظرتُ إلى عينيها، [illegible] هي عينيها وتقول بابتسامة متسائلة:
- أنا تخيلت إنك هتمسك «هيثم» ومش هتسيبه غير على نقالة.
هززت كتفي بلا مبالاة، لا أنكر أن تلك الخاطرة أتت في عقلي كثيرًا، قلت بهدوء:
- مابقتش مقتنع إني من حقي أرد الأذى بأذى
عقدت «آن» حاجبيها وقالت:
- بس هو أذاك.. دمر كل حاجة..

قلت وأنا أمد يدي وأرسم بإصبعي دائرة في الهواء لأشرح وجهة نظري:

- دايرة الأذى ماسمحاصلش يا «آن».. كل واحد بيشوف وجعه إنه أكبر وجع في الدنيا.. مثلاً أنا هاذيكي مش قاصد.. انتِ هتوجعي مستقصدة.. أقوم أنا أتوجع وأقولك إن أذاك أكبر من أذايا.. فاتقومي انتِ تتوجعي.. وهكذا وهكذا ودايرة شر مالهاش أول ولا آخر..

وهزيت كتفي في لا مبالاة وأنا أكمل شاعرًا براحة نفسية وبوجود «عيسى الصغير» يدفئ أوصال قلبي ويطمئنني:

- بداية الكون كلها بدأت بأذى.. شيطان غيران من إنسان.. اطّرد من رحمة ربنا.. اتأذى وقال إن الإنسان هو السبب.. لو كان ما اتخلقش كان فضل إبليس في الجنة.. ففضل ينتقم طول حيته من الإنسان.. دايرة أذى بدأت من أول ما اتخلقنا..

ثم ضحكتُ ضحكةً عالية فجأة، وقلت ساخرًا أمام نظرة «آن» المتعجبة:

- تفتكري لو حد راح للشيطان دلوقتي وخده على جنب وقاله عيب اللي بتعمله دا وصلي على النبي.. هيعرف يسامح ويبطل انتقام؟

ضحكت «آن» من طفولة الفكرة، فأكملت أنا ببساطة كلامي:

- أعتقد إن أكبر عقاب ممكن ربنا يديه لبني آدم، إنه يخليه مايسامحش؛ لأنه ببساطة بعد فترة بيتحول لشيطان..

وأكملت معيدًا رسم الدائرة في الهواء شاردًا في أفكاري:

- الحاجة الوحيدة اللي بتكسر دايرة الأذى دي إنك تسامحي يا «آن».. بس المسامحة الحقيقية اللي من قلبك.. ماتفضليش شايلة من جواكِ وبتقولي إن الموضوع خلص.. تشوفي الناس بعينيهم ووجعهم وتسامحي مهما أذوكِ وعملوا فيكِ.. تسامحي وتلمي اللي فاضل من قلبك وتمشي.. يمكن دا يخنقك ويحسسك بحاجات كتير وحشة.. بس دي الحاجة الوحيدة اللي هتكسر دايرة الأذى في حياتك يا «آن»..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ـ هاتيلي آخر جواب..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible] ووضعت يدها في حقيبتها الصغيرة وأخرجت الخطاب، [illegible] في حقيبة "عيسى القديم".

[illegible] وتمسك [illegible]

[illegible] وآخرها

حتى [illegible] كتبه "عيسى الكبير" هذه المرة..

بل كتبه لها..

لـ"إسراء"..

* * *

"نوح راح لحاله والطوفان استمر.. مركبنا تايهة ولسَّه مش لاقية بر"

عزيزتي إسراء..

أعرف أنكِ لم تصبري.

وأنا أخبرك أن آخر خطاب هو الوحيد المسموح لكِ بقراءته، أعلم أن فضولك لن يحتمل حتى تعودي إلى منزلك وتقرئي الخطاب.. أعرف أنك تقرئينه الآن في عربة والدك والسائق يحاول أن يعرف لماذا تبكي..

البارحة، اعترفتُ لكِ أني أحبك

واعترفتِ لي أنك تحبينني.

لا أدري، بعد روعة تلك اللحظات السعيدة، التي شعرت فيها أن كل شيء في مكانه الصحيح، فداحة الخطأ الذي نرتكبه

أكتب إليكِ الآن بآخر ما تبقى من "عيسى" الذي عرفته منذ طفولته

أتذكر عندما أخبرتني أمي أن أجلس بجانبك في أول يوم لي في المدرسة أتذكَّر جيدًا أنني كنت خائفًا، لا أدري ما الذي أفعله، لأجدك تبتسمين لي ابتسامةً حنونًا، تمدين يدك لي وتقولين بفخر طفولي "اسمي (سيرا)" لأبتسم قائلًا. "وأنا (عيسى)".. وينتهي كل شيء. نسيت خوفي أمام عينيك الحنونين وأنت تحاولين أن تلهيني بكلامك الكثير وقصصك التي لا تنتهي

وأصبحنا صديقين..

بل أصبحنا لا نفترق..

علم الجميع أن هناك قوة لا يُستهان بها، اسمها "سيرا" و"عيسى"، ولن ينجح في تفريقنا أحد؛ لأننا عشقنا تمردنا على كل ما حولنا..

رأيتك تتحولين إلى شخصية رائعة، رأت في حياتها ما رأت من ابتعاد، من أحزان، من فراق، ومن خذلان مقربين، وبدلًا من أن تبكي.. أفرغت ألمها كله في التمثيل، كما أفرغتُ ألمي كله في الإخراج..

أتذكرين اتفاقنا أننا لو وصلنا إلى عمر السادسة والثلاثين، ولم نكُن قد تزوجنا، سنتزوج أنا وأنتِ؟

كم من المرات شعرنا أننا نحب بعضنا البعض؟ كم مرة أخبرتك أنني أحبك؟ وكم مرة أخبرتِني أنت أيضًا؟ وفي كل مرة ندرك تمامًا أن ما بيننا أعظم وأسمى بكثير من قصة حب قد تنتهي فنخسر صداقة سنموت من دونها؟ ولهذا عقدنا ذلك الاتفاق.. لو لم نعثر على الحب وعلى من يحتوينا طول تلك المدة.. هذا هو أكبر دليل أننا لن نكون إلا لبعضنا البعض..

وكنا نعلم أننا نختلف.

أتعلمين لماذا أقول دائمًا إننا «هدهدان»؟

كنت تتعجبين مني عندما أطلق علينا هذا، لكنك تسايرينني

الهدهد طائر تم تكريمه في قصة «سليمان» وهو ملك للطيور، لذا أطلق علينا أنا وأنت أننا هدهدان، لكن لم يتم اكتشافهما بعد

مختلف عن كل مَن حولنا في تفاصيل بسيطة، لكنها جوهرية، أتخيل دائمًا أننا داخل قصة من فيلم رسوم متحركة، عن هدهدين تربيا وسط مجموعة من البطاريق، فلم يعرفا أنهما يستطيعان التحليق، ويعيشان في مناخ من البرودة القاتلة، يضطران أن يسيرا في جماعة ويتصرفا كجماعة من دون تفكير، لكن بداخلهما ذلك اليقين، أنهما يستطيعان التحليق..

ولا يصدقهما أحد من البطاريق..

أعرف أنني خيالي، لكنني أرانا هكذا، أو كنت أرانا هكذا..

فأنا تعبت يا «سيرا»..

أنا أريد أن أقتل كل ما يرغب في التحليق داخلي..

لهذا قلت لك إن هذا آخر لقاء بيننا.. وإن التفسير في هذا الخطاب..

أنا أعترف أنني لم أعُد «هدهدًا» يا «سيرا».. أنا الآن مجرد بطريق آخر.. يراكِ تتعلمين التحليق بعيدًا.. ولا يستطيع إلا أن يودعك..

مرت شهور منذ أن دخلنا الجامعة، لم أعُد أراكِ ولم نعُد نعرف كيف نلتقي، وعندما ابتعدنا، ورأيتك تتألقين في عالمك في معهد السينما، أدركتُ أنني أضعف من أن أكمل ذلك الحلم..

ولهذا ودعتك اليوم..

أنتِ آخر أمل في التحليق يا «سيرا»، وجودك يؤلمني ويشعرني بعجزي أكثر.. لو بقيت معك في حياتك سأكون منهم.. ممن يقنعونك بأنك لن تحلقي أبدًا.. لأننا مخلوقات تخاف الوحدة.. تسير في جماعة.. وتحليقك وحيدة يقتل ذلك اليقين داخلنا..

"مشروع الـ١٨" سيكتمل بهذا الخطاب، وضعت لك في علبة معدنية
كبيرة خريطة الكنز، وضعت حلول كل الألغاز، وضعت لك كل شيء يتعلق بهذا المشروع كرسالة وداع

أتدرين لماذا أنهي معك أنت بالذات هذا المشروع؟

لأنه أقوى اختبار لذلك الحب الذي اعترفنا به البارحة

لأن أنثى الهدهد تستطيع العثور على الماء في باطن الأرض، اعتبرها العرب سر الحياة.. وأنا أراك في عيني سر الأمل في التحليق

فكما انتزعتِ عني الخوف في أول يوم في الدراسة وعرفت كيف تدعمينني طول حياتك. أعرف أنك الوحيدة على وجه الأرض التي ستستطيع أن تعيدي لي بعد ثمانية عشر عامًا من الموت..

ستعثرين على "عيسى" الذي تحبينه.. داخل ذلك الرجل الذي أهلكه المرض والضغط النفسي..

لو مرَّ هذا العمر، ووجدت نفسك وحيدة، لا يفهمك أحد، وأتيت لي بكل شيء، اعلمي أن هذا اعتراف منكِ بأنك تحبينني، كما اتفقنا فيما مضى..

لو وصلنا إلى هذا العمر. ووجدتِني متزوجًا وأبًا، وسعيدًا وقانعًا بما أنا فيه، لا تقتربي من حياتي.. اتركيني أحيَ حياة البطاريق راضيًا.

لا تعيدي الأمل بكل ألمه.. واتركيني تائهًا أقبل قيود الأرض مستسلمًا..

لكن لو لم يكُن في حياتي من أحبهم، لو عرفتِ أنني وحيد تمامًا، اعلمي أن هذا اعتراف صريح مني أنني ما زلتُ أحبك يا "سبرا".. أنني لم أجد من يحتوي "الهدهد" بداخلي.. وأنني على الرغم من إيماني بموتي...

فإن قلبي ما زال يعشق التحليق..

ما زال يعشقك..

تذكريني دائمًا..

أحبك يا أعز صديقة لي..

أراك بعد ثمانية عشر عامًا.

وبعد كل هذه الأعمار أقول لك يا «سيرا»، هذا آخر اختبار لـ[illegible]

الكبير)..

إذًا يعشق.. بجدك.».

* * *

نظرتُ إلى الخطاب مبتسمة، لا أستطيع أن أمنع تلك [illegible]

تسري في جسدي..

لقد أتت «سيرا» بعد كل هذا العمر

نظرتُ إلى «آن» نظرة حانية، لأجدها تبتسم وتنظر إلى [illegible]

وعادت لتجلس جانبي على حقيبة العربة..

ننظر إلى ذلك المكان الواسع، بأعين شاردة.

قالت «آن» بنبرة متسائلة:

- الجواب ده مافيهوش لغز.. مافيهوش رباعية.. هتحله ازاي؟

ابتسمتُ وأنا أتذكر كل شيء:

- عشان «سيرا» هي حل اللغز.. «سيرا» هي آخر كنز.

نظرَتْ إليّ غير فاهمة، ثم قالت بابتسامة.

- انت متأكد؟

قلت بيقين:

- اللغز ده أصعب واحد عشان مفيش لغز.. بس «سيرا» كانت اللي هتعرف تحله معايا..

أومأت برأسها أن نعم، لا أدري ما المطلوب مني ومنه تحديدًا، لكني تذكرت وجه «سيرا» عندما جاءت لي في البداية منذ أسبوعين، حماسها ومراحها معي، ابتسامتها المشرقة وهي تقول: «أنا نفذت الوصية بعد السنين دي

ماما» لم يكن بقصد المشروع
دينت بقصد أنه عندي لأنه لم... حسب من دون
ارتجف قلبي في صدري..
أشعر أنني أريد أن أركض إليها لأن، أحتضنها ولا أتركها
أمسكت هاتفي وطلبت رقمها، وكما هو متوقع..
بدا على «آن» التردد لحظات، نظرت إليها... وهي تنظر إلى الأرض:
- ممكن أعترف بحاجة بس متزعلش ومتفهمش غلط؟
قلتُ ساخرًا وأنا أبتسم:
- بتحبيني انتِ كمان؟
لوت شفتيها بامتعاض وقالت باشمئزاز:
- لأ طبعًا، إيه القرف دا؟!
ثم صمتت وتنحنحت، وقالت بتردد..
- أنا متعاطفة مع «أسماء».. وفاهمة هي بتعمل كل دا ليه..
صمتُّ تمامًا وأنا أنظر إليها، لتكمل هي بنبرة دامعة:
- فاكر لما جيت عشت معاكم فترة؟
أومأت برأسي إيجابًا، «آن» كانت تعيش وحدها منذ فترة طويلة. كانت هناك مشكلة في إيجار إحدى الشقق، فطردها المالك بأسلوب قذر، لتجد نفسها فجأة بلا بيت، لتعرض عليها «أسماء» أن تعيش معنا حتى تجد مكانًا آخر.. واستضفناها في بيتنا قرابة أربعة أشهر..
وكان هذا قبل طلاقنا بفترة قصيرة..
ما لم تكن «آن» تعرفه أن «أسماء» عرضت الأمر علينا وغرضها جيدًا؛ كنا نعلم - أنا وأبي وأمي وأهلها - شكها في كل شيء؛ لذلك كنت استضافة

... ومساندة حجيم حقيقي لكل شيء حولها، لكنها [illegible]

...ب للجسم أو ليست مريضة، وأنها تشعر بـ«آن» وبعلاقتنا الطبيعية

لتمنع «أسماء» من وجودها بعد فراقه ثلاثة أسابيع، ما لا نعرفه «آن» أن

«أسماء» حملت جنيني جنينها، يهدد كل يوم أن تعرف «آن» أن تعرف، لكني

حزنت، لأننا أكدنا لـ«آن» أنها فرحت بها حتى تجد شقة أخرى.

قالت «آن» بهدوء:

ـ أنت كنت ميت يا «عيسى».. كنت معاها بس مش معاها.. دايمًا تايه وزعلان وقرفان من حياتك.. «أسماء» عملت كتير علشان تحضني وتقولي قد إيه هي سعت كل يوم عشان تبسطك وأنت مش حاسس.

وأكملت «آن» كلامها الصريح الصادق من القلب.

ما قالته «آن» إنني كنت زوجًا باردًا.. أستسلم لراحة المرض وانتظار الموت.. إنني كنت صديقًا رائعًا، أسخر وأمرح وأضحك، لكنني كنت زوجًا محبطًا، باردًا، يرفض أن يستمتع بالحياة..

قالت «آن» إن «أسماء» تحدثت معها كثيرًا.. تشكو لها أنها لا تستطيع أن تسيطر على غيرتها بسبب تعاستك معها.. كانت تعلم أنها السبب في تلك التعاسة.. أو على الأقل تعلم أنها لن تكون الشخص الذي سيُخرجك منها مهما حاول..

قالت «آن» إنه لا يوجد أصعب من إحساس المرأة عندما تشعر أنها غير كافية لإنقاذه من كآبته ليستمتع بالحياة؛ لذا كانت تعرف أنها تقتلك بحبها إياك.. لا تستطيع أن تتركك ولا تستطيع أن تمنع نفسها من الشك والغضب..

ما قالته «آن» إن «أسماء» كانت تصرخ وتضرب وتسب ليس لأنها تكرهني.. ولكن لأنها تعشقني وتعرف أنها ستخسرني في النهاية ولم تكن تدري ماذا تفعل..

وقالت «آن» إن «أسماء» تفعل كل هذا الآن لأنها ما زالت تحبني.. ولا

[illegible] بهذه السهولة بعد حرب دامت أربعة أعوام. وكيف لم نعرف نهايتها حتى بهذا الشكل [illegible] «آن» ونجوى «أسماء» [illegible] أي شخص [illegible] أسهم السبب في أنني لم أفعل حتى الآن.

والآن ما جعلني أدرك، لأول مرة في حياتي، أنني كنت الشخص السام في العلاقة.. وليس «أسماء».

ارتعشت [illegible] من الخاطرة في خوف، لتحسني عقبي إجابة بسيطة جعلتني أفهم وأهدأ قليلًا..

هناك فرق واحد فقط يجعلني أختلف.

نظرت إلى «آن» لحظات، بداخلي القرار يتصاعد رغمًا عني..

مللتُ من كل ما يحدث.. لا بُدّ من نهاية تغلق كل الأبواب المفتوحة داخلنا..

نهضت من جلستي، وقلتُ لها باقتضاب:

ـ تعالي معايا..

* * *

نظرت إلى عينيها الواسعتين الخضراوين، إلى وجهها أبيض اللون، إلى جلستها المتوترة تقاوم البكاء بصعوبة، تخشّب جسدها وعقدت ذراعيها حول صدرها، تأملتها شحمها ولحمها لأول مرة منذ شهور..

نظرت إلى «أسماء»..

الخطوة الرابعة والعشرون للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: واجه الشريك لو أتت الفرصة.. لكن لا تواجهه قبل خطوة المسامحة حتى لا ترتكب خطأ العودة.. لا تواجه إلا قبل أن تتخلّص من السم تمامًا. واجهه وانظر إلى عينيه وقل كل ما بداخلك.. صفحة تضع نقطة النهاية بإرادتك أنت فقط..

لم تصدق «آن» عندما وجدتني أوقف العربة تحت بيتها، تركتُ العربة لها حاملًا الكيس الذي ذهبت إلى محل ألعاب مشهور خصيصًا لآتي به،

[illegible]

قلت لـ«أسماء» متحاملًا أمها:

ـ أنا عاوز أخلص كل حاجة..

[illegible]

[illegible] صاح «[illegible]» داخل [illegible]

ـ [illegible]؟

[illegible] وأن تنظر إلى [illegible] البكاء، [illegible]

[illegible]

[illegible] كل شيء داخل [illegible]

ـ خلينا نتكلم ونخلص كل حاجة..

أومأت برأسها من دون أن تتكلم، ثم نظرت إلى والدتها [illegible] على الأم المتعصب وهي ترمقني باحتقار؛ لهذا يدمر الأهل كل شيء، ذلك العشق غير العادل لأولادهم..

تركتنا وحدنا، في نادرة تعجبت منها، الراحة في عيني «أسماء» جعلتها [illegible]، تدرك الآن أن على الرغم من كل شيء [illegible] أهلها يشعرون بها، هي ابنتهم الوحيدة، أدركت لأول مرة أن كل ما [illegible] عشقه إياها، [illegible] نفسه في كل تلك الأحداث [illegible] ولا يمس [illegible] الضرر..

أدركت أن قصتي نفسها من وجهة نظرهم تحمل كثيرًا من المشاعر

[illegible]

[illegible] أني [illegible]

[illegible]

لا تدري ماذا تقول..

[illegible]

أعشقها..

[illegible] عقلها [illegible] بعد [illegible]

بعد [illegible]، [illegible] في ثوب [illegible]

فيه مميزات كثيرة رائعة، لكنه [illegible] درجة..

أخرجت من الكيس الأبيض علبة، فتحتها على الفور وأخرجت ما فيها، قلت مبتسمًا بهدوء:

ـ دي لعبة جهاز كشف الكدب، معمولة للكبار بس، بيقيس [illegible] ويقرا لو باكدب..

نظرت إليّ في عدم فهم، لم أستطع أن أمنع ذلك الاعتياد الذي كنت أحلت به زوجتي فيما سبق، فقلت:

ـ بس اخلو [illegible] إني لو باكدب بيعمل كهربا توجع جدًا في إيدي. ودي اللي هتعرفي إني باكدب

رغمًا عنها ابتسمت إعجابًا باللعبة، الطفلة داخلها اهتمت بجهاز كشف الكذب، بدت لغة جسدها أكثر راحة، كانت فكرة «عيسى الصغير» وأنا في الطريق إلى هنا، نفذتها على الفور من دون تفكير..

طوال فترة زواجنا كانت تخبرني أنها تريد أن تصنع جهاز كشف الكذب، لأنها تشعر أني دائمًا ما أخفي شيئًا ما..

[illegible] واسعة

على الصفحة الصغيرة..

[illegible]

اكتب..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في [illegible] أصلاً.

[illegible]

[illegible]

[illegible] كنت [illegible]

إلى الجهاز بشكلها المعتاد وقالت:

ـ [illegible]؟

قلت بابتسامة واسعة:

ـ أنا اسمي «حماقة»..

[illegible] ثم تسري شحنة كهربائية

[illegible] في إصبعي.. فصرخت في [illegible] حقيقي

وأنا أنتفض..

[illegible] شعرت [illegible] شيء مهم اندثرت

بالكراهية منظل موجودة..

[illegible] البعض [illegible]

[illegible]

قالت بصوت مختنق:

ـ [illegible]

قلت من دون تفكير:

[illegible]

[illegible]

الموضوع..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- وإيه المشكلة لو كنا رجعنا؟

بدأت أتوتر، النسمة لا تجيد الصراحة، [illegible]، ممكن في حياتي مع «أسير»، قلت وقد توبت أن أعترف بكل شيء، [illegible] «عيسى الصغير»:

- أنا وأنت بيسموها في علم النفس علاقة «toxic».. علاقة مؤذية وسامة.. كل واحد فينا لوحده كويس جدًا.. لكن إحنا مع بعض بنطلع أوحش حاجة في بعض.. كنا بنستهلك بعض قوي وبنموت بالحياة..

بدأت تهز قدمها في عصبية، قلت وقد بدأت الشخصية الشكاكة في التحدث، تلك الشخصية التي كنت أكرهها عندما أشم رائحتها في أي شجار، الشخصية التي تشي بقدوم مصيبة:

- إحنا كنا كويسين لحد ما جت «ان»، بنت الكلب، بوظت كل حاجة.. خدتك مني وخدت بيتي وبتلف عليك لحد دلوقتي

أغمضت عينيّ محاولًا أن أهدئ نفسي قليلًا، تلك الخلافات التي كنت أواجهها يوميًا، «كنا كويسين» كلمة مضللة، كنا [illegible]، لكنها لن تعترف بهذا حتى لو ماتت، قلت بنبرة هادئة:

[illegible]

عشان أنا زهقت من الكدب..

[illegible]

عشان [illegible] كل واحد فينا شايف الباب عشان يمشي [illegible]

[illegible]

هنا [illegible] لكي اعترفت بما لم أخبرها به أبدًا

- [illegible] من يوم ما حاولتي الانتحار وقررتي تنسيني وأنا مش عارف أحبك تاني..

نهضت من [illegible] عدم التصديق، أشاحت بيدها وقالت بعصبية

- [illegible] هتمسكي الحوار دا وتذليني بيه؟ ما قلت ماكنتش في وعيي.

[illegible] بردها العصبي، قلت وأنا أشعر بارتياح الصراحة يجتاحني

- [illegible] في ضهرك بعدها.. قلتلك إني مسامح.. قلتلك إني شايفك [illegible] في الدنيا.. بس أنا كنت باكدب..

وبدأت أتقدم قليلًا، قلت أمام عينيها غير المصدقتين:

- [illegible] خيانة.. خنتي كل الوعود اللي [illegible] مش هتسيبني طول عمري، وقولت أنا وانت في ضهر بعض ضد كل العالم.. بس الضربة في ضهري جت منك انت.. من يوم ما شفتك [illegible] وأنا عرفت إن عمري في حياتي ما هعرف أحبك تاني.

وتمتمت بحرقة ولكن بصوت خافت، وأنا أشده إليها من

- ست سنين من [illegible] كل مرة [illegible]

وتروحي ترمي اللوم على حد [illegible]

وضربت [illegible] موصوله بالجهاز [illegible]

وثقة:

- أنا عمري ما حسيت [illegible] ولا حسيت معاها ولا مع أبي [illegible]

نظرت أمي إلى النور الأخضر [illegible]، انتظرت أن تسير شحنة كهربائية

في يدي، لكني أكملت:

- ست كنت بتكرهي مرضي.. بتكرهي برودي.. بتكرهي إني مش حر وأنا معاكِ.. وكنت خايفة تسيبيني.. وأنا كنت خايف أبقى لوحدي.. فمابقيتش نحب بعض.. بقينا اتنين خايفين من كل حاجة مع بعض.. فبقينا عاملين زي اتنين محبوسين في أوضة ومش طايقين بعض بس مش عارفين نخرج منها عشان خايفين..

قالت «أمي» بحدة وقد بدأ صوتها يعلو، ألمها يظهر في عينيها واضحًا:

- ست كدب.. الجهاز دا بيغلط.. أنا شفتك بعيني وأنا لسه سايبة البيت من يومين تلاتة بتكلم ناس في قمة أدب وقرف.. بتقول عني كلام زي الزفت.. تصرفت كأني ولا حاجة في حياتك، كأنك ما صدقت إني أمشي..

أومأت برأسي أن نعم، لم يعُد هناك مجال للكبر:

- وكنت غلطان.. وآسف جدًّا فوق ما تتخيلي على دا..

بُهتت من الرد، لم تتوقَّع اعترافًا سهلًا وبسيطًا، ذهبت عيناها ثانية إلى النور الأخضر كي تتأكد، لكني قلت بصدق:

- الواحد وقت الوجع بيعمل أي حاجة تخفف الوجع دا.. وأنا طول عمري بهرب.. بُعدك عني كان وجعه قدر.. انتم صح.. كان لازم أنسى

[illegible]

... أنهي كل شيء ... [illegible]

... [illegible] ... ولو أقسم ... [illegible]

- ... [illegible] ... محدش قال عليك كدا لا أنا ولا ... [illegible]

... [illegible] ... عشان ... [illegible]

... [illegible] ... وإنك ... [illegible] ... أربع مرات ... [illegible]

... [illegible] ... يقوله مافيش حاجة اسمها كدا ... [illegible]

... [illegible] ... ماتحققتش.

ثم أكملتُ وأنا أرجو بكل ذرة في كياني أن تصدقني ولو لمرة واحدة في حياتها:

- ... [illegible] ... حاجة فلوس ... [illegible] ... علشان ... [illegible]

... [illegible] ... أكتر. وعشان كدا ماكنش ... [illegible] ... عارفة إيه

في صراحة إيه عاوز في أصرف عليك بعد ... [illegible] ... هو الفلوس

ويبقى الموضوع بيني وبينه؟!

ثم سألتها فأنا بحاجة [illegible]، أنا أكره [illegible] لم أعد له

ـ إنه مبدأ حبيتك لوحدك في الحياة؟

نظرت لي متسائلة، لا أعلم إن كان كلامي قد وصل لها [illegible]

ـ [illegible] الكل [illegible] فقدانك [illegible]

الحقيقة فين؟..

قالت بابتسامة ساخرة وهي تبكي

ـ حبيت كداب صح، وأن المعروض أصدق واحد حبيته [illegible]!

ابتسمت في يأس، رفعت يدي بجهاز كشف الكذب، [illegible]

ـ اسألي

احترمت بكاءها، صمتُّ قليلًا ونظرت إلى الطريق الواسع في الشرفة،

على الرغم من كل ما بيننا، لا أحتمل رؤيتها تبكي، قالت هي:

ـ انت كنت بتحبني بجد ولا بتمثّل؟

نظرتُ إليها بحنان، كل ذكرياتنا الجميلة تسير في أوصالي، قلت بابتسامة هادئة:

ـ حبيتك أكتر من دنيتي كلها.. ومش عارف أحب بعدك

زاد بكاؤها، أمسكت رأسها في حيرة، لهذا لم أكُن أريد أن أكلمها، شكُّها يجعلها لا تعرف من تصدق، تلك الحيرة التي تعانيها تقتلني، قالت وهي تنظر إلي:

ـ انت أحسن بعدي؟ عايش أحسن ممَّا كنت معايا؟

أخذتُ نفسًا عميقًا، وأنا أعلم أن إجابة سؤالي ستقتل ما تبقى منا:

ـ لما سيبتك كان قراري . ماحدش لعب في دماغي وقرار في عليك..

ماحدش سيطر عليا زي ما أنت متخيلة.. قعدت فترة مضيّق بعد ما مشيتي وباغلط كتير..

هذا المكان

لكن لم يتغير لونه..

[illegible]

- أنا معدتش فارق معايا مصيبته ولا شغله، ولا فارق معايا فعلاً أي حاجة ممكن يعملها بعد كدا. أنا جيت هنا عشان «[illegible]» اللي ابنك شايفاه بسبب خراب بيتنا هي اللي قالتلي إن من حقك إنك ترتاحي، وتفهمي إنك كنت غلطانة وإني كنت بحبك. بس إحنا فشلنا زي أي اتنين بيفشلوا

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢٤ - «كلنا سامُون.. تختلف درجات السم وقوته واحتواؤه. لكن في النهاية كل البشر سامون.. لو رأيت الشريك يبث سمه فيك ابتعد. لو رأيت نفسك تبث السم في أحدٍ ابتعد.. العلاقة السليمة معادلتها: (لا ضرر ولا ضرار). فقط احترام ومعرفة لذلك السم والابتعاد عن لمسه طول فترة العلاقة.. هكذا تصح العلاقات»..

وقتها الفارق الوحيد الذي أدركته:

- بس اللي يفرق البني آدم الـ«toxic» عن كل الناس هو الأذى الفعلي يا «أسماء». تدمير حياة بني آدم.. وأنا عمري ما هختار إني آذي واحدة قلتلها إن حضني هيفصل بيتها لحد ما أموت.. وحتى وقفت حد من الانتقام

[illegible]

واتسمت بحنان مكملًا:

[illegible]

أخيرًا بنا نداخل

[illegible]

[illegible] حد

وهزت كتفي قليلًا

[illegible] ومن قبل حتى ما نتجوز. [illegible]

[illegible] وأنا ضعفت واستسلمت عشان شايف إن مفيش [illegible] على كل تعصيبي..

[illegible] حبتي نبقى أحسن. وإنت كفاية مستحمله مرضي وأستحمل [illegible] حاجة..

وفجأة بعد جملتي تذكرت..

تذكرت الأمر التاسع الذي تركه «عيسى» من دون أن يقوله.

سرت قشعريرة في جسدي كله، وشردتُ قليلًا، ثم نهضت، نزعت عني لعبه كشف الكذب، قلت وأنا أنظر إليها برفق:

- أنا سايبك عشان جت آخري.. كفايه أذى.. كفاية قهرة قلب.. كفاية وجع بعدنا عن بعض.. وإننا لسه بنحاول نلضم قلوبنا تعرف تعيش تاني..

ثم ابتسمتُ وأنا أتأمل عينيها الدامعتين الحائرتين، لآخر مره في حياتي، وقلت:

- أنا آسف يا «أسماء» على كل حاجة وحشة فيها. أتمنى ييجي اليوم اللي تسامحيني فيه من قلبك..

وانصرف [illegible] شهور [illegible] الأيام [illegible]

[illegible] كان لا [illegible] أن [illegible]

* * *

(٢١)

الأمر التاسع

في يوم صحيت شاعر براحة وصفا

الهم زال والحزن راح واختفى

خدني العجب وسألت روحي سؤال

أنا مت، ولا وصلت للفلسفة؟

عجبي!

صلاح جاهين

حضروا حفلًا في صالة السينما الواسعة

تم في مهرجان سينمائي في القاهرة للأفلام القصيرة والأفلام التسجيلية، استطاعت «سيرا» بعلاقاتها أن تدخل الفيلم في قائمة الأفلام المعروضة في المهرجان.

وقفت متوترًا في القاعة مرتديًا بدلتي الفخمة في أول يوم يُعرض فيه الفيلم، بجانبي تقف «سيرا» ترتدي فستانًا لامعًا وتمسك يدي..

«سمية».. عم «عريب».. «محمود».. «جمال».. «ستانا».. أبي وأمي وأختي.. «نَن» و«سيرا» و«درية» و«شمس» و«ياسين»..

مرت ثلاثة أشهر منذ مواجهتي مع «أسماء»..

ولم أكُن لأصل إلى هنا من دون تلك المواجهة الأخيرة..

كانت آخر قيد لا بُدَّ من الانعتاق منه..

أشاروا إليَّ أنَّ وقت كلمتي قد حان، شدت «سيرا» على يدي، فذهبتُ وقدمي ترتجف حتى وقفت ممسكًا «ميكروفون» صغيرًا، تأملتُ كمَّ الناس الموجودين ليشاهدوا الفيلم وارتجفت يدي أكثر.. ابتلعت ريقي في خوف، ثم أغمضت عينيَّ..

نفس عميق..

وابتسمتُ مشرقًا، داخلي «عيسى الصغير» يبتسم في فخر ويضحك في جذل..

قلت مُرحِّبًا بالناس:

- النهارده هتشوفوا معايا فيلم تسجيلي.. مشروع ١٨ سنة من عمري.. أول فيلم وثائقي من إخراجي..

دوّى تصفيق بسيط من الحضور في قاعة السينما، رأيت ابتسامة فخر ترتسم على وجهي «آن» و«سيرا». أشرت إلى المسؤول عن القاعة فخفت الأضواء.. وصمت الجمع لحظات..

وبدأ الفيلم،

ليظهر على الشاشة السوداء اسم «براح.. رحلة الـ١٨»..

إخراج «عيسى الشواف»..

اخترت اسم «براح» للفيلم، شيء ما بداخلي كان يشعر دائمًا أن هذا هو أكثر شيء أحتاج إليه، بمعناه اللفظي أحتاج إلى مكان واسع خالٍ من مظاهر الحياة لأجلس فيه وحيدًا أستجمع شتات نفسي بعيدًا عن كل شيء، ومعناه المعنوي وهو إحساس حر طليق، ثم عندما بدأت أستقر على هذا الاسم. اكتشفت ذلك التناقض العبقري فيه.. عندما قرأته معكوسًا..

اكتشفت أن معكوس حروفه هو «حارِب»..

اختلفت الحروف ليختلف معنى يدل على كل شيء بداخلي.. سعي دائم إلى الحرية المطلقة، واستمرار حرب لن تنتهي أبدًا..

ابتسمتُ وأنا أنظر إلى الاسم بفخر دامعًا..

ظلام تام..

ثم بدأ الفيلم بظهور وجه طفولي بريء، في عامه الحادي عشر، يملأ الشاشة وينظر إلينا في براءة ويضحك ضحكة واسعة بوجهه كله..

وجه «علي»، أخي الصغير..

تمت كتابة «علي عبد الآخر العسال، رحمه الله.. الأخ الأصغر.. ٢٠٠٢»، كتعريف في ركن الشاشة ليعرفه المشاهدون..

سمعنا صوت «عيسى الصغير» يقول لـ«علي» بهدوء:

ـ أديني سمعت كلامك ولعبت معاك زي ما لعبت مع «رن»..

نظر «علي» حوله في فرحة صادقة، لم يصدق أنني سأشركه في مشروعي، كان في تلك المرحلة بين حرية الطفولة وقيود النضج، قال ببراءة:

- فين اللعبة؟
تسمع صوت «عيسى الصغير» من خلف الكاميرا:
- هو سالك أسنانه وعاوز عل [illegible]
يقول «علي» بلا مبالاة وهو ينظر حوله
- أنا مش عاوز أكبر..
تدوي ضحكة خفيفة في القاعة، من وراءه «علي» و[illegible]

* * *

بعد أن تركتُ «أسماء» ذهبت إلى السادس من أكتوبر أنا و«[illegible]»..
ذهبت إلى «سيرا»..
ما إن فتحت الباب ورأتني حتى قلت بابتسامة:
- أنثى الهدهد الحيرانة..
ضحكت وعيناها تدمعان، فهمت «سيرا» من جملتي أنني تذكرت كل شيء، ذهبت تجاهها بسرعة حتى احتضنتها، استقبلتني بعناق طويل، بكت فيه كثيرًا، كأن هناك ثقلًا اختفى من فوق صدرها، قالت وسط بكائها:
- وحشتني قوي يا «عيسى»..
ضممتها لصدري أكثر باشتياق حقيقي.. ذلك الاستقبال الذي كان يجب أن أستقبلها به منذ أن أتت يوم عيد ميلادي..
مسحتُ على رأسها بحنان، قلت بعينين دامعتين وابتسامة:
- أنا رجعت خلاص.. «عيسى» صاحب عمرك رجع..
لقد تحملني الجميع كثيرًا..
حان وقت العودة الحقيقية..

* * *

استمر عرض الفيلم لينتزعني من ذكرياتي..
صوت «عيسى الصغير» يسأل «علي» الذي يبتسم في فخر وينظر إلى الكاميرا:

- ليه مش عاوز تكبر يا «علي»؟

قال «علي» بثقة وهو يشير إلى صدره:

- عشان أنا مش هاكبر.. الكبار وحشين وبيزعقوا ومش بيحبوا اللعب

ضحكة ثانية وابتسامة واسعة على وجهي من ردّه التلقائي، لأقول «عيسى الصغير» بسرعة:

- قولي بقى أنا حطيتك في الفيديو دا ليه؟

قال «علي» بسعادة وهو يهز قدميه:

- عشان أنا اللي اديتك فكرة الفيلم دا.. شفت البرنامج بتاع الفيديوهات المضحكة دا على التليفزيون.. كان فيه طفل عنده عشر سنين بيكلم نفسه وهو عنده ٩ سنين.. كان فيديو دمه خفيف قوي.. قلتلك نعمله ليا وليك.

ليتطور الأمر في عقلي إلى كل تلك اللعبة الطويلة..

أظلمت الشاشة ثانيةً وبدأ الفيلم بعرض الأحداث بالترتيب..

بدأ الفيلم بأول كلام لـ«عيسى الصغير» معي، كان يظهر في نصف الشاشة والنصف الآخر أقف أنا عندما صوّرتني «سيرا»، تأملت ردود فعل الجميع حولي، ابتساماتهم الحنون.. دموع عين أمي التي بكت بشدة عندما رأت «علي» والماضي بعينيها..

سمعت ضحكاتهم العالية وهم يرونني أرقص وأحاول أن أحاكي مهارة «عيسى الصغير»..

ذهب من الأمر الأول إلى مشهد حوار «محمود الصغير» و«محمود الكبير»..

لم يكُن لقاءً مثمرًا؛ لأن «محمود» لم يتغيَّر كثيرًا.. حقق معظم أحلامه.. يحتفظ في حياته بمن يحب أن يحتفظ بهم.. لكن ضحكته الصافية مع بداية أنه لم يتزوَّج بعد كما كان يتمنَّى في هذا العمر.. جعلت لقاءه جميلًا.

تتخلل اللقاء أحداث عثوري على الكنز الأول..

في المدرسة..
لأتذكر أنا ما حدث في الشهر الماضي وأنا أتأمل اجتماعهم.

* * *

حكت لي «سيرا» كل شيء يومها، وظللتُ أستمع من دون أن أقاطع منذ أن تركتها في الجامعة، أثبتت نفسها تمامًا، لتترك والديها في آخر سنة لها في الجامعة، واجهتْ فترة قاسية من الألم، لتقابل «مصطفى»، الشاب الذي يحاول أن يبدأ شركة إنتاج، وقعا في حب بعضهما البعض، تزوجا وأنجبا «آسر»..

لتكتشف «سيرا» حقيقةً أخافتها من نفسها..

«سيرا» لم تحب حقيقةَ أنها أم..

أزعجها ذلك الخاطر، ذهبت إلى أطباء نفسيين، هي تحب ابنها، لكن تلك الأمومة التي يُحكى عنها أنها في طبيعة كل أنثى لم تكن بداخلها، تشعر أن ابنها قيد رهيب يذهب بمستقبلها الحر في تجاه آخر تمامًا..

لأكتشف تشابهنا.. أنا سمي في مرضي واستسلامي.. وهي سمها في حلمها وأنانيتها فيه..

بطبيعة الحال، خانها «مصطفى» بعد فترة قصيرة من الزواج.. في البداية كان حريصًا على ألَّا يُظهر ذلك.. لكنه مع الزمن أصبح مهملًا ويعترف لها بخيانته صراحةً.. لتتفق معه أن علاقتهما منتهية؛ لهذا السبب قالت إنها منفصلة منذ عامين وليست «مطلقة».. اتفقَتْ معه أن يفعل ما يشاء من دون أن يمسها.. في النهاية ستظل هي تحقق حلمها بعيدًا عنه.

لتمر أعوام، تنجح «سيرا» عامًا تلو الآخر ويكبر «آسر»، ويحب «مصطفى» فتاة أخرى أراد أن يتزوجها، فاشترطت عليه أن يطلق «سيرا».

لم تمانع «سيرا»، بل شعرت بالراحة، أكثر ما كان يؤرقها هو ابنها «آسر».. ليتم سؤال «آسر»، الذي بلغ من العمر عشرة أعوام، عن إذا كان يريد

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] «عيسى» أبدًا

[illegible]

على صفحات التواصل الاجتماعي، وانتظرت حتى يأتي الميعاد

الثاني والعشرون من أبريل..

* * *

احتفى وجه أبي كاتمًا مشاعره، وهو يشاهد الفيلم معنا، في مشهد قد

حدثني..

يتخلله لقاء له ولأمي مع ماضيهما..

ابتسم بحنين وتأثر، ونظر حوله كي يتأكد أن أحدًا لا يلاحظ.. لكني

على الرغم من ظلام القاعة رأيته..

دائمًا ما ألاحظه، وهو لا يدري..

لقاء أبي مع ماضيه كان قصيرًا مقتضبًا، لا يختلف عن تركه رسالة لعيد

الميلاد: «أتمنى تكون بصحة كويسة».. وتلك الجمل، كما قلتُ من قبل، كل

شيء موضوع عليه علامة «صح» فلن يتغيّر شيء، أعتقد أنني الوحيد الذي

ترتسم جانبه علامة «خطأ» كبيرة في مربع الابن المثالي..

أما أمي، فكان لقاؤها مع ماضيها كله أسئلة، تطمئن فيها على مستقبل

كلٍّ من أولادها.. سألت عن أبي كأنها تطمئن عليه في محادثة تليفونية.. لم

بكى أبي وأمي منذ ثمانية عشر عامًا با ركان الهدف من المشروع، لكنهما واقعًا
وقتها لأني كنت مريضًا..
اللحظة القاتلة عندما سألت أمي منذ ثمانية عشر عامًا عن «علي»، ابنها
الثالث، لتنهار أمي أمام الكاميرا في البكاء
وتخبرها أنه ببساطة قد مات..
يتخلل مشاهد قبر جدتي كلامهما..
ابتسم الجميع وهم يسمعون رباعية صلاح جاهين بصوته..

* * *

بكت «سيرا» بعد أن قالت كل ما في صدرها في ذلك اليوم، كنت جالسة على مقعدها، فنهضتُ أنا وركعتُ بجانبها واحتضنتُها، وبداخلي شعور يتصاعد.. شعور افتقدته منذ زمن بعيد..

ذلك اليقين..

ابتسمَت «آن» وهي ترانا، غمزَت لي فابتسمتُ، لا تفهم شيئًا تلك البلهاء، أبعدتُ «سيرا» قليلًا ونظرت إلى عينيها قائلًا بحنان:

ـ انتِ مش قادرة تحبي، صح؟

أومأت برأسها إيجابًا، قالت دامعة:

ـ مش قادرة أحب غير اللي فاضل حوايا..

فقلتُ أنا مبتسمًا:

ـ وأنا مش قادر أحب.. أنا زيك..

وقلت بهدوء وأنا أشعر براحة غير طبيعية:

ـ الحب مهلك.. الناس بتحوّله لامتلاك وغيرة وشك ونقص.. واحنا اللي بينّا أكبر من كدا..

أومأت برأسها إيجابًا، ابتسمتُ وأنا أقول:

ـ بس إحنا مش هنعرف نطير من غير بعض.. أنا وانت عاملين زي الروحين اللي ماينفعش يفترقوا.. فهنعمل معادلتنا إحنا بس.. هنرضي الدنيا

اللي حوالينا بطريقة محلينا نعرف ببقا إحنا من عمر ما حد يعرف عنا حاجة
وبدأت أسرد هي فكرتي التي توصلت إليها لحل كل ما نحن فيه

* * *

ابتسم عم «غريب» في فخر، كنت استند أنا و«سيرا» إلى الحائط بجانب كرسيه، رأيت زهوه وهو يشاهد ذلك المشهد الذي يجمعني فيه، يتخلله لقاؤه بينه وبين ماضيه..

لم أضع السحير الصوتي بيني وبين «حسام»، اكتفيتُ بحملةٍ معه حتى أُثبت أني بالفعل ذهبت إليه، وعلى الرغم من أنه جزء من الرحلة، فإني شعرت أن المسامحة الحقيقية لم تكُن معه، هو مجرد صديق وذهب، المسامحة الحقيقيه حدثت مع «أسماء»، وبما أنه هو و«أسماء» الآن صديقان وربما أكثر، شعرت أن إغلاق صفحتيهما هما الاثنين معًا هو أسلم حل..

نظر إليَّ عم «غريب» بفرحة وقال هامسًا رافعًا إصبعين:

ـ دي تاني مرة أبقى بطل في أفلامك..

لأقول بصدق:

ـ انت بطل حياتي كلها يا عم «غريب»..

كنت أعنيها حقًا، ضحك في حنان وهو يتابع المشهد في استمتاع.. عندما أعطاني الكاميرا..

لننقل على الفور إلى خامس الكنوز..

ويظهر الحصان يركض وراء النسر في حماس، خلفه أغنية «براين آدمز»..

* * *

قلت لـ«سيرا» التي كانت تنظر إليَّ ذاهلة بعد ما قلته عن خطتي، لأبتسم وأنا أقول بيقين:

ـ الأمر التاسع من «عيسى» كان إني أبقى معاكِ يا «سيرا».. إني أفضل جنبك بأي شكل من الأشكال.. إني عمري ما أسيبك تاني..

ونظرتُ إلى «آن» شارحًا:

ـ «عيسى» كان عارف إني لو رجعت هاعرف الأمر الصح وحدي
عشان كدا حكى قصته لها هي لـ«سيرا» في الجواب.. عشان كدا حكى لي أنا
مرة بعد مرة..

كنت بدور في دوائر من الغربة، من الوحدة، من الاستهلاك المستمر
مش عارف..

كنت بخاف، وبيترك ذلك الخوف يتسلل إلى كل مشاعري، فيحبسني خلف جدران الأمان المصمتة..

لكن هناك شخصًا واحدًا يفهمك.. يدفعك دفعًا إلى أن تكسر تلك الجدران وتخرج أفضل ما فيك.. ما فعله البشر أنهم خلطوا بين ذلك الشخص وبين الحبيب.. فأصبح كل من يحب ينتظر ممن يحبه كل هذا المجهود..

لكن هذا الشخص لم ولن يكون الحبيب..

بل هو الشخص الذي يختار أن يظل بجانبك ويدفعك إلى أن تخرج من ظلام خوفك دائمًا..

يتقبلك بكل عيوبك أيًا ما كانت.. وتتقبله أنت أيضًا..

ظلمت «أسماء» عندما ظننت أنها هذا الشخص، وظلت هي عمرها لا تعرف كيف تحبني، ولا تعرف كيف تفهمني، فظللت في دائرة الشك، لتدمرني وأدمرها معي..

قالت «سيرا» غير مصدقة:

ـ انت اتجننت؟ انت كدا هتقلب الدنيا عليك وعليّا..

قالت «آن» بقلق:

ـ و«أسماء» و«مصطفى»، وكل الناس اللي هتحب تنتقم..

قلت مُشيحًا بيدي وأنا أرفض كل هذا الخوف:

ـ كل دا مش مهم..

ونظرتُ إلى «سيرا» قائلًا:

ـ أنا وهي عارفين إننا مش بنحب بعض. أنا وهي عارفين إننا مش خاينين.. يبقى طُز في الناس كلها..

واكتفيت وأنا أضرب على صدري [illegible]
وأن رهبتي من كل حاجة بتشدني لحب [illegible] أمس [illegible]
لتبتسم «سيرا» وتنظر إلى «أنا» أنا أمها، لأبتسم، أنا أعرف أن طبعي

لن يجيبه..
وأن كنت وما زلت أكثر أهل الأرض إبداعًا

* * *

بعد مشهد الحصان في فيلم الرسوم المتحركة، والتنقل بين الماضي والحاضر، وأن يحبطني أصدقائي، وقراري الفعلي أن أبدأ في تصوير الفيلم، أتى لقاء أختي مع ماضيها. رأيت ردود فعل الناس في تلك اللحظة التي غنى فيها الحاضر مع الماضي.. على الأغنية الرقيقة.. صفّق «أحمد» و«حنى» بعد انتهاء الأغنية تشجيعًا لأمهما، لكنها منعتهما بخجل وهي تضحك، في حين بدا في عيني روحها تأثُّر وانبهار جديد.. أمسك يدها وقبّلها في حنان..

لأبتسم وأنا أتأمل كل ما يحدث حولي..

رقصي مع أصدقائي وأغنية «إيه الأساتوك ده» يتخلله لقاء «جمال» مع ماضيه..

قفزي في حمام السباحة، وشهقة الناس من لحظة الحرية التي ضفّرتها الأغنية التي كنت أسمعها وقتها..

ثم لقاء «ستتانا» مع ماضيها، تسليمي الكأس..

كنت أراقبهم بصمت وأنا أقف واثقًا..

كل أغنية، كل إحساس، كنت أقرؤه على وجوههم وأبتسم في سعادة..

حتى أتى مشهد لقاء «سيرا» مع ماضيها..

ليبدأ كل ما خططتُ له في التنفيذ..

* * *

مرت الشهور أسرع مما أتخيل..

أكملتُ تصوير مشاهد الفيلم منفذًا خطتي، ذهبت وأخذت كل اللقاءات،

وبعدها مع أصدقائي ومع عم «عريب» و«حسان» وأبي، ودخلت المونتاج في استوديو أحد أصدقاء «سيرا»

عندما كنت في مراحل التعديل في الفيلم، فتحت ذلك الصندوق الأحمر، الذي تركه «عيسى الصغير» للشخص الذي حقق حلمه، ضحكت عندما فتحت أول فيديو، لأجد «عيسى الصغير» يقول بابتسامة

ـ حققت أحلامك؟ انت بتضحك علي ولا على نفسك؟ ارجع للمبدء بتاع الكتيب وبلاش استعباط..

ضحكتُ بشدة، فتحت بقية الأفلام لأجدها كلها قصيرة، لا يوجد فيها سوى كلمة واحدة.

«عُد للفيديو الثاني.. الذي فيه الأمر أو الكنز»..

لم أفعل شيئًا سوى أن عملت طول الوقت لأيام متواصلة حتى ينتهي الفيلم تمامًا..

وفي وسط عملي، وقع في يدي فيديو تركه «عيسى» في مكان لم أكُن سأتذكره إلا لو عدتُ إلى نفسي.. ذلك الفيديو الذي أعطاني كل شيء ينقصني..

فيديو «علي»، أخي الصغير..

لم يكُن مجرد فيلم..

كان توثيقًا لحالة لا بُدَّ أن يعرفها الجميع..

* * *

في لقاء «سيرا» مع ماضيها، وضعتُ لقطات سريعة لنا طول أحداث الفيلم، كيف كانت موجودة دائمًا، مزاحنا وإصرارها على الاستمرار، فيديوهات قديمة عندما كنا في الدراسة معًا..

حتى جاء مشهد قُبلتنا معًا على السطح..

المشهد الذي أعدت تصويره خصيصًا، كي أعرضه في الفيلم أمام الجميع..

بدأ المشهد بوضع «سيرا» الكاميرا على سور السطح، وتبدأ الأغنية نفسها التي رقصنا عليها، لنرقص عليها بالفعل، ثم نقبِّل بعضنا البعض قبلة طويلة،

في أحضانها عناقًا أطول..
لم يعُد هناك ما نخاف منه..
حتى الأمر لناسع
«حدثني المحب وسائل روحي سؤال. أنا مت ولا وصلت للماضية؟».
لأنظر إلى «سيرا» التي نظرت إليّ متوترة، فأمسكت يدها مطمئنًا.
ليعرض الفيلم لقطة على البحر، في ضوء القمر، مع موسيقى حالمة..
ثم تظهر «سيرا» وهي في فستان فرح أبيض، وأنا أرتدي بدلة سوداء،
حولنا «آن» و«شمس» و«درية»..
على شاطئ البحر..
مشهد زواجنا..
التفتَ مَن يعرفني في القاعة في دهشة، لمحتُ نظرة أبي الغاضبة، وشهقة أمي وهي تحدِّق مذهولة، قلق أصدقائي وابتسامة عم «غريب» الحانية وهو يقول:
- مبروك يا أولاد..
تبادلتُ مع أبي نظرة مِن نظراتنا التي تقول كثيرًا، رأى ثقتي، رأى إصراري ويقيني..
لقد اخترتُ يا أبي ما أراه صحيحًا، لا ما أخاف من غضبك عليه..
سامحني..
لا بد أن أحلِّق قليلًا من دون أن أخاف من قيود غضبكم، ومِن كل مَن اختار أمان الأرض..
أنا رجل وأخطأت، ولا بُدَّ أن أواجه أخطائي كرجل..
لا كشخص يخاف ويختبئ ويهرب من كل الحقائق أمامه..
في الفيلم، ذهبت لقطة فرحنا وسط قليل من أصدقائي، لتذوب في السواد لحظات قصيرة، ثم يظهر وجه «علي» المبتسم ثانية ليملأ الشاشة، وصوت «عيسى الصغير» يسأله:

ـ حتب تقول إيه لنفسك كمان ١٨ سنة؟

فكر «علي» في ذلك السؤال الأصعب في عمره قليلًا، لكنه هز كتفه وقال بصدق:

ـ كتير قوي يا «عيسى» ١٨ سنة.. ماحدش مضمون يعيش كل دا

ارتجف قلبي للمرة الألف كلما سمعت جملته تلك التي قالها بـ[illegible] وإحساس صادق، ضحك «عيسى الصغير» وهو يقول

ـ بعد الشر يا عم.. انت كئيب ليه كدا؟ هنفضل موجود وهنشوف الفيلم معايا.. قولي بقى عاوز تقول إيه لنفسك بعد ١٨ سنة؟

فكَّر «علي» لحظات، ثم نظر إلى الشاشة كأنما عرف الإجابة فجأة، وقال:

ـ هبقى طيار عشان أفضل دايمًا طاير في السما.. وهفضل ألعب براحتي زي دلوقتي ومش هاكبر أبدًا..

ثم شرد قليلًا ونظر إلينا قائلًا بلهفة:

ـ هافضل كل يوم يعدي أعمل حاجة تفرَّحني... وآه صح.. كمان ١٨ سنة هاشوف فيلمك دا في السينما معاك..

دمعت عيناي لتختلط دموعهم بدموع عائلتي كلها، العائلة التي لا ينقصها إلا «علي» وجدتي وجدي لتكتمل..

«علي»، الأخ السليم بلا مرض، الذي ذهب تاركًا أخاه لمريض يحيا في كآبته.

«علي»، الذي لم يُعطِه لقدر ثمانية عشر عامًا مثلي ليكتشف نفسه، بل كان يعرفها أكثر منا جميعًا..

وينتهي الفيلم بمشهد الشرفة، في الماضي أنا وهي، وفي الحضر أنا وأصدقائي نلوح عاليًا مودعين...

ظهرت كلمة «النهاية»، ليصفق الجميع تصفيقًا لم أتوقعه، ابتسمتُ وأنا أمسح دموعي بسرعة قبل أن تعود الإضاءة لتلفَّ حولي الناسُ مهنئين ومباركين لأبتسم وأردَّ المجاملات بمجاملات لا أذكرها..

حتى مر وقت بسيط ووجدت أبي يقف متأبطًا ذراع أمي ينظر إليَّ وإ

«سيرا» الواقفة بجانبي بهدوء..
ومضت أمي إلى [illegible] وقفت [illegible] عليها [illegible] دموعها [illegible] في عينيها،
عبارات، تنظر إليَّ بلوم..
ابتسم أبي [illegible] وقال [illegible] بسماحة [illegible]
ـ مش [illegible] هتعملك حاجة في الطلاق دا
نظرت إلى «سيرا» بابتسامة، ثم قلت بهدوء:
ـ مش هيبقى فيه طلاق..
وقفت بداخلي لأنه لا يوجد زواج في الأساس
كل مشاهد الزواج في الفلم كانت مزيفة تمامًا..
ثمة كانت خطتي البسيطة، عندما يرى جميع محبي «سيرا» وهي تقبلني
داخل فيلم، مزواجها المزيف في النهاية سيجعل الأمر كله ينتهي بلا ضوضاء..
لو اختارت «أسيء» الانتقام وحاولت أن تفضح الدنيا، سيعرف الجميع
أن تلك كانت لقطات من فيلم تم عرضه بالفعل.. سيظن الجميع لفترة
طويلة أننا أنا و«سيرا» زوجان . ولا أعتقد أننا سنفترق أبدًا.. ما دام بيننا
حلم مشترك..
لم أكن أنا أو «سيرا» على استعداد نفسي للزواج الآن..
ما بيني وبين «سيرا» ما هو إلا صداقة عبرت حدود الحب بمراحل..
وهذا ما لن يفهموه أبدًا..
قال أبي بهدوء وهو يصافحني:
ـ مبروك.. الفيلم كويس.. وربنا يكرمك في حياتك..
وصافح «سيرا» بهدوء يكتم خلفه أعاصير كعادته:
ـ مبروك يا بنتي.. خدوا بالكم من بعض..
وانصرف خارجًا من القاعة خلفه أمي الباكية من دون كلمة واحدة..
ساد صمت حرج، اقتربت «ستانا» واحتضنتني، همست في أذني وقلت:
ـ كان نفسي أدرّبك لرقصة فرحك..
ربتُّ على كتفها وأنا أرمق «سيرا» التي ابتسمت لي في سعادة حقيقية..

* * *

ختام

جلستُ أمام الكميرا، بعد مرور تسعة أشهر، في شقتي الجديدة على سطح فيلا «سيرا»، أنظر إلى «سيرا» التي وقفت خلفها تبتسم في فرحة، قلت وأنا أنظر إلى الكاميرا:

- ازيك يا «عيسى».. المفروض دلوقتي يبقى عيد ميلادك الـ٥٤.. بس أنا لسّه ٣٦ سنة..

واعتدلت في مقعدي قائلًا:

- المفروض بقيت مخرج معروف قوي.. إحنا رايحين نستلم جايزة أحسن فيلم تسجيلي في المهرجان.. يعني مالكش حجة.. بقيت مخرج وواخد جايزة كمان..

ونظرت إلى الكميرا مشيرًا إليها بإصبعي:

- وعارف إن حتى لو المرض هجم عليك، هتعرف تسيطر عليه.. إحنا رجعنا نتعالج من دلوقتي.. وطول ما انت معاك «سيرا» فأنا مش خايف عليك.. هتعرف تخليك تسند عليها لحد ما تقوم تاني وهي هتعرف تسند عليك عشان تقوم تاني..

وأكملتُ بابتسامة:

[illegible] حالي [illegible] إن "الق[illegible]"

- امرأة زي منى مفيش [illegible] ولا [illegible]،

و"ياسين" اتعطلوا [illegible] "إن" عرفت أحدا سلمه نفسها وشق في حياته [illegible]

الباقي بقى اتشغل ومشي.. "درية" بقت مديرة حلوة.. و"شمس" بقت

[illegible] حنينة والدب انشغلت بيهم.. أبوك وأمك [illegible] بعد ٤ شهور،

وبقيت عايشة في شقة جديدة مافيهاش ذكريات وحشة

وابتسمت ابتسامة هادئة وأنا أقول

- وضمنت تحويشة "حسام" صاحبك ربنا يكرمهم بعض ويعرفوا

ينسوا وجع الدنيا سوا..

وحدت نفسي عميقًا وأنا أقول:

- والنهارده باعرمك على العرض لأول لفيلمي الجديد.. عم "غريب"

بطّل يخاف وفتح شركة إنتاج. وأنتج الفيلم بتاعي كله.. أنا اللي كاتب

السيناريو ومخرجه. و«سيرا» هي البطلة.. دعواتك ينجح..

وأشرت إلى الكاميرا قائلًا بابتسامة:

- ولو مانجحش عيد إنتاجه وانت مخرج مشهور قوي كدا..

ضحكت «سيرا» في حنان، فأشرت إليها أن تأتي، عقدت حاجبيها وأتت

لتجلس بجانبي وتنظر إلى الكاميرا، قلتُ وأنا أربت على كتفها:

- مش كل حاجة في الدنيا تستمر بعلاقة الحب.. فيه ناس اتوحدوا في

حبهم عشان يخلوها أحسن.. من أول حد زي عم «غريب» لحد «سنتنا»..

ابعد عن أي حد بقيّدك مهما كان مين.. أي حد يقولك ماينفعش.. أي حد

يحاول يسيطر عليك.. ماتفضلش غير مع اللي عاوزك أحسن وبيشوف النور

جواك يا «عيسى» يا كبير قوي..

وأشرت بيدي بالسلام كعادتي..

وابتسمت ابتسامة مختلفة وأنا أضغط على الريموت لأوقف التسجيل..

كانت رحلة طويلة..

رحلة من قلب الواقع، لا توجد فيها لحظات ذروة ولا نهايات كاملة

كما توجد في نهايات الروايات والأفلام..

نهايات الواقع عادية.. بلا إبهار..
لكنها تعطيك لحظات قليلة لتشعر بقليل من البراح..
براح تتنفس فيه نفسًا حرًّا وتنظر إلى اللاشيء.. وتعيش في قليل من
السلام النفسي..
حتى تستطيع أن تنهض.. وتكمل في حربك المتواصلة للتحليق وسط
كل تلك الأعاصير والأمطار التي يلقيها في وجهك الواقع..
فما اكتشفته أن الواقع ليس بهذا القبح..
هو فقط يختبر قدرة الإنسان على التحليق دائمًا..
إذَمَا يُحلِّق..
..

* * *

تمت بحمد الله

شكر خاص

بعد ثلاث سنوات كاملة، تغيَّر فيها كثير من الأشخاص في قائمة الشكر..
رحل منهم من رحل وبقي من بقي.. توقعتُ أن أكفَّ عن تلك العادة إلى
الأبد.. حتى لا يصبح الشكر بمثابة ذكرى أليمة لمن غادر..
لكن الزمن يثبت لي أنه بعد مرور ثلاث سنوات ما زلتُ كما أنا أريد أن
أشكر الجميع:

عائلتي الكريمة: أحمد صادق، ماجدة الباز، سها أحمد صادق، ونهى أحمد
صادق.. أنتم السند والأمان والحياة بأكملها..

الأصدقاء الأعزاء: أحبكم لجنونكم واختلافكم وأعلم أننا سنسير في الدنيا
لا يحتمل جنوننا سوانا.. كلكم قرأتم الرواية وساعدتموني في رحلتها الطويلة
بإخلاص وصبر.. أتمنى أن تدوم الصداقة والمحبة وألَّا يفرِّقنا الزمن أبدًا..

الأصدقاء من الكتاب الأعزاء

عماد العادلي: مكانك كبير عندي، قراءتك للرواية وسط كل مشاغلك وملحوظاتك
الرائعة جعلتني أثق بنفسي أكثر وأكثر.. أنت أستاذي وأخي الكبير..

أحمد مراد: الطاقة المحركة دائمًا للأمام، شكرًا على كل شيء فعلته من أجلي،
وتشجيعك المستمر حتى انتهيت من الرواية..

أحمد القرملاوي: تربطنا كثيرٌ من الروابط، لكن دعمك دائمًا ما يجعلني

أستمر. ولن أنسى ما فعلته في آخر ليلة في مراجعة الرواية..

أحمد عبد المجيد: هناك أناس نغيب عنهم فتراتٍ ثم نعود لنكتشف أنهم أقرب من الوريد.. شكرًا لكل كلمة جعلتني أعمل أكثر حتى أطوّر من نفسي..

شيماء المارية: الصديقة الدائمة والمعنى الحرفي للأخوة النادرة.

شيرين سامي: شكرا لكل الآراء المهمة التي ساعدت في تعديل العمل.

د. آلاء زهران: سعدت بملحوظاتك المهمة ومساعدتك ومحبتك الرائعة.

بسمة الخولي: شكرا للدعم الدائم والعطاء المستمر.

محمد عبد القوي مصيلحي: الغائب الحاضر والصديق الذي أعشقه.. أنقذت كل شيء في اللحظة الأخيرة.. يعلم الله مدى محبتي الصافية لك..

وأخيرًا:

القراء الأعزاء.. أنتظر آراءكم وانتقاداتكم وأسئلتكم.. في هذه الرواية بالأخص لولا كلماتكم المشجعة في الرسائل والتعليقات.. كنت سأستسلم لأشياء كثيرة تجعلني أتأخر كثيرًا.. لكن تعليقاتكم جعلتني أشعر بالحياة.. فشكر خاص وكبير لكم.. وأتمنى دائمًا أن أكون عند حسن ظنكم وألَّا أخيِّب آمالكم أبدًا..

محمد صادق

الحسابات الرسمية للتواصل مع الكاتب:

Facebook : @Mohamed Sadek

Instagram: @_mohamedsadek_

Twitter: @mohamed__sadek_